الدكتور: العربي عقون
أستاذ التاريخ القديم بجامعة قسنطينة

المؤرّخون القدامى

غايوس كريسبوس سالوستيوس (86-35 ق. م.)

وكتابه:

حرب يوغرطة

(BELLUM JUGURTHINUM)

دار الهدى
عين مليلة - الجزائر

الرقم التسلسلي 110 - 2006 شركة دار الهدى
رقم الإيداع القانوني 2296 - 2006 المكتبة الوطنية
ردمك 3 - 800 - 60 - 9961

دار الهدى
للطباعة والنشر والتوزيع

المنطقة الصناعية ص. ب 193 عين مليلة - الجزائر
الهاتف: 030.33.28.81/030.33.27.67/032.44.92.00/032.44.95.47
الفاكس: 032.44.94.18/030.33.28.48
Site web: www.elhouda.com / E-mail: darelhouda@yahoo.fr

الفروع:

مكتبة وراقة شركة دار الهدى بـ:

عين مليلة: الحي البلدي
- الهاتف: 032.44.83.57 الفاكس: 032.44.92.67

قسنطينة: حي كوحيل لخضر جنان الزيتون
- الهاتف: 031.92.22.08 الفاكس: 031.92.27.08

الجزائر: 01 شارع أوراس بشير باب الواد
- الهاتف: 021.96.62.20 الفاكس: 021.96.61.11

وهران: 05 شارع زيغود يوسف عمارة الحرية
- الهاتف: 041.40.46.47/041.40.46.89 الفاكس: 041.41.46.54

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة(*)

ارتبطت النصوص اللاتينية في أذهان أجيال من الجزائريين الذين درسوا في المدارس الفرنسية خاصة عندما كان المذهب الإنساني (Humanisme) والكلاسيكية اللاتينية يسيطران على المناهج التربوية، ارتبطت بالاستعمار الذي كان يعمل على توطيد وترسيخ مرجعيته الثقافية والحضارية في مستعمراته، خاصة تلك التي كانت لقرون جزءا من الإمبراطورية الرومانية، ولا تزال طريقة: Thème Et Version المعتمدة في تلقين اللغة اللاتينية حاضرة في أذهان تلك الأجيال، وكما تذكر تلك المناهج فإنّ تعليم اللاتينية كان في واقع الأمر تدريسا لتاريخ اللغات الرومانية (Langues romanes).

كان اطلاعنا الأول على اللغة اللاتينية قد بدأ من الأمثال التي تُستعمَل في النصوص الأدبية الفرنسية بصيغتها اللاتينية،ولكن خلال مرحلة التدرج أُتيحت لنا فرصة الاطلاع الواسع إلى حدّ ما على هذه اللغة حيث لاحظنا أن كتابات المؤرّخين القدامى هي عبارة عن منجم حقيقي لاستخراج مجاهل التاريخ ولا تقلّ أهميتها التاريخية عن أيّ معلم أركيولوجي، وإذا كان الروّاد قد احتكروا الأبحاث والدراسات في هذا الموضوع[1]، فإنه آن الأوان لكي نوليها أهمية كبيرة لاستخلاص وقائع التاريخ منها، خاصة وأن جزءا كبيرا من تاريخنا القديم دوّن

(*) هذا العمل في الأساس هو مذكّرة مقدّمة لنيل دبلوم الدراسات المعمّقة (D.E.A)، جوان 1992.

(1) نقصد بالرواد طلائع الباحثين الذين رافقوا فيالق الغزو الفرنسي، فقد اعتبر هؤلاء كتاب حرب يوغرطة أداة استراتيجية في غاية الأهمّية. لقد دُرس الكتاب دراسة عسكرية دقيقة ونشر في بحث طويل عن تاريخ حروب الرومان والوندال والبيزنطيين في أفريقيا الشمالية القديمة، يتضمّن دراسة تحليلية للوسائل المستعملة قديما في فتح وإخضاع قسم من أفريقيا الشمالية المسمّى اليوم الجزائر واعتبر هذا البحث أداة عمل Manuel وُضعت بين أيدي قادة العمليات العسكرية، أنظر:

- La Malle (Dureau de), Histoire des guerres des Romains, des Vandales et des Byzantins, Accompagnée d'examen sur les moyens employés anciennement pour la conquête et la soumission de la portion de l'Afrique septentrionale nommée aujourd'hui l'Algérie, *Manuel Algérien*, Librairie de Firmin didot frères, imprimeurs de l'institut, rue Jacob, 56 Paris 1852.

بها، ومن هنا جاء اهتمامنا بأحد أعلام التاريخ الرومان، المؤسس لنص تاريخي متميّز يمزج بين علم المؤرخ وفن الأديب، وهو المؤرخ الروماني سالوستيوس الذي جعل التاريخ مادة للأدب والأدب أداة للتاريخ، فسما بالتاريخ إلى درجة العلم وذلك كان يُعتبَر في عصره فتحا علميا عظيما.

لم يمنع الانقلاب السياسي والاجتماعي خلال نهاية الجمهورية الرومانية تطور الأعمال الأدبية والتاريخية ولعل ذلك زاد من تطورها،خاصة في مجال الخطابة والتاريخ فقد كان التاريخ يتلقى مادته من تلك الأحداث ويتفاعل معها، ويدوّن فصولها مستفيدا من روائع الأغارقة وإذا كان يوليوس قيصر قد عمل على أن تكون أعماله أداة إشهار لبطولاته، فإنّ سالوستيوس كانت أعماله درامية في جانبها الفني كنصّ، وأكثر تاريخية في بنائها للوقائع، وذلك استنادا إلى الدراسات التاريخية التي كانت مهمّة المؤرخ الأساسية فيها هي الإجابة على لغز التسلسل في الحوادث التاريخية، وقبل الأغارقة كانت هناك مصادر تاريخية مكتوبة، ولكنها لا ترقى إلى مستوى تاريخ مدوَّن،مع أنها توضّح بدء التاريخ مثل ألواح سومر وقبادوقيا وأرشيف لاغاش ....

كان ظهور ثوكيديد إعلانا لفصل التاريخ عن الأساطير والفلكلور، الذي ملأ كتابات هيرودوت، أما سالوستيوس فقد جعل ما كان يسمى بالنثر التاريخي بابا قائما بذاته لا مجرّد جنس أدبي، ورغم النقد الذي وُجّه إليه وهو أنّ التاريخ لديه يقوم على انتقاء المواضيع حسب معايير يحدّدها ويستمدّها من سلّم القيم السائدة، فإنّ أسلوبه وبناءه للوقائع التاريخية ظلّ يثير الإعجاب.

جاء اختيارنا لموضوع المؤرّخين القدامى لحاجتنا الماسّة إلى التزوّد بالمعارف التي احتفظت بها آثارهم، مع التركيز على سالوستيوس لأنه أرّخ لفترة هامة من تاريخ الشمال الأفريقي القديم ولو أنّ ذلك لا يخلو من نظرة رجل سياسة يدوّن أمجاد أمّته الرومانية، فالكثير من القضايا التي حاول طمسها، يمكن للدارس المتفحص أن يستنبط منها عدّة حقائق ولعلّ أهمّ تلك الحقائق هي علاقة الصراع والاستعمار بين ضفّتي المتوسط الجنوبية والشمالية، إنه ما إن يستعيد الشمال الأفريقي زمام أموره بيده حتى يعلن عن كيانه الخاصّ وأنّه لم يفقد روحه وخصوصيته.

قسّمنا البحث إلى ثلاثة فصول، كان الأوّل عن المؤرّخين القدامى، وأثر الأغارقة في تمدين روما وتثقيفها، وأخذنا ثوكيديد كنموذج للمؤرخ الإغريقي الذي اقتدى به سالوستيوس وسار على نهجه، رغم القرون التي تفصل بين الرجلين، كما أخذنا نماذج من المؤرخين الرومان المعاصرين له، من القرنين الأوّل ق.م. والأوّل بعده، وهم قيصر كنموذج للمذكّراتي وسويتونيوس كنموذج لكاتب التراجم، وتيت ليف كنموذج للمؤرخ الناضج، فقد كان هؤلاء في روما أبرز من يمثّل حركة تدوين التاريخ، ولكلّ واحد منهم أسلوبه في التدوين الذي من خلاله يظهر التفرّد السالوستي.

أمّا الفصل الثاني فكان عن المؤرّخ الروماني سالوستيوس، الذي يتمحور هذا البحث عليه وعلى أهمّ أعماله، وذلك في نظرنا على جانب كبير من الأهمّية لأنّ تسارع التاريخ في القرن الأوّل قبل الميلاد -وهو القرن الأخير في حياة الجمهورية الرومانية- والأوّل بعده، انعكس على الوضع الثقافي والفكري، وأصبحت روما تعيش التاريخ بما فيه من حركة وتفاعل وتمرّد وتضارب واصطدام... وحروب أهلية، توسّعات في حوض المتوسّط ونموّ المؤسسة العسكرية الرومانية... كلّ ذلك كان مؤشّرا لميلاد ونموّ الروح «الإمبريالية» ومن هنا تأتي ضرورة تدوين كلّ هذه الأحداث، ويأتي ظهور مؤرخين وتدوين الأحداث محصّلة طبيعية لتلك الظروف والأوضاع، لهذا لا يمكن فهم سالوستيوس دون التطرّق إلى عصره، لأنه نتاج هذا العصر، معه تفاعل، وعنه كتب.

أخيرا، في الفصل الثالث، تناولنا أعمال سالوستيوس وميزتها وأهمّيتها، ثمّ اخترنا أبرز تلك الأعمال وهي الحرب «ضدّ» يوغرطة، حيث استعرضنا أهمّ محتوياته مع تحليل ومناقشة الأحداث التي أرّخ لها، وأنهينا العمل بتعريب نصّ الحرب "ضدّ" يوغرطة والتعليق عليه في الهامش متى دعت الضرورة إلى ذلك.

نودّ أن نبيّن هنا بأنّ ما درج عليه الدارسون والمترجمون هو استعمال عبارة حرب يوغرطة (la guerre de Jugurtha) في مقابل العبارة اللاتينية: (Bellum Jugurthinum) وهذا هو المعنى الظاهر ، ونحن من جهتنا نرى أنّ الحرب كانت ضدّ يوغرطة ولم تكن له بقدر ما كانت عليه، وهو المعنى الذي ينبغي أن يُفهَم من العبارة اللاتينية، كما أنّ ربط الحرب بشخص يوغرطة دليل

على مخطّط دعائي استعماري مخادع، ظاهره أنّ الحرب ضدّ شخص يوغرطة وليست ضدّ الشعب النوميدي ومملكته، وهو المخطّط الدعائي الذي يتكرّر مع مطلع كلّ احتلال من قبل المستعمرين.

كان هذا العمل يتطلّب الكثير من الجهد والصبر خاصّة القراءة في نصوص مدوّنة بلغة «قاموسية» للوقوف على الحقائق كما هي في الأصل، ولذلك واجهتنا صعوبة كبيرة - ونحن نلج هذا المضمار الشائك - كادت أن تثنينا عن مواصلة العمل، خاصّة وأنّ أغلب المصادر غير متوفّرة، لتعرّض مكتباتنا لنهب فظيع، جرّدها مما كانت تتوفّر عليه من نفائس، كمكتبة المعلّمين بقسنطينة، ومكتبة البلدية بنفس المدينة.

لقد اعتمدنا في هذا العمل البحثي على مصادر أساسية أوّلها أعمال سالوستيوس وخاصّة كتابه: «حرب يوغرطة» أمّا المراجع فكان أهمّها بيروشون (Perrouchant) في عمله القيّم: نماذج سالوست الإغريقية (Les Modèles Grecs de salluste) وكذا كاركوبينو في عمليه الهامّين: تاريخ الجمهورية الرومانية (Histoire de la république romaine) وسولّة أو الملكية الضائعة (Sylla ou La Monarchie manquée)، كما استفدنا كثيرا من دائرة المعارف الفرنسية (Encyclopaedia Universalis) في موادّها المتعلّقة بموضوع هذا العمل ومن هذه المصادر والمراجع استخلصنا قاعدة هذا البحث.

لعلّ أهمّ ما يواجه الباحث في هذه المراجع من إشكالات هو أنها تعكس آراء المدرسة الكولونيالية في عصر ازدهارها بالجزائر، حيث الموضوعية نسبية، إذ نجد الكاتب المبهور بالنصوص الإغريقية أو اللاتينية التي تؤرخ للتفوّق الأوربي على أنّه ليس وليد العصر الحديث بل هو ضارب في القدم وهذا ما ينمّي روح "المركزية الأوربية" لدى هؤلاء، ويقلّل من الموضوعية في نصوصهم ولكن الباحث الحذر يمكن أن يجد الطريقة التي يستفيد بها من هذه المراجع والدراسات المتخصّصة بالقراءة بين السطور والتمييز بين الآراء والشواهد التاريخية...، وهو ما حاولنا اتباعه.

وعسى أن نكون بهذا العمل قد أنجزنا شيئا مفيدا.

د. العربي عقون

الفصل الأول

نماذج من المؤرخين القدامى

حركة التاريخ في روما وأثر الأغارقة

لم يكن تاريخ الحضارة الرومانية في واقع الأمر إلاّ تاريخا لتقدّم الهلينيستية (Hellenistisme) وقد عبّر عن ذلك الشاعر هوراس في قوله[1]: «...إن اليونان المفتوحة غزت فاتحها الشرس، فأدخلت فنونها إلى ريف اللاتيوم.»[2]، فقد فتحت روما الباب واسعا للثقافة الإغريقية التي تلقتها مباشرة، أو بواسطة الأترسك، والملاحظ في هذا السياق أنّ قانون الألواح -وهو أول قانون مكتوب لديها- أنجزته بعثة، كانت قد سافرت إلى اليونان لهذا الغرض.

إن التأثير اليوناني الحقيقي بدأ يهيمن خاصة منذ الشروع في فتح إغريقيا الكبرى وصقلية، فقد أصبح الرومان على صلة مباشرة بالآداب والفنون الإغريقية، وأصبحت تلك الفنون والآداب مزدهرة خاصة بعد فتح اليونان وتحويلها إلى ولاية رومانية، وأفرزت في روما آدابا وفنونا أثرت في المعتقد وفي السلوك والأخلاق، وغيّرت جذريا الوضع وهو ما يعادل ثورة حقيقية،وحيث أن الفن الإغريقي كان أخّاذا وخاصة فنون الأدب الإغريقي، فقد كان استقدام معلمين وأساتذة إغريق ضروريا، وأخذت أجيال المتعلمين الجدد من الرومان تنهل من الأدب والفلسفة الإغريقية، وأصبحت الرحلات العلمية نحو اليونان ضرورية،وهذا لإكمال كل دراسة جادّة، وقد أدّى ذلك إلى ظهور أدب لاتيني أقيم على أساس النماذج والأجناس الأدبية الإغريقية واكتسب روحا جديدة على أنقاض التفكير السطحي والشكلي لأوائل الفلاحين الرومان[3].

---

(1) كوينتوس هوراتيوس فلاكوس (Quintus Horatius Flaccus) 8-65 ق.م. شاعر لاتيني يرى أنّ السعادة تبني على الوسطية في كلّ شيء، من أهمّ دواوينه رسائل شعرية (Epistolae)، وهو ما جعل شعراء وفنّاني النهضة الأوربية الحديثة يعتبرونه نموذجهم الخالص.

(2) - Graecia capta ferum victorum cepit, et artes intulit agresti Latio.

(3) - Grenier (A), Le Génie Romain, Ed. La Renaissance du livre, Paris 1925, P. 279

إن الرومان عنصر يهتمّ أوّلا وبكل انهماك بمصالحه، وتهيمن عليه روح العمل في الميدان ولذلك كان خياله محدودا، وكانت الآداب والأغاني الرومانية الأولى فقيرة في الصور الخيالية وجافّة، وكان لا بد من انتظار وصول الأغارقة حتى يقوم أدب مزدهر بروما،ولا ننسى هنا بأن التاريخ كان يعتبر جنسا من الأجناس الأدبية الفعالة.

كان أوّل من دفع الرومان إلى تذوّق روح الشعر الإغريقي وبنههم إلى أهمّية الشعر الدرامي وخاصّة الشعر الملحمي وهم أمّة حربية، هو أحد الأغارقة من مدينة تارنت اسمه: لفيوس أندرونيكوس (Levius Andronicus) الذي كان قد بيع في سوق النخاسة بروما، وتلاه بعد ذلك العشرات من الأغارقة الذين هذّبوا الحياة الأدبية بروما، ووضعوا الأسس لنهضة فنية وأدبية رائعة، وذلك بعد دراسة واسعة ودقيقة لكل الكتّاب الإغريق وخاصة أعمالهم في النحو والبلاغة،وقد تأثرت اللغة اللاتينية ذاتها باللغة الإغريقية وامتلأت بمئات الكلمات الإغريقية التي تدل على الأشياء والمعاني الجديدة، واختفت الكلمات الإيطالية القديمة من الاستعمال، وانحصرت في أوساط الفلاحين والريفيين[1]، ولذلك فإنّ جميع ما سيظهر في روما من آداب وفنون سيستند على قاعدة متينة تقوم على تمثّل الثقافة والفنون اليونانية وتطعيمها بالروح الرومانية، وهذا التزاوج سيثري الحضارة الرومانية، وسيجعل منها الامتداد الطبيعي للحضارة الإغريقية والاستمرارية التي لا تنقطع لها، ومن بين أهمّ المجالات التي ازدهرت بصفة مطّردة -اعتمادا على ذلك- الدراسات التاريخية التي أخذت تدريجيا تتخلّص من الروتين الكرونولوجي لكتاب الحوليات وتتجه نحو جعْل التاريخ بابا قائما بذاته متحرّرا من الأجناس الأدبية، وهو الموضوع الذي سندرسه من خلال ثوكيديد كنموذج إغريقي، وسالوستيوس وآخرين كنماذج لاتينية.

01 - ثوكيديد (حوالي 395-465 ق.م.)

هو أحد المؤسّسين للتاريخ كفنّ وعلم، وكانت له مكانة مرموقة بين المؤرخين القدامى، فلقد روى ودوّن حربا عايشها، وقدّم تحليلا عميقا لها، نجح في بنائه

---

(1) إيملر (أندويه) روما وحضارتها في سلسلة: تاريخ الحضارات العام، تعريب يوسف وأسعد داغر، ط 1، بيروت 1964، ص ص 234، 236.

على أسس دقيقة، ويمكن اعتبار هذا التحليل مكسبا دائما، استمرّ كأسلوب متفرّد اعتُمِد عليه في تدوين التاريخ على مرّ قرون عديدة[1].



الشكل (1) ثوكيديد
المصدر: متحف نابولي

يتضح من خلال عمله التاريخي حُسن تفهُّمه لتسلسل الأحداث التي سردها ودوّنها فلقد أرّخ للحروب البيلوبونيزية[2] (Guerres Péloponnèses) (431-404 ق.م.) أي المواجهة مابين المدينتين اليونانيتين الكبيرتين آثينة وإسبرطا[3]. وكانت هذه الأخيرة آنئذ في أوج ازدهارها وكانت تتزعم الحلف أو الكنفدرالية البيلوبونيزية، أما آثينة فكانت قد أسست "إمبراطورية" غداة الحرب الميدية[4] ما فتئت تنمو وتتدعم حتى بلغت في عهد بيريكليس (PERICLES) درجة كبيرة من الازدهار الذي أشعّ على كل بلاد اليونان، ولا تزال منجزاتها العمرانية شاهدة على عظمة حضارتها ومنها الأكروبول[5]. وكان ثوكيديد قد عايش الحرب البيلوبونيزية فهيمنت على تفكيره تفاصيل أحداثها وأثرت على كيانه وذلك ما جعله كما يبدو يقرّر أن يكون مؤرخها.

تصاهر مع إحدى العائلات النبيلة بأثينة، وتحصل على رتبة في قيادة الفيالق العسكرية، ولكنه فشل في أمفيبوليس (Amphipolis) فتعرض للنفي والإبعاد، وأثناء ذلك كرّس وقته وجهده لكتابة التاريخ، ومما ساعده على ذلك أنه كان على درجة من الثراء، تمكّنه من أن يسافر ويبحث وينقّب عن الحقيقة وعن

---

(1) لم يكن ثوكيديد معاصرا لسالوستيوس ولكننا آثرنا العودة إليه لتأثيره الكبير على النصوص السالوستية بل على كلّ المؤرّخين القدامى، وقد فضّلنا كتابة اسمه كما يُنطَق في اللاتينية: ثوكيديد بالكاف وليس ثوسيديد بالسين على عادة المتأثرين بالنطق الفرنسي.

(2) البيلوبونيز هي شبه جزيرة يونانية، تلتصق باليونان القارّية بواسطة برزخ كورنث.

(3) - THUCYDIDE, Histoire de la guerre du Péloponnèse, Editions Robert Laffont Collection Bouquins, introduction par Jacqueline de Romilly, Paris 1964 pp. 8.12.

(4) (Guerres Médiques) وقعت ما بين المدن الإغريقية والإمبراطورية الفارسية (القرن الخامس ق.م.).

(5) - Grande Encyclopédie Larousse, Librairie LAROUSSE, Volume. XIX, Paris 1976 P, 11916.

تفاصيل الأحداث في الدولتين: إسبرطا وأثينة[1]. وعندما انتهت الحرب واصل عمله في الكتابة والتدوين وكان عليه أن يعود إلى أثينة، ولكن الموت باغته بعد ذلك بسنوات قليلة، فبقي عمله التاريخي غير مكتمل، فقد توقّف في المجلد الثامن حوالي سنة 411 ق.م..

كان يعمل على أن يكون الرائد من بين المؤرخين في البحث عن الحقيقة، تحليلا وتدوينا واستنتاجا، ولذلك كان صارما وقاسيا في أحكامه، وإذا كان مَدينا كثيرا لهيرودوت (HERODOTE) فإنه من غير شكّ هو واضع أُسس النقد العلمي في التاريخ، فقد رُويت له أحداث قريبة من عهده أو عايش بعضها، ولذلك كان تساؤله عن الحقيقة في كل ما يسمع أو يشاهد وخلفيات كل ذلك هو السبيل الذي قاده إلى هذا المنهج الجديد في كتابة التاريخ، إنه يشير إلى النقائص التي تحاصر الحقيقة، وبذلك يستنتج العناصر التي تحدد أهمية الأحداث[2].

لعل هذا الانشغال بالملاحظة الصارمة آت من تأثير الأطبّاء، فالبحث عن الحقيقة لديه كالتشخيص عند الطبيب تماما – لقد كان معاصرا للطبيب هيبوقراط – وفي كتابه الثاني ذكر الطاعون الذي أصاب آثينة وكان وصفه لهذا الوباء بحسّ من هو على إلمام كبير بالطب، كما يلاحظ ابتعاده قدر الامكان عن الأحكام الذاتية، بحيث يصعب في بعض المواقف معرفة أو استنتاج موقفه الشخصي، ولا يعرف إن كان ذلك لاعتبارات أخلاقية أو دينية[3]. وقد برع ثوكيديد في ابتداع منهج تقديم الأحداث وترتيبها حسب التسلسل الزمني ثمّ جعْلها تعبّر عن نفسها بنفسها، ولذلك رتّبها حسب الفصول –الصيف والشتاء– تاركا نهايات الفصول لاستعراض ما تمّ في نفس الوقت أو كان متزامنا. إنه يقدّم تلك الأحداث كما هي دون شروح أو تعاليق، وذلك هو منهج ثوكيديد[4].

---

(1) Enyclopaedia Universalis, Volume XVI, Paris 1974, P. 82.

(2) ول ديورانت، قصّة الحضارة، تعريب محمد بدران، المجلد العاشر، القاهرة 1972، ص.ص. 332– 333.

(3) Enc. Univ. p. 83.

(4) De Romilly (J) Histoire et raison chez Thucydide, Paris 1956, pp. 15-21.

إذا كان التوجه السياسي عند هيرودوت لا يبدو إلا في الدرجة الثانية، فهو عند سالوستيوس أكثر وضوحا، عند الأول تضميني يبدو من خلال وصف البلدان والعادات والتقاليد وسرد الأساطير والروايات المتواترة، وعند الثاني واضح للعيان لأن العمل نفسه يؤرخ لصراعات سياسية لا يخفي سالوستيوس مواقفه منها، وهذا من تأثير الواقع السياسي اليومي بروما ومن تأثير المنهج الثوكيديدي.

إن ثوكيديد هو نتاج آثينة الديمقراطية ذات السيادة، حيث كان النقاش السياسي يؤلف عادة تتكرر خلال سائر الأيام، وهي أولى النشاطات الثقافية، فقد درس السفسطائيون فن الكلام ودحْض الحجج، وأصبح بعضهم زعماء سياسيين أو حاول على الأقل، ودون ريب فإن ثوكيديد كان تلميذ هؤلاء، تبدو آثارهم في أعماله وفي الحوارات التي ترد في كتبه،وقد كان ذلك ضروريا لإيضاح الحقيقة، وبذلك خدم منهجه التاريخي إلى أبعد الحدود[1].

لقد ذكر شخصيات تاريخية ونسب إليها خطبا لاريب أنه استوحاها من مواقف تلك الشخصيات وأعمالها وتوجهاتها، وقد قدّم هذه الخطب كما لو أنها للتحليل وإيضاح المواقف، هذه الخطب والحوارات كانت ثرية بأسلوب السهل الممتنع فقد كان يعرض فيها ويلقي أضواء على مخططات كل منها وذلك بوضوح العلاقة بين المواقف والتوجهات ويكتشف الأخطاء المترتبة عنها، وأهمّ من ذلك ما هو على شكل حوار وهو يوضح أثر السفسطائيين الذين كانوا يعملون في قلب الحقائق، فهذا الفن يمكن أن يفيد ثوكيديد في اقرار الحقائق والكشف عنها، إنّه فن يتحرّى الدقة في التوظيف اللغوي وسيفيد ثوكيديد إلى أبعد الحدود، وبذلك فإن أسلوبه يبدو دائما مجردا ودقيقا وصارما، حيث يعبر باقتضاب لايخلّ بعرض الواقعة التاريخية[2].

---

(1) - Grande Encyclopédie, éditions Larousse, Paris 1977, p. 11917.

(2) - DE ROMILLY (J), La Construction de la vérité chez Thucydide, Paris 1990, pp. 21-26.

من خلال هذه الأدوات التي يوظفها، فإن الحقيقة يعاد بناؤها بالتفكير فيها، وبربط أجزائها وبالحوار الطويل المتسلسل، من حلقة إلى حلقة، في حين تبقى القضية المركزية -وهي الحقيقة- دائما هي المحور لأنّ الوقائع تهيمن على الكل وتشرح الكل وتظلّ تلك الحقيقة عنده هي الامبريالية الأثينية[1].

إنّه يشرح أولا الحرب، وليس ذلك هو المعيار الواحد لقياس جدارة ثوكيديد بل إنه جرّب أن يبعد كل القضايا العارضة حتى يدعم ما يسميه بالقضية الأكثر حقيقية، ليؤكد بأن الحرب اندلعت بسبب الضغوط التي زرعتها بذور النمو الأثيني، لأن قوة آثينة تأتي كلها من إمبراطوريتها والحرب عندما تقوم يكون هاجس الهيمنة هو دافعها، وضعفها آت من كراهية الشعوب المغلوبة لها ولمواجهة ذلك كله فإنّها مجبرة على تدعيم نفسها،وبذلك تكون إمبراطورية محكوم عليها بمواصلة نفس الطريق[2].

إنّ فكرة الحقيقة الواحدة تفسر لنا كيف أن تدوين الحلقة أو الرواية التاريخية القريبة والمحدودة تتمّ في الآن نفسه،فقد عرف ثوكيديد كيف يتبع التسلسل في الأحداث بحيث أنه وبعد كل معركة، تظهر له سلسلة الكتب التي تعالجها، وتؤرخ لها على منوال ما فعله في الحروب البيلوبونيزية، ولتغذية التفكير التاريخي لديه، يلتقي في أعماله الفيلسوف والسياسي -من الذين ترجم لهم- والحال أن المؤرخين لم يكونوا في جميع الأحوال راضين علىمنهجية معينة، إنّهم دائما يفضلون سرد الكثير من الوقائع بمقدارما تقلّ الجوانب الفكرية ويتأففون من فضول هيرودوت الذي لاحدّ له. لقد خاب ظنهم في أن مؤرخا بهذه المميزات لا يؤرخ لحرب ما، إلا من الزاوية السياسية، ولا ريب في أن ثوكيديد لم يكن للمؤرخ المثالي بحسب القواعد العصرية، ومع ذلك فهو مؤلف لعمل فريد لا يضاهى لا نزال نعود اليه دون أن ينضب أبدا.

---

(1) - ARON (R), Dimensions de la conscience historique, Thucydide et le récit historique, Plon, Collection Agora, 1985. pp. 30-35.

(2) - Steel (Henri) L'Histoire et L'HistorieaN, ouveaux Horizons, Paris 1967, P. 30.

02 – قيصر، المؤرخ والكاتب أو«المذكراتي» 101 أو100-44 ق.م.:

لم يكرّس يوليوس قيصر (ش.2، ص15) حياته للآداب، فقد كان أرستقراطيا دون ثروة، ولم يتخذ قلمه للكسب أبدا، إلا أنه تلقى تكوينا متينا في منزله على يد أستاذه ومعلمه أنطونيوس غنيفو (Antonius Gnifo) وهوعالم بلاغة ونحو، ثم في رودس مابين 76 و74 ق.م.على يد الأستاذ الشهير أبوليوس مولون (Apollius M) ولذلك فإن بلاغته بالنسبة لمعاصريه تعادل بلاغة شيشرون.

أثناء شبابه وككل الرومان كان قيصر مسكونا بحب الآداب، وأعجب بهرقل وبتراجيديا أوديب وهو شاهد على نفوذ الإغريق وتأثيرهم حيث درس مؤلفاتهم وأعمالهم الأدبية، ورغم ذلك فإنّه لم يضف بأعماله الأدبية هذه أمجادا إلى أمجاده في السياسة والجندية لأن أعماله ظلت محظورة بعد وفاته لفترة، فقد أوعز الامبراطور أغسطس (Augustus) إلى مندوبيه على الأرشيف بإخفاء أعمال قيصر وسحبها من المكتبات وخاصة كتاب: (Apophtegmata) الذي هو ديوان يضمّ الأمثال والجمل البليغة مثل: (Veni, Vidi, Vici)[1] وكان خير مسلّ لرجال الثقافة والآداب آنذاك.

كان قيصر قد كتب خلال اختراقه بلاد الغال كتابا في اللغة اللاتينية هو في القياس (De Analogia) درس فيه عدّة نظريات وردت في كتاب في الخطابة (De Oratore) لشيشرون المعاصر له، وسيتقل بعد ذلك إلى إسبانيا لمحاربة أنصار بومبيوس (نهاية 46 ق.م.)[2] وسيكتب بعض الأشعار، وفي 45 ق.م. سينشر رسالة هجاء في جزأين، وكتاب ضد الكاتونية (Anti Catones) للردّ على الانتحار «البطولي» لخصمه كاتون الأوتيكي وأثر ذلك على الأذهان[3]، أما

---

(1) «أتيت، رأيت، انتصرت !»، عبارة أبرق بها يوليوس قيصر إلى مجلس الشيوخ الروماني يختصر فيها النصر الخاطف الذي حقّقه على فارناس ملك البوسفور، وقد أصبحت مثلا سائرا في اللغة اللاتينية ثمّ اللغات الرومانية المتفرّعة عنها، إشارة إلى كلّ نصر يتحقّق بسرعة وبسهولة.

(2) Bayle (P.) Dictionnaire Historique et Critique,. Genève 1969 Volume V. P. 22. -

(3) عثمان (أحمد)، الأدب اللاتيني و دوره الحضاري في سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1989، ص 190.

عمله الآخر في الحرب الغالية (De Bello Gallico) فمن الممكن أن يكون قد أملاه حوالي نهاية 52 ق.م. في معسكره الشتوي في بيبراكت (Bibracte)، وما بين سنة 45 ق.م. إلى وفاته يكون قد كرس وقته لإملاء كتابه عن الحرب الأهلية (Bellum Civile) والذي من الممكن أن يكون قد نُشر دون أن يكمله -بعد وفاته- من طرف أنطونيوس (Antonius) ثم من قبل هيرتيوس (Hirtius) وهو أحد الأوفياء الخلّص الذين شاركوه في كل أعماله، ولعلّه هو الذي أكمل الحرب الغالية بجزء ثامن (51-50ق.م.)، لإكمال تعاليق قيصر.

إنّ هذه الكتابات بالنسبة لقيصر هي أداة للبقاء حاضرا في أذهان «الرأي العام» سواء عند عودته من غاليا (La Gaule) أو لدى انطلاقه في غزواته الكبرى في الشرق، وقد أحدثت أثرا كبيرا في الأوساط السياسية والأدبية المتكونة من أعضاء السيناتوس وسلك الفرسان، وكان قد أحدث أثرا كبيرا فيها كما تفعل المقالات التي تنشرها الدوريات الآن، بحيث لا تزال كلمة (Commentarius) تحمل معنى مذكرات تهدف إلى حفظ الذاكرة بالتوثيق[1].

يقدم قيصر عمله: الحرب الغالية (De Bello Gallico) كبداية لعمل تاريخي يدعو المؤرخين «المحترفين» إلى إتمامه، وهو في أسلوب يتوسط بين أسلوب الرواية المجرّد من زخرف اللفظ، وأسلوب التزويق الخطابي، وذلك في وقت أصبح فيه الجنس المعرفي -التاريخ- يبحث عن شكل مميّز له،كما أن منهجية العمل ذاتها وسط بين هذين الأسلوبين[2]، وعلى اعتبار أنه مؤرخ، فإن قيصر استعمل أدوات المؤرخين في إنجاز عمله ولا ريب ولكنه ككاتب مذكرات أدخل هذا الأسلوب في الأسلوب السائد آنذاك في روما، وهو أسلوب الحوليات، فقد كانت الحولياتية (Annalisme) آنذاك هي الإطار التقليدي لأعرق الكتابات، حيث أن المادة متقطعة وموزعة سنة بعد سنة وفصلا بعد فصل.

- Bayle (P.) OP. CIT. P. 24. (1)

- Aron (R.) Introduction à la Philosophie de l'Histoire, Librairie GALLIMARD, (2) 12ème Edition, PARIS 1948, P. 280.

إن إطار الحرب الأهلية يبدو مختلفا بعض الشيء، لأن الكتابين الأولين معا مخصصان لسنة واحدة، هي سنة 49 ق.م.، ولكن بعض المخطوطات تقدمها كعمل واحد في جزء واحد ولعل هذه التجزئة تعود إلى قيصر ذاته حيث كان العمل التاريخي قد تطوّر بعض الشيء(1).

إن الملف التاريخي لدى قيصر يتضمن وقائع كل يوم من مسيرته الحربية: الرسائل والتقارير الرسمية التي تلقاها من مختلف ضباطه، ونسخا لهذه التقارير لدى السيناتوس فوجود مثل هذه التقارير تؤكده مصادر أخرى مثل شيشرون وتيت - ليف، ويؤكد سويتون بأن قيصر أعطى لتقاريره أهمية كبيرة، تضاهي الأهمية التي أولاها لمذكراته(2).

كان قيصر يستعين بضباطه وأصدقائه مثل هيرتيوس (Hirtius) الذي اعتاد كتابة التقارير العسكرية لقيصر باعتباره ضابطا في الجيش، ومكلفا بأمانة السر، ودون ريب فانه يكون قد جمع وثائق كل كتاب، ولذلك سهل عليه - بعد وفاة قيصر - إكمال أعماله (الكتاب الثامن من التعاليق)، ولعله يكون قد أكمل أعماله الأخرى (الحرب الاسكندرانية، الحرب الأفريقية والحرب الإسبانية).

من تحليل نصوص أعمال قيصر، نلاحظ ترتيب تسلسلي فيها أولا بأول كما أنجزها:الرسائل التي تلقاها والتقارير التي سجلها، ثم نماذج من النصوص التي نقلت وقطع أضيفت لضرورة التحرير، وإضافات أخرى إلى الوثيقة الأساسية، عادة ما توضع ضمن إطار، ورغم بعض الغموض في التفاصيل وحتى بعض التناقضات، فان اعتماد التبسيط يسهل تتبع الخطوط العريضة في رسم الحادثة التاريخية ويترك انطباعا عاما «بنزاهة» المؤرخ(3).

إنّ هذا الأسلوب في بناء الحادثة التاريخية يفضي في النهاية إلى الاستنتاج بأن الأساس المعتمد عليه والبناء المعتاد في علم التاريخ القديم والذي وضع الأغارقة

---

(1) عثمان (أحمد)، مرجع سابق، ص 202.

(2) نفسه، ص ص 203-202.

- Rambaud (M.), l'Art de la déformation Historique dans les COMMENTAIRES (3) de CESAR, 2ème Edition, PARIS 1966, P. 4.

نماذجه الأساسية مثل: احترام التسلسل الزمني أثناء سرد الوقائع التاريخية وتقسيم النصّ إلى أجزاء كل جزء يمثل حلقة في سلسلة التتابع الزمني، ولذلك نلاحظ بأن أعمال قيصر تتكون من المحاور التالية:

- الانطلاق والمسير.
- عبور الأنهار والبحار.
- الخطب الملقاة.
- عمليات الحصار.
- المعارك.

الشكل (2) يوليوس قيصر
المصدر: متحف نابولي (إيطاليا)

وحسب مبادئ البلاغة فان تركيب هذه العناصر وربطها ببعضها يجعل الحياة تسري في عروق التاريخ مما يوقظ الحسّ الدرامي ويشد الانتباه، فالكتاب الأول من الحرب الغالية، والكتاب الأول من الحرب الأهلية غنيان بالخطب التي تفسر بدايات الحرب، وفي الجزأين الخامس والسابع من الحرب الغالية يمكن التعرف إلى التسلسل والدورة: فوز، هزيمة ثم انتصار[1]، وفي مضمار هذا الجانب الجمالي يظهر قيصر الجوانب التي يريد ترسيخها كذاكرة لدى السيناتوس ولدى العالم الروماني مثل:الإلحاح على الوقائع التي تبرر هجوما ما، حيث يتحول منطق الخطب إلى تبرير يبرز الوقائع بأسلوب يقترب من أسلوب الرواة، كما أن كل فشل أو هزيمة يكون مسبوقا بسرد للأسباب أو الظروف التي تجعله طبيعيا بل ومنطقيا ومبرّراً في ذهن القارئ، هذا البناء للواقعة التاريخية بتفسيرات مسبقة نتعرف عليه في مختلف حلقات كتب قيصر، خاصة عندما يترك العنان للسرد والرواية[2].

إنّ الأحداث من خلال متابعة دائمة تسجل أو تهمل حسب أهميتها إنْ كانت أساسية أو فرعية مثل تثمين خصال قادة الحرب وتطوّر جيوشهم، وأحقية الاستفتاء الذي هو محور اهتمام الشعب، وتماثل أو عدم تماثل الخطب

(1) - CESAR: Bellum Gallicum, Paris 1961, Livres I., VI., VII.

(2) - Enc. Univ. Volume IV., P. 81.

والمواقف التي تختلف باختلاف المكانة الاجتماعية أو السياسية أو العلاقة ما بين الشخصيات.

كان قيصر في البدء يصنَّف على أنّه «الإمبراطور الكامل»، فكل ما يوافقه يبدو جيّدا، وكل ما يعارضه سيّء إلى درجة إهماله أو نفيه، فالمذكراتي (Mémorialiste) يعرض وقائع لا تحرجه من خلال شخصيات ليس لها اعتبار كبير، كضابطه الضعيف: سابينوس (Sabinus) أو عدوّه أمبيوريكس (Ambiorix)، وهذا لإثبات عدالة قضيته، وحدّة ونزق الغاليين وحماقة بومبيوس وأنصاره[1].

يبدو أسلوب قيصر موحدا وواضحا مع بعض من التعقيد حسب العمل وأغراضه، إنّه الاستعمال الذاتي للصيغ الكلاسيكية، مما يمكننا من التمييز بين التقنيات العامة وأسلوبه الذاتي، ويمكن ملاحظة الأسلوب «الإداري» وكيف يكون قيصر قد أعاد كتابة أعماله أو أعاد نسخها،وتحت ضغط التعود في كتابة أو رفع تقارير إلى السيناتوس يبدو تولّد العبارة أو الجملة التاريخية التي يظهر فيها ترتيب لاعتبارات النشاط الرئيسي في نسق منطقي وترتيب زماني، وعلى وجه الخصوص صياغة العبارة المعروفة: مفعول مطلق+جملة، مع CUM + جملة أساسية[2].

من جهة أخرى، كان استعمال مختلف الوثائق الآتية من مصادر متعددة قد أدخل في عمله (تعاليق عن الحرب الغالية مثلاً) ثراء، يحتفظ بنوع من التعابير الأصيلة المثيرة للإعجاب، ذلك أنّ تجميع الوثائق لضرورة الربط ما هي إلا صيغة انتقالية متطورة عن أسلوب الحوليات القديم، فاستعمال تعابير مثل: (Eodem، Tempore، Dom، Haec، Geruntur) والخلاصات المختصرة يعني التركيز على الكم المتراكم من الوقائع، وبقدر ما برهنت الأساليب الخطابية على القدرة على التصوير، فإنّها لم تكن غائبة في الحروب الغالية إلا أنها أكثر استعمالا في الحروب الأهلية.

---

(1) - Bayle (P.) OP. CIT. P. 32.

(2) - Encyc. Univer. Art. Cear, P. 81.

يبدو على قيصر اعتماد النقاوة في اللغة والنحو، وحسب جمالية ذات خصوصية دافع عنها في كتابه: (De Analogia) فانه يضع مبدأ القواعد الخطابية أساسا لانتقائه اللفظي، وقد عبّر عن هذه القواعد الخطابية بـ: التفرد البلاغي القيصري (Elegantia Caesaris)، ومن خلال الأبحاث الكلاسيكية فإنّه كان يتجنب المصطلحات المدققة، فهو يسمي سفينة حربية (Novis Longa) دون أن يدقق في تسميتها ما إذا كانت مجذافية ثنائية أو ثلاثية، وهو يطبق هذه الطريقة في تسميته للآلهة الغالية، حيث أطلق عليها أسماء الآلهة الرومانية مثل: مركور (Mercure) ويوبيتر (Jupiter) ومينروا (Minerve) وغالبا مايعتمد في أسلوبه هذا على ما يمكن تسميته بفن الكناية والاستعارة وهو أيضا يتجنب أن يصوغ أسلوبه بضمير المتكلم (Ego) بل يستعمل ضمير الغائب[1].

في أعمال قيصر، هناك مكانة خاصة لشخصه، ففي التعاليق يفرض أفكاره ومواقفه وآراءه إلى درجة أنه يريد أن تكون حقائق لا يمتد إليها الشك، مثل الحط من شأن بومبيوس، وإسقاط الشعور الجماعي الذي يحرك وينشط المقاومة الغالية، ويحول الراين إلى حدود، ويدمج الآلهة الغالية ويلحقها بالبانثيون الروماني، إنها أمثلة عن الشهرة الموجهة.

نوقشت منذ مدة حقيقة ومدى صدق شروح وتعاليق قيصر في الحروب الغالية فهي تعتمد على وثائق مقبولة عند كاركوبينو (Carcopino) أما عند سيل (Seel O) فهي أعمال معقدة، وعند رامبو ما هي إلاّ سلسلة من التشويهات التاريخية لأنها اعتمدت الأسلوب الأدبي، أما باقي المؤرخين -لأن النقد عندهم يقوم على وجود أو عدم وجود مصادر معلومات أخرى- فإنّهم دافعوا عن قيمة أعمال قيصر: الحروب الغالية والحروب الأفريقية... لأنهما المصدر الوحيد تقريبا في موضوعهما، وقبلوا دراسة وفحص الحرب الأهلية لأنه يمكن مقابلته بنصوص أخرى حول نفس الموضوع[2].

---

(1) عثمان (أحمد)، مرجع سابق، ص 200.

(2) - Encyc. Univer. P. 84.

لقد عرفت العصور القديمة في واقع الأمر أساليب تقليدية في كتابة التاريخ، كثيرا ما كانت متنوعة ومتعارضة لدى أسينوس باليون (Asinus Pallion) وتيت. ليف (Live–Tite) مثلا و«تشويه» التاريخ لدى قيصر يوجد له مثيل عند لوكان (Lucain) وحتى لدى تاكيتوس (Tacitus)، وهذا يعود إلى تكوين هؤلاء الأدبي في البلاغة خاصة أكثر من فن تدوين الوقائع –التاريخ– لأن التاريخ ظل لعصور طويلة جنسا من الأجناس الأدبية، فهؤلاء القدامى كانوا مبهورين بالتعاليق (Commentaires) فغلّبوا الديباجة البلاغية على الحقيقة التاريخية، وهذا ما ألحق تشويها بالتاريخ ومع ذلك فان هذا التشويه لا يقوم على تدوين الشائعات بقدر ما هو اعتماد لأساليب وطرائق في تأويل الحادثة التاريخية، وإصدار أحكام انطلاقا من ذلك التأويل، ومن هنا يأتي أكبر وأخطر إشكال منهجي، وهو أننا إذا رمينا هذه المدونات «المشوّهة» فإنّ التوثيق يبدو. إذا ما استعملناه في ربط الوقائع بعد تحريرها من الزخارف الأدبية– أنه أكثر تاريخية، والحال أنه بخصوص الوقائع فإنّ إلغاء التشويه الأدبي يترك فراغا،ولا يبقي لنا بعد ذلك سوى معطيات تقنية شبيهة بالتقارير لا غير: عدد الفيالق، ألواح عن المعسكرات الشتوية...، وسيظل هذا على الدوام بمثابة مكمن وثائقي يمثل القاعدة العلمية الوحيدة لإعادة بناء الواقعة التاريخية.

على صعيد الأفكار والحالة النفسية، فإنّ الأمر يبدو أقل تقييدا لأن قيصر يرفض التصريحات الشخصية، وهو موضوعي إلى حدّ ما، ومدرك لحقيقة الثبات والشجاعة ودور الزعيم والقائد، والتبادل في العلاقات الإنسانية فالمذكراتي يترك مشاركته ودوره الشخصي بأسلوب نفعي ذاتي متوجّه نحو العمل النشيط، كما أن التعديل والتقويم الذي عرفته أعمال قيصر توفر لنا أكثر من منظور يمكننا من تتبع خطوطه وأساليبه العميقة، وهي انجذاب دائم نحو الهدف، واقتصاد في الأدوات والشك.

إنّ «المذكراتي» هو ممثل ثم مؤلف، لا يقدم نفسه كما كان، موضوعا للتحليل التاريخي العامّ والمشترك، ولكن يقدم نفسه كما يريد أن يكون وكما يريد أن

يصبح: صورة لإمبراطور مثالي، شرع في تحقيق «إيديولوجية» تقوم عليها القيادة وستقوم عليها الإمبراطورية في ما بعد.

03- تيت - ليف 59 ق.م. - 17 ب.م.

هو المؤرخ الأكثر إنتاجا، وكتابه الذي لا يزال هو الأكثر اعتبارا، كما أنه هو الذي ثبّت عبر العصور صورة روما في بداية عهودها ثم في العهد الجمهوري، وهو الذي أرّخ لتلك العهود في نصوص كاملة، ومثّل بحق المؤرخ اللاتيني الرائد والمؤسس، لأن الآخرين فقدت أعمالهم ولم يبق منها إلاّ شذرات هنا وهناك[1].

كان تيت - ليف معاصرا لأغسطس (Augustus) وشاهد عيان على قيام الإمبراطورية، ولذلك ساهم في تثبيت صورة المجد والعظمة لساسة روما بالتأريخ لهم، فقد كادت الحروب الأهلية أن تذهب بهم وبآثارهم، ورغم أن الإمبراطور اتهمه بأنه من أنصار البومبيين وأنه مناوئ للحكم الجديد، إلاّ أنه وضع نفسه ووضع مواقفه السياسية في خدمة القيم الأرستقراطية لروما التي مجّدتها مؤلفاته ووسمتها بأعلى أوصاف التمجيد[2].

هو إيطالي من الشمال، فقد ولد في بادوا (Padoue) حوالي 59 ق.م. في عائلة موسرة، عاش صباه في روما حيث تعلم، وتلقى علوم البلاغة والفلسفة، لكنه امتنع عن الانخراط في العمل السياسي، ولعل ذلك يعود إلى اضطراب الوضع في روما آنذاك، فتمتع باستقلالية تامة مكّنته من تعاطي الكتابة والدراسة، وقد ذكر سينيك (Sénèque) بأنه كتب خطبا عديدة مزج فيها بين الفلسفة والتاريخ، كما كتب عدة مقالات فلسفية، وهذه الأعمال كلها اندثرت، وهي كلها كتبها في شبابه، أما في سني نضجه فقد كرس أيامه كلها لتدوين كتابه في التاريخ الذي عنونه بتاريخ الرومان، ويقع الكتاب في عدة أجزاء تؤرخ لروما منذ تأسيسها، ويبدو أنه شرع في تدوينه في 29 ق.م. إلى 25 ق.م.، أي عندما بدأ

---

(1) - Grenier (A) OP. CIT. P. 393.

(2) حاطوم (نور الدين)، المدخل إلى التاريخ، مطبعة الإنشاء، دمشق 1965، ص 128.

حكم أغسطس يرسخ ويتقوّى، وإذا كان كاتب مثل سالوستيوس قد أعجب بأسلوب ثوكيديد فقلده، وخاصة بالمؤرخين اللاتين القدامى فإن تيت-ليف يستلهم أسلوبه من شيشرون الذي نأسف لأنه لم يكتب تاريخا لروما[1].

إنّ التاريخ عند تيت-ليف ملحمة بطولية، لذلك بنى نصوصه على منوال الرواة والخطباء وخاصة في ما يتعلق بالوضوح في النص، ولو اقتضى ذلك التخلي عن بعض الجمل البلاغية التي يعيب عليه القدامى تجنُّبها، ونلمس في نصوصه الاعتقاد الراسخ بأن الرجال هم الذين يصنعون التاريخ ويدونونه وهم الذين يلعبون الدور الأساسي فيه، لأنّ التاريخ في نظره ينبغي أن يدوّن صورا قلمية لهم في جميع وقائعه، ففي بداية الجزء الحادي عشر عندما يبدأ في تدوين تاريخ الحرب البونية الثانية نلاحظ بأنه يصف ملامح هانيبال وصفاته الجسمانية، وكذا مناقبه وأعماله الخلقية، فقد كان يبحث في طباع الشخص وفي مزاجه عن تفسيرات لأعماله الجبارة في المستقبل، وبنفس الأسلوب في خلاصة تدوين هذه الحرب، وفي معركة زاما وضع هانيبال وسيبيون وجها لوجه، واستخلص بأن النصر جدير بالأفضل والأقوى من القائدين، ولمن يمتلك قيما أدبية أكثر من الآخر[2].

وتبعا لذلك فان أعماله مليئة بالخطب، هذه الخطب التي أعاد صوغها، وهي خطب خيالية في بعض الأحيان توحي بأن المؤرخ يبني شخصيات عندما يروي لنا خطبها، والحال أن تيت-ليف لن يكون رومانيا إذا لم يكن أيضا مشبعا بالجماهير وبالشعور بالجماعة «الإنسانية» المكونة للدولة الرومانية، فالسيناتوس والشعب ينشطان أمام عينيه، وقد حلل -لهذا السبب- عواطف الناس ومشاعرهم وردود أفعالهم، ولم يفعل ذلك مع الشخصيات الرسمية أو الشهيرة

---

(1) وصلنا من تاريخ تيت ليف الضخم - الذي يبدأ من أسطورة إينيوس (Enée) وتأسيس روما إلى القرن الأول بعد الميلاد- خمسة وثلاثين جزءا، تؤرّخ الأجزاء من 1 إلى 10 لروما من التأسيس إلى بداية القرن الثالث قبل الميلاد، والأجزاء من 21 إلى 30 للحرب البونية الثانية (219-201 ق.م)، وباقي الأجزاء من 31 إلى 45 تتاول فتوحات الرومان في شرقي المتوسّط والحرب ضدّ ملوك مقدونيا وسوريا، وقد تمكّن الباحثون المتخصّصون من معرفة محتوى الأجزاء التي ضاعت من خلال اكتشاف قائمة مواضيعها (Periochiae).

(2) Tite-Live, Histoire Romaine, éditions "Belles Lettres" Paris 1961, pp. XLI-LII. -

فحسب، بل تناول عامة الشعب أيضا، وبالنسبة إليه، فإن الشعب له طباع وأمزجة محددة، ويعتقد بأنها مستمرة عبر الأزمنة والعصور مثل: حب الحرية، واحترام النظام القائم، والجشع إزاء ممتلكات الغير.

04- سويتونيوس، حوالي 69 - 125م:

اسمه الكامل غايوس سويتونيوس ترانكويلوس (Caius Suetonius Tranquillus) وهو أحد المؤرخين اللاتين الرواد، اهتمّ بكتابة السير،ولذلك فإنّه لا يلمس صلب التاريخ إلاّ بالقدر الذي يكون فيه الأشخاص الذين يترجم لهم ذوي أدوار تاريخية، لأن ذلك يقوده حتما إلى ذكر أعمالهم ومواقفهم وذلك هو التاريخ، عاش في عصر كانت فيه الغلبة للبلاغة وفن الخطابة على الإبداع في فروع معرفية أخرى، ولذلك كان سويتونيوس بحّاثة ينقب عن الوقائع النادرة، وخاصة عن حياة الأباطرة في القرن الأول وبذلك أكملت المعلومات التي أوردها في أعماله جوانب تاريخية ستظل فضاء مظلما، لولا كتاباته (ضياع حوليات تاكيتوس في جزء منها وضياع أعمال أخرى كاملة لمؤرخي تلك الفترة...).

إنّنا لا نعرف تفاصيل ضافية عن حياة سويتونيوس، إلاّ أنه ولد في عائلة من طبقة الفرسان فقد مارس أبوه وظائف تخص هذه الطبقة، فحاول الابن أيضا اقتفاء نفس الطريق وتطلع إلى منصب منبري عسكري (Tribun Militaire) إلاّ أن تلك الوظيفة ستبعده عن تتبع السلك الإداري العادي للفرسان، فتخلى عنها واتجه إلى البحث في البلاغة والتاريخ الأدبي وعاش حياة العزلة في روما[1].

كان سويتونيوس صديقا لبلينوس الصغير (Pline le Jeune) ومن خلال رسائل هذا الأخير أمكن لنا معرفة بعض التفاصيل عن حياته، حيث يذكر أنه عاش حياة بسيطة، وأنه كان يطمح إلى امتلاك منزل ريفي في ضاحية روما، حتى يجد الراحة والهدوء اللذين ينشدهما في عمله الأدبي. وكان متعلقا بالمكتبات، فقد كان مدرسيا (Scolastique) شارحا وساعدته وظيفته والدور

---

(1) - Mac (A.), Essai sur Suétone, Paris 1900, P. 20.

الهام الذي قام به في البلاط ككاتب خاص ومسيّر مكتبة، وأخيرا رئيس قلم المراسلات الإمبراطورية، وخارج أبحاثه في التراجم المتعلقة بالأباطرة والشعراء ورجال البلاغة ومشاهير النحاة، كان يهتم بالعلوم في حدّ ذاتها التي عالجها المترجم لهم. كما اهتم بالدراسات النحوية واللغوية عموما أي اللاتينية والإغريقية بوجه خاص، ومن خلال هذه الدراسات أخرج عمله الشهير: مشاهير الرجال (De Viris Illustribus) المخصص للتراجم الأدبية.

حظي سويتونيوس بمكانة مرموقة لدى سبتكيوس كلاروس (Septicius Clarus) رئيس البلاط على عهد الإمبراطور هدريان، وفي تلك المرحلة من حياته يكون قد ألّف أعماله التي ضاع منها الكثير وأبرزها: الشعراء، النحاة، البلاغيون والخطباء ثم المؤرخون، فهذه الأعمال في عمومها فُقدت منها أجزاء هامة، وكان الإمبراطور هادريان نفسه ذا ثقافة معتبرة، فتعلق برفقة سويتونيوس وفتح له «أرشيف» الإمبراطورية الذي كان يزخر بوثائق ذات قيمة لا تقدر بثمن، وتعود إلى بدايات الدولة الرومانية إلا أنه ما لبث أن أبعد من البلاط ولعله لم يحقق ذاته أولم ينل الحظوة في أوساط البلاط، ومع ذلك فإنّ السنوات التي قضاها بذلك البلاط مكنته من الاطلاع كمحافظ للأرشيف وكاتب، فجمع أدوات ومادة كتبه مثل: حياة القياصرة الإثني عشر (La Vie Des 12 Csars) الذي يتضمن تراجم يوليوس قيصر وأغسطس وتيبريوس وكاليغولا وكلاوديوس ونيرون وغالبا وأوتون... أي جميع الأباطرة الذين حكموا قبل الأسرة الأنطونية التي ينتمي إليها هادريان (Hadrien)[1] ولا نعرف كيف قضى شيخوخته، ويحتمل أن يكون قد قضاها في إتمام أعماله في الكتابة والدراسة في هدوء كهدوء مكتبات روما.

---

(1) - Hauvette (H.), Littérature Italienne, Paris 1932, PP. 167 - 170.

الفصل الثاني

سالومستيوس (86-35 ق.م) وعصره

01 - حياة سالوستيوس:

هو غايوس كريسبوس سالوستيوس[1] (Caius crispus Sallustius) ولد في إقليم السابين (Sabinum) في أميترنوم (Amiternum) سنة 86 ق.م. في عهد القنصلية السابعة لماريوس، ينتمي إلى عائلة من العامّة، ولكنها موسرة وعاش حياة مترفة[2].

لا تتوفّر لدينا الوثائق الكافية لمعرفة التفاصيل التي تتناول حياة هذا الكاتب الذي هو من رواد المؤرخين الرومان، ومع ذلك فبإمكاننا أن نقدّم بعض الوقائع الأكيدة، ومرجعنا في ذلك هو أهمّ ما ورد على لسانه هو ذاته وعلى ما ذكره القدّيس جيروم، وعلى ما ورد هنا وهناك في كتب المؤرخين الرومان، ودون ريب فإنّ سويتونيوس يكون قد أفرد له بابا في كتابه «مشاهير الرجال» (Viris Illustribus) غير أنّ ذلك ضاع وضاعت معه تفاصيل هامّة وعديدة.



الشكل (1) سالوستيوس
المصدر: Duruy (V), Histoire Romaine..., p. 374 -

---

(1) لا ندري إن كان لقب سالوست مشتقًا من الجذر (Sel) أو (Salut) و لا نعرف إن كان يكتب بلام واحد (L.) أو باثنين إلاّ أنّ كلّ الكتابات القديمة تكتب الاسم بلامين اثنين، بما في ذلك النقيشة التي اكتشفت في خنادق مودان (Modène) ولعلّ الاسم كان يكتب في البداية بلام واحد لأنّ الرومان لم يكتبوا الحروف المتحرّكة (Consonnes) مضاعفة إلاّ منذ إنّيوس (Ennius) الذي كان أوّل من استعمار الصيغ الكتابية الإغريقية في الكتابة اللاّتينية، أنظر:

- De Brosses (Le Président), VIE DE SALLUSTE, IN Série des auteurs Latins, Publiée sous la Direction de Mr Nisard, Editions Firmin didot Frères, Paris 1857 P. 6.

(2) بدأت العائلة السالوستية في الظهور على مسرح التاريخ منذ نهاية القرن السابع حسب تقويم روما، بحيث نجد - زيادة على المؤرّخ - اثنين آخرين ولعلّهما من أقاربه، وتربطهما علاقات حميمية بشيشرون، وتكون هذه العائلة قد تفرعت إلى أسر حملت ألقاب: كريسبوس، لوكولّس سوكوندس: .(Crospus, Luculhus, Secondus)

- Idem, P. 5.

كان له منذ وقت مبكّر ميل قويّ نحو الآداب، وعلى وجه الخصوص نحو دراسة التاريخ، وكانت الأحداث الكبرى التي عايشها مثل: دكتاتورية سولّة، والاضطرابات المتصاعدة في عهد ليبدوس (Lepidus) والسلطات المتنامية لبومبيوس (Pompeius) وبدايات قيصر (Julius Caesar) كلّها كانت درامية، بالقدر الذي ينمّي ويدعّم نزعته نحو تدوين التاريخ والاهتمام به[1]. وكان في الثالثة والعشرين من عمره عندما انكشفت مؤامرة كاتلينا (Catilina) ويظهر أنّه لم يكن منحازا لأيّ من الفرقاء، ولكن تأكّد أنّ حدثا كهذا من بين أهمّ الأحداث التي تركت فيه أثرا بالغا.

يكون سالوست قد تعرّف أو احتمالا أنّه خالط أو تردّد على الشباب الذين كانوا يتحلّقون حول كاتيلينا، ومثلهم كان يحيى حياة الدّعة والملذّات والمجون، رغم أنّه أقلع عن ذلك عندما صمّم على الدخول في عالم السياسة، ومن الطبيعي أن ينضوي تحت لواء حزب العامّة (Parti Plébéien) حيث انتخب وكيل مالية (Quaestor) باعتباره ممثّلا لذلك الحزب وهذا سنة 55 ق.م. وعمره 31 سنة، ولكنّه لم يكن قد اكتسب الرصانة بعد، فبعد سنوات يُضْبَط على حين غرّة وهو متلبّس بعلاقة غير شرعية مع فاوستا (Fausta) ابنة سولّة وزوجة ميلون (Melon)، هذا الأخير أهانه وشهّر به، وطبيعي أن تكون هذه الفضيحة الأخلاقية أو«المغامرة» سببا في نبذ الأشراف له، وعلى الخصوص شيشرون وميلون اللذان أصبحا من أشدّ خصومه عداوة له[2].

في سنة 52 ق.م.أعيد تعيينه نقيبا للعامّة (Tribun de la Plèbe) ولكن في سنة 50 ق.م. يتمّ طرده من السيناتوس (SENATUS) على يد وكيل المالية آبيوس كلاوديوس (Appius Claudius) الذي كان على وفاق مع زميله بيسون (Pison) وهذا بتهمة الفساد، غير أنّه يبدو أنّ وكيل المالية هذا كانت الضغائن

(1) - Ernout (A) Salluste: Catilina, Jugurtha, Fragment des Histoires, Editions "Belles Lettres" Paris 1974. PP. 7-9.

(2) كثيرا ما تكون الفضائح الأخلاقية - في الأوساط السياسية على الخصوص- مفتعلة أو في شكل ابتزاز للتخلص من خصم أو منافس قويّ.

السياسية هي التي استبدّت به أكثر من اهتمامه بالمسائل الأخلاقية، وكردّ فعل على الدسائس التي استهدفته وجد سالوستيوس نفسه منذ تلك الواقعة من أنصار قيصر المتحمسين والذي التحق به منذ عبوره لنهر الروبيكون (Rubicon) بعد انتصاره على الغاليين، مما مكنه من العودة إلى منصب وكيل المالية للمرّة الثانية (49 ق.م.) وهذا ما سيمكنه من العودة إلىالسيناتوس من جديد.

عُيّن بريطورا (Praetor) في سنة 48 ق.م. وكلفه قيصر بتأديب المتمرّدين من الجند في إقليم كمبانيا (Campania)، ولكنه فشل في هذه المهمّة، ويبدو أنّه كان يفتقر إلى صفات القائد العسكري الناجح[1]، وعلى العكس من ذلك في أفريقيا، فقد واتته الفرصة بحيث تمكّن من الإجهاز على البومبيين وتحقيق الانتصار عليهم[2]، وهو الانتصار الذي سيرفع حظوظه عند قيصر، فبعد الانتصار الكبير في ثابسوس (THAPSUS) واستئصال شأفة البومبيين، يتحصّل على تعيين في منصب حاكم على مملكة يوبا الأوّل التي أصبحت تحمل اسم: أفريقيا الجديدة (AFRICA NOVA)، وقبل أن يلتحق بوظيفته الجديدة اقترن بترنتيا (Terentia) مطلّقة شيشرون، والتي لم ينجب منها أبناء وخلال سنة ونصف (46 – 45 ق.م.) ابتزّ محكوميه، ونهب أموالهم نهبا فظيعا، تحدّثت عنه مختلف المصادر الرومانية، ووصفته بفظاظة وشراسة لا نظير لهما، وعندما عاد إلى روما، وجّهت إليه تهمة الاختلاس والابتزاز، ولكنه لم يقدم للمحاكمة[3] لأن قيصر ضمن فيه شخصيا، ودفع لفديته 1,200,000 سسترس.

لم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى تعرّض قيصر ذاته إلى الاغتيال (في إيدس مارس 44 ق.م.) ممّا أفقد سالوستيوس أيّ أمل وطموح في سبيل الوصول إلى مناصب عليا، وحتى لو استمرّ قيصر على قيد الحياة، فإنه ليس من المؤكّد أنّه

---

(1) - Ernout (P.), OP. CIT. PP. 9 - 15.

(2) كان قد كلفه قيصر خلال ما سمي بالحرب الأفريقية باقتحام جزيرة قرقنة لجلب المؤن منها، وتمكن من ذلك مما جعله يسترجع شيئا من مكانته.

(3) علي (عبد اللطيف أحمد)، مصادر التاريخ الروماني، دار النهضة العربية، بيروت 1970، ص 13.

يمكن أن يحقق طموحه في الوصول إلى منصب القنصلية، ولكن بوفاة حاميه أصبح تحقيق طموحه في حكم المستحيل[1].

بفضل الثروات الطائلة التي نهبها من أفريقيا بواسطة الابتزاز والنهب، صرف النظر عن الحياة السياسية، فقد قام بتشييد قصر عجيب محاط بالحدائق الغنّاء في الوادي الواقع بين الكويرينال (Quirinal) وبنشيو (Pincio) وهي الحدائق التي بقيت ذائعة الصيت، وهناك عاش حياة البذخ والترف طيلة سنوات، وبمساعدة عالم النحو: آتيوس فيلولوغوس (Ateius Philologus) دوّن أعماله التاريخية التي كرّس لها ما تبقى من حياته.

في حوالي 43 أو 42 ق.م. نشر كتابه مؤامرة كاتيلينا (Coniuratione Catilinae) ثمّ في حوالي سنة 38، نشر كتابه الحرب اليوغرطية (Bellum Jugurthinum) وبعدها يكون قد أنجز كتابه: التواريخ (Historarium) ويعتقد بأنّه كتب أيضا: وصف البحر الأسود، وهو العمل الذي لم يصلنا منه أيّ أثر، كما يعتقد بأنّ الرسالتين الموجهتين إلى قيصر واللتين تنسبان إليه والنص الذي يعدّد هِنَات شيشرون يكون قد كتب من قبل بلاغيين معاصرين له[2]. وعلى الصعيد الأسري لم يكن له أبناء، فتبنّى ابن أخته، وجعله وريثه الشرعي، وهذا الفتى هو الذي سيهدي له هوراس (Horace) قصيدته الغنائية الثانية الواردة في كتابه الثاني، وقد كان هذا الفتى يتصف بأخلاق عالية، وأدار الثروة التي ورثها عن خاله بحسن تصرّف.

توفي سالوستيوس في 13 ماي 35ق.م. عن عمر يناهز الخمسين سنة، وكانت حياته فريدة على العموم، حياة رجل حالم بالمجد ولكن أخطأه، مرّة عندما فشل عسكريا فلم تظهر عليه علامات الموهبة العسكرية، ومرّة عندما جرّب العمل السياسي ولكن نزقه واستسلامه للنزوات أثار عليه خصومه، لقد دفعته طموحاته إلى

---

(1) بوزيزم (عبد القادر)، سالوستيوس وكتاب حرب يوغرطة، في دفاتر التاريخ المغربية، جامعة وهران 1987، ص ص 5-6.

(2) - Ernout (P.), Op. Cit. PP. 13-15.

الاندفاع أوّلا نحو السياسة، ثمّ أخيرا نحو الآداب، وكان شخصيته مشاكسة ومضطربة وخاصة ما بين سنوات العشرين والأربعين من عمره، وبعدها انسحب كليا من الحياة السياسية وابتعد عن مشاكل الحياة. وهنا يطرح السؤال وهو: لماذا هذا التحوّل الكلّي والجذري الذي لا نجد له تفسيرا في الأحداث والوقائع التاريخية، لأنه بعد اغتيال قيصر انتصر الحزب الشعبي، والرجل الذي عهدناه طَموحا ومصمما على الارتقاء في سلّم المجد إذا به يفقد كلّ هذه الخصال لمجرّد اختفاء حاميه.

لعلّه من الطبيعي أن يفعل ذلك وهو الذي يعرف وزن الرجال، ويعرف قيمته بينهم، ويكون قد تأكّد بأنه لن ينجح في المجال السياسي وأنه (" ... من الجميل خدمة الدولة بجلائل الأعمال، ليس في المجال السياسي وحسب، بل في مجالات أخرى وخاصة بتدوين أمجادها ومآثرها.")[1]، وعليه فإنّه يكون قد تأكد بأنه لن يستطيع تقديم تلك الجلائل في المجال السياسي أو العسكري ففضّل الانسحاب إلى مجال لا يقلّ عنهما أهمية، وهو مجال الكتابة، فكرّس لها ما تبقّى له من حياة، وهو النصيب الذي رضي به، على خلاف الذرية التي لم يعبّر أبدا عن أسفه على حرمانه منها.

02 - عصر سالوستيوس:

عاش سالوستيوس في القرن الأخير من عمر الجمهورية الرومانية (86-35 ق.م.) وكانت هذه الفترة حافلة بالأحداث، عرف فيها تاريخ روما تسارعا لم يشهده من قبل، نتيجة لتفاعلات وتراكمات القرون السابقة، وخاصة تفاعلات الحركة الغراكية (133-122 ق.م.) التي أججت الصراع بين الأشراف (Patriciens) والعامّة (Plèbe)، ومنذئذ ستعيش روما على وقع طبول الحرب، تستقبل قائدا مظفرا وتودع قائدا منهزما، وتنتقل من الاستبداد إلى الفوضى ومن الفوضى إلى الاستبداد تباعا، حتى تسقط الجمهورية وتنتصب الامبراطورية.

كانت حركة الغراكيين حركة رائدة، تريد أن تقلل الهوّة بين الأشراف (Optimates) وهم أرستقراطيو الجمهورية وبين الشعب، فمنذ أواخر القرن الثاني

(1) ...Profecto existumabunt me magis merito quam ignavia judicium animi mei mutavisse maiusque commodum ex otio mio quam ex liorum negotiis rei publicae venturum. Sallustius: Bellum Jugurthinum IV.

ق.م. أصبحت قضية الأرض قضية محورية يدور حولها جدل كبير بحيث أنّ كبار الأثرياء الرومان وضعوا أيديهم على الأراضي التي افتكّتها الجيوش الرومانية من الشعوب المغلوبة على أمرها في إيطاليا على الخصوص، وكانت اليد العاملة الفلاحية من العبيد متوفرة، وأصبحت تنافس العمال الأحرار، ولذلك وجدت طبقة العامة نفسها في وضعية غير قارّة، وأخذ شقاؤها يزداد عكسيا قياسا مع حياة البذخ التي يحياها مالكو الأرض، وعندما تولّى أحد المتحمّسين لفكرة إنصاف العامة منصب نقيب الشعب (Tribun De La Plèbe) وهو تبريوس غراكوس (Tiberius Gracchus) قدّم قانونا يحدّ من الملكية في «الدومان» العمومي (Ager Publicus) ويعتبر الاستيلاء على أراضي الدومان لاغيا، لأنه غير شرعي، أثار ذلك هلعا في أوساط النبلاء، مما أدى إلى مقتل تبريوس، وعندما استمر أخوه غايوس (Caius) في نفس الاتّجاه، لقي نفس المصير، وكان ذلك كله من العوامل التي زادت من سخط العامة، وجعلتها تغيّر من أسلوب نضالاتها، فوجدت في شخص أحد القادة العسكريين وهو ماريوس (Marius) أفضل سلاح لشقّ الطريق نحو السلطة، ورفع الحيف عنها[1].

جمع ماريوس[2] حوله كلّ أنصار الحزب الشعبي المتكوّن من المستائين والمتذمّرين في الأساس وتدرّج في سلّم الوظائف حتّى نال القنصلية سنة

---

(1) HARMAND (J.), Armée et Soldat ROME, Paris 1949, PP. 10 - 16 -

(2) ماريوس (حوالي 158-7 ق.م). من أبرز الشخصيات العسكرية الرومانية، كما أنّه من الشخصيات الأساسية في هذا البحث لدوره في الحرب التي أعلنها مجلس الشيوخ الروماني ضدّ المملكة النوميدية، وُلد في أربينوم (Arpinum) جنوب شرقي روما وتوفّي عن عمر يناهز السبعين سنة، من عائلة مغمورة، ليس له اسم ثلاثي بل يُعرف باسمه فقط، كما أنّه لم ينل حظّا كبيرا في التعليم، ولذلك انصرف إلى الحياة العسكرية التي أظهر فيها كفاءة عالية، بدأ مساره العسكري تحت قيادة كبير جنرالات عصره وهو سيون الإيميلي في إسبانيا حيث أظهر تفوّقا في حرب نومنتيا (Numance) وهي الحرب التي اشترك فيها يوغرطة أيضا على رأس نخبة الفرسان النوميد، وكأنّ القدر يهيّئهما ليواجها بعضهما البعض ذات يوم، ارتقى في سلّم الوظائف العسكرية والسياسية كما يلي:

121 ق.م: نال منصب كستور وبذلك انتقل من سلك الفرسان إلى السلك السيناتوري.

120 ق.م: اعطى منصب تريبون العامّة بدعم من القنصل كايكيليوس متلوس، ولكنّه فشل في الحصول على منصب إيديل.=

107 ق.م. فقام بإصلاحات عسكرية عميقة، بحيث قبل في صفوف الجيش المعدمين من طبقة العامّة، الذين لم يكن يسمح لهم بالدخول في الجيش كما وحّد أسلاك الجيش في الزيّ والخطط، وهذا على أنقاض جيش من الفلاّحين الموسرين،وعلى الخصوص، فإنه أقام جيشا من المحترفين يأتمر بأوامره، وهو مستعدّ لفتح الطريق له نحو المناصب العليا.

إن الجيش الجديد مكّن روما من الانتصار على خطرين خارجيين كبيرين ما كان للأشراف أن يحققوه أبدا في خلال عشرية،وهذان الخطران هما:الزعيم النوميدي يوغرطة[1] في أفريقيا، الذي كان قد أعاد ترميم مملكة سلفه ماسينيسا، وأوقع الهزيمة بعدّة قادة كانت روما قد أرسلتهم إلى هناك، ثمّ خطر البرابرة من التيوتون (Téutons) وغيرهم. والحال أنّ الجمهورية في جميع هذه الطموحات

= 115 ق.م: تولّى منصب بريطور وعمره 42 سنة.

114 ق.م: فاز في القرعة فاعتلى منصب بروبريطور على مقاطعة إسبانيا.

110 ق.م: تزوّج من يوليا عمّة يوليوس قيصر، وبذلك صاهر الطبقة السيناتورية.

107 ق.م: عُيِّن قنصلا في نوميديا لقيادة الحرب ضدّ الملك النوميدي يوغرطة وأنهى الحرب لصالحه بفضل دهاء مساعده سولّة، هذا الأخير سيتحوّل إلى أكبر عدوّ له على رأس الحزب الأرستقراطي. توفّي ماريوس مجرّدا من كلّ أمجاده سنة 86 ق.م وهي السنة التي وُلد فيها سالوستيوس.-. Ency Univ Art. Marius -

(1) أبوه مسطان بن ماسينيسا وأمّه جارية، لم يسجّل لنا التاريخ غير هذا الاسم: يوغرطة (Jugurtha) وهو اسم شهرة يحمل دلالة تفوّقه، ومن خلال لهجات اللغة الأمازيغية وهي امتداد للغة الليبية، يمكن استخراج معناه كما يلي:

يوقُر Iugur = أكبر، متفوّق. وتنطق الكلمة عند البعض: يوجر.

ث Th = ضمير متّصل للغائب.

ن N = علامة الجمع.

فيكون الاسم في صيغته الأمازيغية يوقرثن أو يوجريثن بمعنى: يكبرهم، يغلبهم، يتفوّق عليهم.

لم يسجّل التاريخ سنة ولادة يوغرطة، تولّى العرش النوميدي بالاشتراك مع ولدي عمّه يمسال وأدربال تنفيذا لوصية عمّه ميسيسا سنة 118 ق.م.، ولكن وقع بينهم خلاف تحوّل إلى صراع دام. حكم يوغرطة لوحده بعد مقتل شريكيه ما بين 112-106 ق.م.، وقع ضحية مؤامرة حاكها القائد الروماني سولّة واشترك فيها صهره بوكوس ملك موريتانيا، فأسر ونقل إلى روما حيث سجن إلى أن مات في سجنه،ترك ولدين هما أوكسيتاس وماستا (Oxyntas et Masentha).

كانت تتهاوى لأن إقامة نظام استبدادي سيكون هو الحل،كما أنّ التوجّه نحو نظام وراثي إمبراطوري من شأنه أن يقطع الطريق في وجه الطموحين إلى السلطة ومن شأنه أن يقضي على الفوضى[1].

لقد اصطدم ماريوس بشخصية لها مكانتها في الدولة الرومانية، إنه سولّة (SYLLA) الذي سينتصب طاغية مستبدّا على رأس الدولة الرومانية، ولم تعرف روما مثيلا له[2] وبذلك تستمرّ فصول الصراع بين العامة والأشراف وفي خضمّ ذلك الصراع كان أولئك الطموحون ولا ريب يشعرون بدنوّ أجلهم،ولكنهم لم يحسنوا انتهاز تلك الظروف لصالح الدولة الرومانية لقد كانت الشهرة وحبّ التسلط هما الهاجس الذي يحرك آلتهم الحربية، وذلك ما سيكشف عن جانب منه في أعماله، المؤرّخ والكاتب سالوستيوس لقد واجه هؤلاء بعضهم بعضا، تحاربوا، انتصروا، وأملوا قوانينهم ثمّ تلاشوا الواحد بعد الآخر، ولم يبق من الجمهورية بعد زوالها وانتصاب الامبراطورية سوى كلمة، لأن الأساس الذي أقيمت عليه، وهو التوازن بين السلطات وإرضاء المواطنين في الأعباء العمومية، بقي أثرا بعد عين،في ظلّ الصراع الدائم الذي يمثل ماريوس وسولّة ثمّ بومبيوس وقيصر أعنف فصوله[3].

03 – سالوستيوس، المؤرّخ السياسي والعسكري:

يأتي سالوستيوس على رأس أولئك المجددين بروما، فقد وصفه تاكيتوس بالمعلم،كما أنه المؤسس الرائد للتاريخ كحقل معرفي، يقوم على بحث العلل والإحاطة بالواقعة التاريخية من جوانبها المتعددة.

---

(1) سمعان (ابراهيم وهيب)، الثقافة والتربية في العصور القديمة، دار المعارف بمصر 1961 ص ص 268 – 269.

(2) جوليان (شارل أندري)، تاريخ أفريقيا الشمالية، تعريب م.مزالي و ب.بن سلامة، الدار التونسية للنشر 1969 ص ص 150–151.

(3) للاطلاع على تفاصيل الصراع بين ماريوس وسولّة، أنظر:

- Carcopino (J): Sylla ou la Monarchie Manquée, Ed. L'Artisan du Livre, 9ème Edition, Paris 1947.

إنّ سالوستيوس هو أحد روّاد المؤرخين اللاتين دون ريب، فقبله يمكن القول أنه لم يكن هناك مؤرخ بالمعنى الدقيق، بل كان هناك كتاب حوليات أو وقائع، وفي أغلبهم كانوا من رجال السياسة الذين دوّنوا في أوقات فراغهم الوقائع التي عايشوها دون أن يكلفوا أنفسهم عناء تدوين التاريخ أو تدبيج عروضهم. أمّا مع سالوستيوس فقد أصبح التاريخ جنسا أدبيا موضوعه الجوهري التاريخ بأسسه وقواعده، بحيث أصبح التركيز ليس على عرض الوقائع حسب التسلسل الزمني بل على شرح الأسباب والعلل، ودراسة التواصل وتلاحق الوقائع وتحديد تبعاتها،وهذا ليس إذن أسلوب الرواية أو الحكي، بل هو عمل فلسفي وأدبي موجّه لاستجلاء تتابع الأحداث وتقديم العبرة للأجيال القادمة[1].

هذا الأسلوب المستمدّ في منحاه من ثوكيديد اتخذه سالوستيوس نموذجا له، ليس كمؤرخ فقط ولكن ككاتب أيضا[2]، وعلى اعتبار أن التاريخ جنس أدبي وعمل فنّي، فان ذلك يستوجب استجلاء دور الأدب في إعطاء النص التاريخي ملامح أو «تضاريس»، وتبعا لذلك فعالية أكثر، والذي يجعل سالوستيوس محلّ اعتزاز وفخر هو أنه كان الرائد في هذا الباب، فقد نجح في بناء عمله على هذين الأسّين: الأدب والفنّ، وإذا كان ثوكيديد هو الرائد الذي حقق فتحا مبينا في هذا الموضوع فان إقامة مقارنة بين المؤرّخين يجعلنا في نوع من «الاعتباطية» خاصة إذا ما توهمنا بأن الملكة الخصوصية للمؤرخ الإغريقي هي التعلّق بالحقيقة صافية نقية[3].

إنّ هذه الريادة لم تكن لتستحوذ عليه، وتحدّ من طموحاته السياسية، لأنّ ولعه بالسياسة كان سابقا لاعتكافه على العمل التاريخي ورغم تكريس حياته للسياسة فإن الخيبة والمرارة كانت هي النتيجة، وهذا لا يعني أن عدم تحقيق الطموحات السياسية هو الذي جعل منه كاتبا، ورغم التخوّف من الوقوع في الاعتباطية إلاّ أنّه يبدو أنّ أمر إقامة مقارنة بين المؤرّخيْن أمر لا بدّ منه فهو مثل ثوكيديد اختار مواضيع

---

(1) - Encyclopédia Universalis, Article: Salluste, p. 638.

(2) - Ernout (A.),: OP. CIT. PP. 16 - 17.

(3) - Grenier (A.), op. cit. PP. 266 - 267.

معاصرة له، أي أنها محدودة من جهة، ومن جهة أخرى متعبة وشاقّة، لأنّ الأحداث لا تزال تتفاعل، وهي «الماضي الحاضر» الذي لا يزال يحرك الواقع[1].

إن المواضيع الثلاثة التي اختار الكتابة فيها، تتميّز بالوضوح وهي لصيقة جدّا بالحقيقة، فقد كانت القوّة الرومانية في الصعود نحو أوجها، وروما انكفأت على نفسها وأصبحت مدينة للموت، وكانت طبقة الأشراف لا تزال هي السيّدة، ولكنها كانت غارقة في وحل التعلق بالسلطة والولع بالمال، والسياسة التي سلكتها إزاء حروب نوميديا، أظهرت للجميع كيف استولى عليها داء الرشوة[2].

اصطدمت طبقة الأشراف في الأول بماريوس، والمقاومة القوية من قبل العامّة ولم يدم صمودها تحت قيادة سولّة (Sylla) طويلا حتى عاد «العاميون» بقوّة لمواجهة بومبيوس الذي زكته طبقة الأشراف، وما ذلك إلا إمعانا في سياسة الهروب نحو الأمام، وكان ذلك موضوع الأجزاء الخمسة من كتابه: التواريخ (HISTORIARUM).

لقد حاول -دون أن يتمكن- أن يحتفل بالمقاومات الأخيرة نكاية في الأشراف ودسائسهم ولكنه لم يستخلص منها نتائج، بل اكتفى بالسرد، وبناء الوقائع التاريخية، ولعل ذلك لم يكن عسيرا لو أعمل الملاحظة وملكته كمؤرّخ، ولكن لم يفعل والنتيجة التي يمكن استخلاصها هي استحالة التداول على السلطة إلا بين الفوضى والاستبداد ولكن في النهاية سينتصر الاستبداد والدكتاتورية ثم الامبراطورية-وعلى العموم هذه هي أعمال سالوستيوس إنّها ثلاثة، عبارة عن ثلاثة فصول في التاريخ الروماني، حيث أظهر فيها السباق نحو تدمير «سيّدة العالم»، وكان ينبغي أن يكون الاستنباط مستندا على حسّ المؤرخ، لا أن يكون استنباط فيلسوف منشغل بالحقيقة، بل أكثر من ذلك، فإنّ الانحياز إلى حزب معيّن يحجب عن المؤرّخ رؤية الحقيقة، ولو عمل حتى ينجح في معالجة الموضوع بعيدا عن فكرة الحليف والخصم، وسجل خصال ومزايا متلوس (Metellus) وشيشرون (Cicéron) دون أن يغضّ الطرف عن عيوب ماريوس (Marius)

---

(1) عثمان (أحمد)، مرجع سابق، ص 199.

(2) - Bayle (P.) OP. CIT. P. 290.

ورذائل كاتيلينا (Catilina) لكان قد عرف كيف يسمو فوق الأحزاب، ومثل ثوكيديد، ولكن دون ريب كانت طريقه أصعب، ولولا ذلك لكان قد وصل فعلا إلى مستوى هامّ من الحياد[1].

ممّا يعاب على سالوستيوس، المقدّمة التي وضعها لكتابيه: مؤامرة كاتيلينا والحرب اليوغرطية والتناقض الكبير بين ما ورد فيهما من إيثار للقيم والمثل، ومسلكه هو عندما كان في السلطة وهو شيء مهم للغاية، فقد سلك مسلك الاختلاس والابتزاز، وأذاق النوميد ألوان القهر والاستغلال، ثم هاهو يتبجح بنزاهته ويمتدح البساطة، ولكنه يفرط في الترف الأكثر سفاهة، غير أن نص المقدّمة يستشفّ من تعابيره القوية واستناده على الحكمة والفلسفة، طول وبعد النظر، مما يجعل المرء يغترّ بصدقه. إنه يكتشف ريشة تخطّ الحكم والمواعظ، ولكن وظيفته (حاكم أفريكا نوفا) ستجعل منه أبشع مثال للابتزاز والاختلاس والنهب، وبين هذا وذاك أين نجد المؤرّخ[2].

إن هذا الامتداح والإطراء للماضي الذي نجده في المقدمة، لعله ليس إلا تصنعا أدبيا، فالمرء كثيرا ما يرسم للماضي لوحة يضمنها كل الجماليات إن هو لم يحقق ما يطمح اليه في الحاضر ومن المعتاد أن يتبرّم الناس من حاضرهم الذي يحيونه وأن يسقطوا على الماضي الذي عاشوه كل جمال الدنيا،فالقرف من الحاضر يحيلهم إلى أسلوب الحكمة والتعلق بأهداب الفضائل، وهذا الزيغ عن الحقيقة لدى سالوستيوس يجعلنا نرتاب في صحة ومدى دقّة الوقائع التي أوردها في كتبه والتفاصيل الضافية التي تخللت سرد تلك الوقائع.

لعلّ هذه المقدمة كانت مجرد مشهيات للاقبال على القراءة لا غير، إذ تبدو مقدمة كاتلينا أكثر إطالة، ولكن على أيّ حال تنقل إلينا الهدف الذي يوظّف لأجله التاريخ وهو العبرة والموعظة،كما تجعلنا نعرف كيف ومتى انجذب

---

(1) - Fournier (A.) La Parole et l'Acte chez Salluste Ancien Proconsul d'Afrique, IN *Revue Africaine* N° 50, Anne 1906, P. 102

(2) - Idem. PP. 99 - 101.

سالوستيوس إلى الدراسات التاريخية، ونرى نظرته العميقة إلى تطوّر الأحزاب في روما، ونتائج ذلك ليس من خلال خيبة أمله أو استيلاء الضغينة على مشاعره فحسب، ولكن من خلال الدراسة الدقيقة والنابهة عن الوقائع والأشخاص أيضا، كما تمكننا من ملاحظة حصافة نظرته وقوّة نفاذها إلى عمق الأشياء(1).

يمنح سالوست – مثله مثل "معلمه" ثوكيديد – المكانة الأولى في عمله للصور القلمية للأشخاص: كاتيلينا، قيصر، كاتون، يوغرطة، ماريوس وبوكوس، وبقدر ما تمكّن من جعلها أشكالا تعبيرية مميّزة بقوة خطوطها، مرسومة بوضوح لا يُضاهَى،فإنّه وضع قسمات الشخصية المعنوية أكثر من تبيان التفاصيل الجسمانية، ولم يكن مهتما بما فيه الكفاية بما هو تصويري وكأنّه لا يهتم إلا بكشف القوى الخفية داخل النفس البشرية، ولعلّ قصده فقط هو أن يجعل هذه الشخصيات كما لو أنها أمام أعيننا، ويقدم لنا مثلا يوغرطة وكاتيلينا كمحور لسير كل الأحداث والانفعالات والأهواء، ويبدو أنّ توافر هذه الميزات في هاتين الشخصيتين هو الذي جعله يختارهما لعمليه، خاصة وأنهما تستجيبان لمشاعره «القومية» ولتجربته.

في يوغرطة، يحوّل الاحتلال الروماني إلى ملحمة بطولية يبرز فيها تفوّق الرومان ويمجّد مآثرهم بقدر ما يحطّ من شأن النوميد وقائدهم يوغرطة، وفي كاتيلينا يضع سيف الانتقاد على رقبة الطبقة الأرستقراطية ومجلس الشيوخ، ويفضح مفاسدهما، لأنّه لا يقوم بدور المؤرّخ فحسب بل يقوم بدور السياسي الذي يدافع عن الحزب القيصري المناوئ لمجلس الشيوخ المكوّن من الأشراف، وفي كلا الموضوعين يمكن استخلاص الطريقة التي يفهم بها سالوستيوس التاريخ، بل كيف ومتى أصبح مشدودا إلى الدراسات التاريخية(2).

إنّه يهمل ما هو سطحي وعابر لحساب ما هو أساسي وجوهري، ويحرص على أن يكون دقيقا ولو كان ذلك على حساب المادّة، وفي الصور القلمية التي

---

(1) - Grenier (A.), op. cit. P. 479.

(2) - Bornecque (H.), ROME Et Les Romains, Librairie DELAGRAVE, PARIS 1955, P. 33.

هي نماذج لتحليل أدبي فان سالوستيوس وصل إلى مستوى لم يصله غيره من الكتّاب القدامى مما يرفع من مقامه بينهم[1].

إن الصور القلمية للأدوار الكبرى الرئيسية في السياق التاريخي العامّ يصل حدّ الاكتمال من خلال الخطب التي يعيد صوغها ببلاغة، حتى يضفي على الواقعة التاريخية جلالا وتأثيرا عميقين -خطب ماريوس وآذربال مثلا- وفي هذا الموضوع بالذات يبدو رائدا في التجديد النصّي في التاريخ، وهو الذي لا نجد له شبيها في نصوص كتّاب الحوليات من الذين سبقوه، فكاتون مثلا كان قد ضمّن كتابه عدّة خطب ولكنها كانت قد ألقيت فعلا، أما كايلوس ضد أبيه (Caelus Antipater) فقد وضع على لسان «شخوصه» خطبا من خياله، وهي كلها نصوص نموذجية في البلاغة والبيان، على أنها لا يمكن أن ترقى إلى مستوى نصوص سالوستيوس ففي هذا المجال بالذات حيث سار على منوال ثوكيديد، كان هدفه هو أن يعرّف بالأشخاص من خلال الأسلوب الذي يعيره لهم، ولم يكن يهدف إلى إعادة تسجيل النصّ كما جاء على لسان الأشخاص في ظرف محدد بالقدر الذي يعمل فيه على إعطاء الخطيب الأسلوب الذي يجعله أكثر تطابقا مع الوضعية أو الظروف التي تحدث تباعا وتعتبر أقرب قدر الإمكان من المعنى العامّ للخطب كما ألقيت نصّاً ولغةً[2]، وفي هذا الباب أيّ شيء أدلّ أكثر من الخطب المطوّلة، والتي هي عديدة في أعمال سالوستيوس على خلاف خطب كاتون الوعظية[3].

في كاتيلينا، يمكن استخلاص ملامح كاتون من خلال الصورة القلمية التي يقدّمها لنا سالوستيوس حول هذه الشخصية بحيث سلّط ضوءاً ساطعا على الجانب المعنوي لهذه الشخصية، مثلما يعرفها كل الناس في روما وثبّت تلك الملامح في أذهان الأجيال المتعاقبة، وإذا لم يكن خطاب قيصر نصّيا فانه يمكن أن

(1) - Encycl. Univrs. P. 638.

(2) - Id. p. 638.

(3) أنظر خطاب ماريوس أدناه، ص ص 145- 150.

يكون شبيها له إذ لا ينبغي أن ننتقص من قيمته كقائد كان سالوستيوس أحد أتباعه،ولعله هو الذي ساهم في تدوين حرب أفريقيا (De Bello Africano) وهو الذي كان إلى جانب قيصر في حروبه ضد البومبيين بأفريقيا، وهنا يطرح السؤال نفسه، وهو ألم تكن لسالوستيوس أعمال تاريخية قبل أن يعتزل السياسة.

إنّ التحكم في فن تدوين التاريخ في كتابيه: كاتيلينا و يوغرطة لا يدلّ أبدا على أن هذين العملين هما عمل أوّلي ولعل من المؤكد أن تكون أعمال أخرى قد سبقتهما[1] وقد تعود حظوته لدى قيصر إلى هذا السبب، ولعل توظيفه لكتابة وقائع الحروب القيصرية هو الذي أكسبه مكانة مرموقة لدى قيصر.

إنّ الخطب سمحت لسالوستيوس -مثل الصور القلمية- بأن يجعل من التاريخ عملا مكرّسا لإجلاء الحقيقة، فالحقيقة عنده هي تمجيد الأمّة الرومانية وكشف فساد الطبقة الأرستقراطية الرومانية وأخيرا الحطّ من شأن الأمم الأخرى وقادتها، بقدر معاداتهم أو رفضهم للغزو والهيمنة الرومانية[2].

إذا كان المؤرخ المعاصر تتنازعه الموضوعية والروح القومية في تدوين وقائع التاريخ فإنّ هذا الأسلوب عند المؤرخ الروماني سالوستيوس وكذا المؤرخ الإغريقي ثوكيديد هو نوع من إحياء الحقائق التي تحفظ الأمجاد كما يريدها الرومان لا كما يأتي في روايات كتاب الحوليات الباهتة التي لا لون لها[3].

يحتل سالوستيوس بين الكتاب الرومان مكانة سامية تضعه في ريادة الرعيل الأول من مؤرخي روما، فالتاريخ عنده هو عمل فني بقدر ما هو عمل لاستجلاء الحقيقة يقوم بانجازه كلما تفرغ من عمله، يكتب بهدوء وطالما لم يحقق المستوى الذي يرضيه في كتابة النص فإنّه يعيد الكتابة ويصحح أكثر من مرّة، فأسلوبه ليس كأسلوب الموهوبين بالسليقة أوالذين نبغوا منذ الصغر، إذ لم يصبح كاتبا

---

(1) - Richard (F.) Salluste, La Conjuration De Catilina , La Guerre De Jugurtha, PARIS 1974 P. 20.

(2) - Perrouchant (P.) Les Modeles Grecs de Salluste, Paris 1949, P. 5 - 10.

(3) - Idem. P. 11.

إلاّبعد أن بلغ الأربعين من عمره، ومثلما يصرح هو ذاته فان مصدر قوته في الكتابة يأتي من جهده أي من القدرة على البحث والارادة في العمل[1]. إنّ جهد سالوستيوس واضح وجليّ في جميع مناحي عمله، من تحديده لمجالات عمله كأنه يقوم بنزهة، إلى سرعة العبارة وقوة في التضاد أي طرح الشيء ونقيضه.

إنّ الثراء الشيشروني لا يمكن أن يضاهى لأهمية الفترة وسهولة الحركة التي يمنحها الخطيب لفكره في مؤلفاته الأدبية وبالقدر نفسه في خطبه، ومع ذلك يبقى سالوستيوس خصما سياسيا لشيشرون، وليس ذلك فقط بل عدوّه الشخصي، ولذلك فهو منافسه في الآداب أكثرمن أي معاصر آخرله، وبهذه الدرجة تعتبر أعماله ردّ فعل على مذهب الخطيب المصقع: شيشرون، ولذلك فإنّه صمّم على اكتشاف مجاهل علم جديد وتأسيسه على قواعد جديدة -لأنه يعلم بأنه لا يمكن مجاراة شيشرون في ميدانه- وهو الفن الذي عرف كيف يبدعه بقوة العمل وحسنه، وقد ذكرتان (Taine) بأن نصّه لا يضاهى، صارم أكثر من نص تاكيتوس (Tacitus) ولكنه غير متعب، وأكثر ثراء و أبسط من نصّ تيت- ليف[2].

إنّ هذا الأسلوب البسيط في ظاهره، اختصّ به سالوستيوس دون سائر الكتاب اللاتين، فقد أبدعه بجهده الدؤوب وإرادته القوية، مما يعطي لكل كتاباته طابعا أصيلا، كما أن معرفته العميقة لأعمال هؤلاء الكتاب جعلته يقتفي أثرهم في التفكير والأسلوب المبني على نقاء اللغة ووضوح الفكرة.

تتضمن كتاباته عددا هاما من الألفاظ المهجورة أو الحروف الصوتية المعتمدة لدى سابقيه، وكان ولعه ليس في نهايات الإعراب فحسب بل في استعمال المهجور من الألفاظ التي قلّ استعمالها كالعبارات التي أصبحت خارج الاستعمال العادي، وهو ما يعطي لنصه هذا الطابع الأصيل أو يضفي عليه مسحة الأصالة وهو ما كان ثوكيديد مهتمّا به بنفس الدرجة، ويبدو أنّ هذه المفردات كانت بمساعدة صديقه آتيوس فيلولوغوس (Ateius Philologus) الذي يكون

---

(1) عثمان (أحمد)، مرجع سابق، ص. 191.

(2) - Perrouchant (p.), op. cit. p. 10.

قد أملى عليه سلسلة من التعبيرات التي أصبحت في حكم المهجور[1]، وهذا الاهتمام يكون هو الذي دفعه إلى استعمال التعابير الشعبية الشائعة مثل: Habitare عوض: Habere و: Agitare عوض: Agere لأنه في تطوّر اللغات يبقى الشعب مشدودا إلى التعابير المتغيّرة أكثر من المتعلمين الذين يميلون إلى المحافظة، بحيث أن الكلمات العامية عندهم دائما في درجة المهجور من اللفظ،فالتعبير العامّي عند سالوستيوس كالتعابير المهجورة عنصر ليس للاهمال ولكنه أداة فنية، وفي التعابير المستعملة منها نلحظ إبداع الكاتب الذي لم يورّثه إياه سابقوه من الكتّاب. إنّها لغة جديدة، وبذلك يُسهِم في إضافة عناصر هامة للبناء اللغوي تستجيب لطريقة تفكيره وبنائه للنص[2].

كان سالوستيوس -على العكس من ثوكيديد- كاتبا كرّس الايجاز وهو ما أشار إليه كوينتيليان (Quintilien) عدّة مرات[3]، ومثل أستاذه ثوكيديد، فإنّ سالوستيوس يعتقد بأن دور التاريخ هو «عرض وتفسير الوقائع»، فالواقعة في نظره تستند على إبراز العوامل العامة، وهي في شكل متسلسل يعمل المؤرخ على الكشف عنه، ومن هنا فإنّ على المؤرخ أن يكون على اطلاع دقيق بالوقائع التي تمكنه من إعادة بنائها بناء ذهنيًا فقد كانت الأحداث التي عاصرها وعايشها غنية، مكّنته من ملاحظة الحوادث كتجارب معاشة، ولم يكن غرضه هو تقديم «كاتالوغ» عن هذه الأحداث كلها، ولكن أن يقدم ما هو ذا قيمة تاريخية فقط، فهو يرى في «الحرب "على" يوغرطة» أنّ النزاع الذي قام بين الأمراء النوميد هو

---

(1) مثل استعمال حرف الصوت: U بدل I في: Epistula Lubet مثلا، واشتقاق صيغة التفضيل باللاحقة Umus عوض Imus، مثال: Optumus واسم الفاعل Gerondif بـ: Undum عوض: ondum مثال: Accipium dum وحركة الإعراب Or بـ: s مثال: Labos وهذه الصيغ التي أخذ استعمالها يقل، كانت لا تزال في عصره مستعملة إلى جانب الصيغ الجديدة، ولذلك لا تعتبر بمقياس عصره مهجورة تماما، وإذا كانت مهجورة نحوا مثل استعمال المفعول به Accusativus بالنهاية Uti أو Fui فإنّ استعمالها في نصه كثير، أنظر:

- Richard (F), op. cit. P. 22.

- Perrouchant (P.), OP. CIT. PP. 15 - 20.

(3) عبارة كوينتيليان هي: Immortalem Sallustii illam brevitatem. ...

الصراع بين النبلاء والعامة في روما، وكأنه تعمق في البحث في الروابط والعلاقات التي تربط التاريخ بالتاريخ الداخلي في الدولة الرومانية، لكنه على عكس ثوكيديد لا يقدم نظرة شاملة ودقيقة حول هذا الموضوع، فهو لم يصل إلى السيطرة على ما يختلج في ضميره فيفصله عن الوقائع التاريخية، ليجرد موضوعه من عواطف المحبة والبغضاء، مما جعل أعماله أكثر تشاؤما إلى درجة إبراز هيمنة النفعية والرذائل في عصره، فهذه المشاركة الوجدانية للمؤرخ في أعماله، تفسّر بموقفه المعنوي الذي قاده إلى أن الأشخاص بالمعيار القيمي هم أمجاد يكرسون حياتهم للخير فيخلدون وأرذال يلفظهم التاريخ[1]، ولهذا وضع فلسفة استمدّ عناصرها من أفلاطون: «أولية الروح على الجسد»، وفلسفة أخلاقية فيها بصمات كاتون الكبير -معاداة فساد الأخلاق- مما يعطي لأعماله لونا رومانيا متميّزا.

يتميّز سالوستيوس عن ثوكيديد برغبته في الحجة، إذ نلمس في أعماله أثر الأسلوب الدرامي والفني، ويستشف منها بعض التوتر الداخلي والحماس الحربي الذي يقربه من التراجيديا وعلى عكس ثوكيديد أيضا، كان يهيمن على سالوستيوس الهاجس الجمالي ولا يتقيّد بالتسلسل الزمني، ولم يهتمّ بوضع بعض الحلقات التاريخية في أعماله مثلا في يوغرطة: قصة سقوط قفصة، وقصة الليغوري صياد الحلزون، و«التنافس» بين التاريخ والجغرافيا.

إنّ البحث في أسلوب سالوستيوس يجعلنا نستنتج بأنه انعكاس لإدراكه "الثوكيديدي"، وعليه فإنّ التاريخ عنده يتشبث باللون الأخلاقي كأسلوب كاتون ويبقى منفردا في مسألة «اللاتواصل» أي انتقاء اللوحات التي تجذب وجدانه، وصرف النظر عما سوى ذلك.

---

(1) جاء في النص الأصلي في كتابه: مؤامرة كاتيلينا ما يلي:

....Quo Mihi rectius videtur ingeni quam virium opibus gloriam quaerere et, quoniam vita ipsa qua fruimur brevis est, memoriam nostri quam maxume longam efficere. Nam divitiam et formae gloria fluxa atque fragilis est, virtus clara aeternaque habetur. ***De Coniuratione Catilinae, I.***

الفصل الثالث

أهمّ أعمال سالوستيوس: حرب يوغرطة

تتوزع أعمال سالوستيوس على ثلاثة مؤلفات غير مطولة كثيرا، مقارنة مع أعمال تيت-ليف المطولة،عالج فيها مواضيع محددة ومحدودة، ويبدو أنه لا يميل إلى الكتابة في المواضيع المطولة أو التي تغطي عصورا أو عهودا طويلة، بل يميل إلى تقديم لوحات محددة وإلى وصف الشخصيات التي عرفها عن قرب، أو رواها له أو روى عنها معاصروه مباشرة، والتي يسهل عليه تدوينها.

إنّ إدراكه للوقائع التاريخية لا يتسع ولا يمتد كثيرا في الزمان والمكان، بل يتشبث بالوقائع كما هي ويخضعها للملاحظة المباشرة، ولذلك اختار وقائع معيّنة ذات خصوصية وعالجها أو تصدى لها على حدة، دون أن يمنعه ذلك من المزج بينها، فقضية الرشاوى وفساد ذمم أعضاء السيناتوس تردُ في كل من حرب يوغرطة ومؤامرة كاتيلينا.

شرع في تدوين أعماله بكتاب: مؤامرة كاتيلينا (De Conjuratione Catilinae) وهي الواقعة التي عايشها هو بذاته، وكان شاهدا عليها، يتألف الكتاب من واحد وستّين فصلا قصيرا، وفضلا عن المقدمتين المطولتين حيث ورد في أولاهما أخطاء فادحة،فإن أثر تحامله بدا واضحا على الطبقة الأرستقراطية مما يبعده عن الموضوعية في كثير من الأحيان إذ يسرد وقائع أساسية، ولكن دون تسلسل يطابق التسلسل الحقيقي، مما يجعلها صعبة الفهم وغير واضحة وهذه هي الهفوات التي تدل -بالنسبة للمؤرخ- على قلة التجربة وهو ما سيتم تصحيحه في الأعمال اللاحقة[1].

إنّ حرب يوغرطة (De Bello Jugurthino) وهو العمل الذي يلي مؤامرة كاتيلينا لا يقدم كموضوع نفس المزايا التي يقدمها نص مؤامرة كاتيلينا، فهذه الحرب الطويلة والصعبة ذات الإشكالات المتعددة والمتكررة ليس لها كما يبدو الطابع الدرامي الذي يتوفّر عليه نص مؤامرة كاتيلينا، وفضلا عن ذلك فإنّ الأحداث التي يتناولها سالوستيوس أقدم، ولم يتعرف عليها مباشرة، ومن الحقيقي

(1) عثمان (أحمد)، مرجع سابق، ص 193.

أنّه يكون قد استقى معلومات عنها من أشخاص عايشوها، وأكثر من ذلك كان محظوظا بالتعرف شخصيا أثناء ولايته على أفريقيا الجديدة على الأماكن التي كانت ميدان حرب، ومن هنا فان التوثيق يكون ثريا ودقيقا، والعرض أكثر دقة في كثير من الأحيان، خاصة وأن نبوغ سالوستيوس يستند على أساس متين أداته القدرة على بناء الحادثة التاريخية، يتضح ذلك في أسلوب رصين وإنشاء متين،ومن الناحية العلمية فان تدوينه لحرب يوغرطة يرقى إلى درجة العلم أكثر من مؤلفه الآخر: مؤامرة كاتيلينا، فبالمقارنة معه يبدو حرب يوغرطة تحفة لا نظير لها.

في النهاية، نصل إلى كتابه المفقود: التواريخ (Historiarum) حيث يعرض الأحداث التي وقعت ما بين وفاة سولّة (Sylla) سنة 78 ق.م. وسنة 67 ق.م. وهي السنة التي سبقت سنة التصويت على قانون مانيليا (Lex Manilia) وهوالقانون الذي تحصل من خلاله بومبيوس (Pompeius) على قيادة الحرب ضدّ ميثريداتس (Mithridatus) هذا العمل بكل أسف ضاع ولم يصلنا منه إلا شذرات قليلة،حاول الرئيس دوبروس (De Brousse) بكل شجاعة علمية جمعه، ولكن لم يتمكن إلاّ من جمع نصوص قليلة -خطب ورسالتان- وصلتنا مع خطب أخرى لكاتيلينا ويوغرطة من خلال مخطوطة الفاتيكان[1].

01 - أفريقيا خلال الحرب اليوغرطية:

لا نجد في كتابات هؤلاء المؤلّفين القدامى ومنهم سالوستيوس تسمية أمازيغ كما تجنّب الكثير منهم استعمال الاسم الإثني أو القومي أو الوطني كما يقال اليوم للدلالة على شعب بأفريقيا[2] أو على الشعب الأفريقي، ويبدو أنهم لم يفعلوا ذلك لأنهم لا يريدون ترسيخ فكرة أنّ الشعب الأفريقي يمثل وحدة حضارية أو عرقية أو سياسية والراجح أنّهم لم يفعلوا ذلك عن قصد لأنهم يمثلون «الخط السياسي» لروما «الاستعمارية» ولا يريدون الإسهام في ترسيخ فكرة

(1) - Ernout, OP. CIT. P. 7.

(2) أفريقيا هنا للدلالة على أفريقيا شمال الصحراء، من الحدود المصرية إلى المحيط الأطلسي، كما هي في المصادر اللاتينية.

الوحدة في هذه الأرض، ولذلك تراهم يتكلمون تباعا عن أقوام (Peuplades) تسكن هذه البلاد دون الكلام عن روابط الوحدة بينها، ومن بين الأسماء التي نجدها في أعمال هؤلاء المؤرخين القدامى: الليبيون ثمّ النوميد من الكلمة الاغريقية (Nomadas)، وهذا على ذوي البشرة البيضاء في أفريقيا (الشمالية) أما ذوو البشرة السوداء في أفريقيا (جنوب الصحراء) فيطلق عليهم اسم الأثيوبيين من الكلمة الإغريقية (Aithos) أي الذين لفحت الشمس بشرتهم، بينما يطلق مؤرخون آخرون (الإغريق على وجه الخصوص) اسم الليبيين على سكان أفريقيا (الشمالية)، ولا ندري إن كانت هذه الأسماء مستعملة من قبل الأهالي أم لا[1].

عالج كامبس مسألة التسمية الإثنية للأفريقيين القدامى معالجة دقيقة معتمدا على المصادر المصرية والإغريقية ومصادر الشرق الأدنى والمصادر الرومانية، ولم يغفل الاعتماد على المصادر المحلّية[2].

في الفترة التي أرّخ لها سالوستيوس (118-103 ق.م.)،كانت أفريقيا مقسّمة جغرافيا كما هي سياسيا إلى موريتانيا في الغرب ويحكمها بوكوس (Bocchus) ونوميديا إلى الشرق منها مع قسم من بلاد الجيتول ويحكمها يوغرطة ثم مقاطعة أفريقيا الرومانية، وأخيرا قورينائية في أقصى الشرق حتى الحدود المصرية. وفي معرض حديثه عن الأقاليم الأفريقية ذكر سالوستيوس بأن أفريقيا تتكون من الأقسام الآتية:

أ – **قورينائية أو قورين** (Cyrénaïque): المتكونة من بلاد السيرت (Syrtes) بما في ذلك طرابلس وفزان الحالية في الداخل، حيث واحات النخيل والرمال ومنها تمرّ أقرب طريق نحو أفريقيا «الوسطى» من البحر المتوسط.

ب – **القطر القرطاجي**: الذي أصبح منذ الحرب البونية الثالثة ولاية رومانية، وهو القسم الشمالي الشرقي من البلاد التونسية الحالية.

---

(1) - Flatters, L' Afrique Septentrionale ancienne, IN Revue Africaine N°21 Anne 1877, PP. 233 - 235.

(2) - Camps (G.) Aux origines de la Berbérie: Massinissa ou les débuts de l'Histoire, PP. 20 - 30.

ج - **نوميديا:** وهي القطر الممتد ما بين حدود القطر القرطاجي شرقا أي من الخندق الملكي (Fossa Regia) إلى وادي الملوية (Mulucha) غربا أي الجزائر الحالية.

د - **موريتانيا:** أو بلاد المور (Mauretania) ما بين الملوية والمحيط الأطلسي أي المملكة المغربية حاليا[1].

في هذه المنطقة الشمالية من أفريقيا، بدأ الرومان في عهد سالوستيوس يتعرفون على هذه الأقطار أو الأقاليم بشيء من الدقة، وخاصة المناطق الداخلية والجهات الغربية سواء من خلال الحملات العسكرية أو العلاقات الديبلوماسية مع زعماء الأهالي، أو من خلال الصراع مع قرطاج فحرب يوغرطة التي كانت حرب كرّ وفرّ اتخذت من هذه الأقاليم الواسعة مجالا لمعاركها وكمائنها وهذا في حدّ ذاته يجعل الحرب أسفاراً ومعارك وذلك ما جعل جيوش متلوس (Metellus) وماريوس تجوب البلاد النوميدية في جميع الاتجاهات.

كان سالوستيوس نفسه قد رافق قيصر في حربه بأفريقيا، وعيّن بعد انتصار قيصر الساحق في ثابسوس على البومبيين وحليفهم الملك النوميدي يوبا الأول (46 ق.م.) على رأس مقاطعة أفريقيا الجديدة، التي هي الجزء الشرقي من مملكة يوبا الأول ومع ذلك فانه على ما يبدو لا يعرف لا هو ولا أحد من معاصريه الرومان الشيء الكثير عن موريتانيا كما أن الملك بوكوس على ما يبدو لم يكن يعرف روما، ولا الرومان كانوا يعرفونه مباشرة إلا أثناء الحرب النوميدية الرومانية، أما المناطق التي تسمى دون تحديد بلاد الجيتول (Gaetulia) فان سالوستيوس لا يقدم لنا إلا معلومات قليلة عنها، ولم يزد عن قوله بأنها وراء جبال الأطلس، ويسكنها الجيتول الذين يعيش بعضهم في أكواخ ريفية وهم المستقرون،أما بعضهم الآخر فيعيش تحت الخيام.

في بيان قائمة بوتنغر (Peutinger) تضُمُّ جيتوليا المزاب وريغ والسوف والأوراس والجريد والحضنة[2]، فهل يمثل هؤلاء الجيتول عرقا آخر، أم أنّهم مجرد

---

(1) - B. Jug. XVII., XVIII., XIX.

(2) - Peutinger, I., II., Paris 1906, pp. 39 - 41; - B Jug, XCIV, XCV, XCVI.

اتحاد قبلي ميال إلى الحروب، لأن سالوستيوس يذكر بأن يوغرطة كان يستنفرهم، ويكوّن فرقا منهم[1]، فهل كان مردّ النزعة الحربية عند هؤلاء إلى وضعهم وإلى طبيعة ومناخ الإقليم الذي يسكنونه، لعل من المرجّح أن هذه المنطقة ظلت لفترة طويلة ملاذا للمنهزمين أو المنفيين من الشمال، أي ملجأ للأحرار والمستقلين الأفارقة ولذلك طُبعوا بطابع النزعة الحربية.

رغم أن الاحتلال الروماني في أوج اتساعه توقف عند وادي جدي (Negrus Flumen) إلا أن روما ظلت تتخوّف من هذا الإقليم،كما أنها استغرقت فترة طويلة لكي تبسط نفوذها عليه، ولذلك بنت سلسلة من الحصون الدفاعية الدائمة في مرحلة أولى شمالي أوراس بموازاة السلسلة الجبلية شرق- غرب، وذلك لمراقبة البدو من الجيتول، ودفْعهم دائما للعودة إلى الجنوب من خط الليمس (Limes) وفي هذه الجوانب من المعلومات الجغرافية يبدو أنّ سترابون (Strabo) بلينوس (Plinus) وبطوليمس (Ptolémée) يتجاوزن كثيرا سالوستيوس، ولعل ذلك شيء طبيعي لأن هؤلاء جغرافيون أكثر منهم مؤرخون، وقد ذكر بلينوس معلومات كثيرة إلى أن يصل إلى تحديد الحدود الفاصلة بين أفريقيا و إثيوبيا بنهر النيجر.

أشاد سالوست بخصوبة الأرض الأفريقية، وكأنه يتنبأ بأنها ستظل لقرون تزوّد روما بالمؤن، وإذا عدنا إلى أصل «الأفارقة» نجد أن سالوست يرجعهم إلى الليبيين والجيتول الذين اختلط بهم الفرس[2] والميديين (Mèdes) والأرمن وقد ذكر بأنه استند في ذلك على وثائق وكتب تركها يمبسال (Hiempsal) دون أن يوضّح إن كان الأول أم الثاني[3]، وقد حاول بعض اللغويين انطلاقا من اسمي النوميد

---

(1) - B. Jug, XCIV, XCV, XCVI.

(2) لعل ذلك خلط وقع فيه سالوستيوس بين اسم الفرس (Perses) والفاروزيين (Pharusiae) وهم مجموعة قبلية كانت منتشرة في المنطقة الصحراوية الممتدة على ضفتي وادي الدراع على الحدود الجزائرية المغربية الحالية.

(3) يمبسال الأول هو ابن الملك ميسيسا أمّا يمبسال الثاني فهو ابن الملك غودة (Gauda) بن مستان (Mestan BAL) بن ماسينيسا.

والميدين، القيام بمقاربة لإيجاد علاقة بينهما إلا أنّ ذلك لا يعدو أن يكون نوعا من التركيب اللغوي الذي يفتقر إلى ما يؤيده من وثائق أثرية، واستنتاجات منطقية[1].

كانت قورينائية قد أصبحت رومانية منذ أن أقر ملكها ذلك (حوالي 96 ق.م.)، وكانت قبل ذلك تحت السيطرة الاسمية لروما، ولكن تحت السيطرة المباشرة لحاكم مقاطعة أفريقيا الرومانية، أما موريتانيا (الغربية) فكان على رأسها الملك بوغود (Bogud) في حين انتصب بوكوس الصغير ملكا على موريتانيا (الشرقية) التي اقتطعت من نوميديا على أثر الاتفاق الذي عقد بين سولّة (ش.12، ص 69) وبوكوس الكبير (ش.13، ص 70)، وكل من بوغود وبوكوس هذين كانا حليفين لقيصر، أما مملكة نوميديا فقد كان مصيرها بعد وفاة ملكها يوبا الأول (46 ق.م.) الزوال، ففي الجزء الشرقي منها أقام الرومان مقاطعة أفريقيا، الجديدة، التي عين سالوستيوس أول حاكم عليها[2]، وفي الركن الشمالي الغربي منها أقيمت «إمارة» سلمت لزعيم القراصنة سيتيوس (Sittius) مكافأة له على وقوفه إلى جانب قيصر في حربه ضد البومبيين وحليفهم الملك النوميدي يوبا الأول.

ليس لدينا ما يثبت بأن سالوستيوس عرف هذه المدينة، غير أن العثور على نقيشة تحمل هذه الكتابة: (Limis Fundi Sallustiani)[3] أمرٌ يثير أكثر من تساؤل فسالوستيوس كان محبا للحدائق والبساتين، ولكن ليس لدينا ما يؤيّد القول بأنه اتخذ سيرتا عاصمة له لأنها كانت طيلة الفترة ما بين مصرع يوليوس قيصر إلى اعتلاء أوكتافيوس العرش الإمبراطوري الروماني (44-27 ق.م.) في حالة اضطراب بسبب الحرب التي نشبت بين ولاة أفريقيا الرومان والمقاومة التي قادها الأمير النوميدي أرَيبون ضدّ سيتيوس وقراصنته.

---

(1) - Rinn (L.) Les Premiers Royaumes Berbères et la Guerre de Jugurtha, IN R.Af. N0 29, 1885, PP. 172 - 17.

(2) ... Ibi Sallustius pro consule, cum imperio. Bellum Africum: XCVII.

(3) - Bosco (Joseph), Au sujet d'une nouvelle borne du domaine de Salluste B'Kira, IN Recueil de la Société Archéologique de Constantine (RSAC), Volume LXIII, 1935 - 1936, PP. 203 - 205.

02 - الاطار الجغرافي للحرب «اليوغرطية»:

إذا أردنا أن نحدد نوميديا سالوستيوس التي يحدّها القطر القرطاجي والقرية من قرطاج ذاتها والممتدة إلى وادي ملوية، فهل تطابق المواقع التي ذكرها سالوستيوس المواقع التي نعرفها اليوم وبالأسماء الحالية، وهل يطابق المولوشا (Mulucha) مثلا نهر الملوية الحالي، وهل كان ميدان الحرب بهذا الاتساع فعلا، وهل هذا القطر الواسع كله كان ميدانا للكر والفرّ، في الحرب «اليوغرطية»، وهل كانت جيوش روما تحت قياداتها المتوالية تصول وتجول في هذا الإقليم الواسع كله؟.

لقد أشار اغزال (Gsell) إلى صعوبة تركيب كل أحداث هذه الحرب في هذه الرقعة الجغرافية الواسعة مثلما يورده سالوستيوس في كتابه: الحرب اليوغرطية، فمثلا ما بين حملة الرومان على قفصة وحملتهم على المولوشا يتكلم سالوستيوس عن أن الفصل كان شتاء، ولكن لا نجد في النص السالوستي ما يجعلنا نعرف أين كانت جيوش ماريوس تعسكر في الشهور الأخرى التي لم تكن فيها حرب[1].

ذكر سالوستيوس تفاصيل ضافية عن قفصة وموقعها ومحيطها الصحراوي، في حين لايقدم تفاصيل مماثلة عن موقع مولوشا في قلعة بجبل صخري يحجبها عن بقية الأراضي السهلية، وإذا كان يتكلم عن قفصة على أنها في فيافي الصحراء وأنها بعيدة والطريق إليها محفوفة بالمخاطر فإنه لا يذكر ذلك في معرض حديثه عن موقع مولوشا، رغم بعدها الكبير في الحدود الموريتانية، إذ أنّها تبعد عن قفصة بما يقارب ألفي كلم إلى الغرب، وواضح أن الوصول إلى موقع كهذا يتطلب إعدادا عسكريا كبيرا للزحف والتوقف في محطات متعددة للتزود بالمؤن وإقامة نقاط ارتكاز واتصال بنوميديا (الشرقية)[2].

إن سالوستيوس الذي يسهب في الحديث عن الزحف من تالة (Thala) إلى قفصة (Capsa) لا يذكر شيئا عن تلك المسيرة الطويلة التي سيقطعها ماريوس في -

(1) - Gsell (S) Histoire Ancienne de l' Afrique du Nord, T. VII., Paris 1974, PP. 235 - 236.

(2) - Marcel (Troussel), La Berbérie Antique et les Rois de la Maurétanie et de la Numidie, IN R.S.A.C., Volume LXVI, PP, 37 - 38.

الجزائر الحالية- من الشرق إلى الغرب، ويذهب مباشرة إلى الحديث عن حصار قلعة دون الكلام عن مدن لا بد من «فتحها» قبل الوصول إلى مثل تلك القلعة في أقصى حدود نوميديا الغربية وهذا ماجعل اغزال يقول بأن الحملة تكون قد استغرقت شهورا عديدة خلال سنة 106 ق.م. وكعادته فإنّ سالوستيوس لا يكتب إلا حلقات تتضمن شيئا من المبالغة في جوانب متعددة ثم يضيف ماذا كان يعمل يوغرطة خلال ذلك كله في نوميديا الغربية، إنّ سالوستيوس لا يذكر شيئا من ذلك[1].

كانت مملكة آذربال تغطي سواحل شرقي الجزائر، والجزء الغربي من تونس، شرق وغرب عنابة وجبال ماونة والايدوغ والمجردة (Bagrada Flumen) والخمير وسوق أهراس إلى وادي ملاق ووادي تاسة، وما يليها جنوبا من سهوب وصحراء، أما مملكة يوغرطة فتمتد إلى الغرب من ذلك إلى حدود موريتانيا، وهي أوسع وأغنى وأكثر سكانا، لأن المنطقة الشرقية ذات طابع جبلي وتغطيها الغابات والأحراش، هذه الاشكالية جعلت عددا من المهتمين مثل: برتييه (Berthier) ورين (Rinn) واغزال يحاولون تتبع الحرب «اليوغرطية» من خلال المواقع التي كانت ميدان معاركه، مما جعل بعضهم يقرّر بأن الحرب كلها لم تكن لتتجاوز الحدود الحالية بين تونس والجزائر[2] وفي اعتقادنا أن سالوستيوس



الشكل (4) يوغرطة
المصدر: قدّاش (محفوظ)، الجزائر في العصور القديمة، تعريب صالح عبّاد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1993 ص 93.

---

(1) - Idem. pp. 39 - 40.

(2) يستبعد برتييه أن تكون كلّ هذه البلاد الشاسعة مجالا للحرب على يوغرطة، ويرجّح أن تكون موقع قلعة مولوشا المشار إليها في نصّ الحرب اليوغرطية في مكان قلعة اسنان أو بالقرب منها، ومنها يمكن إعادة تركيب مجال العمليات الحربية وبذلك تكون مولوشا في الطريق ما بين قفصة وسيرتا كما يفهم من نصّ سالوست، أمّا أن يغامر ماريوس بالذهاب بعيدا نحو جهات ملوية وأن يستدرَج إلى تلك الجهات فأمر مستبعَد، للمزيد أنظر: - Berthier (A), La NUMIDIE, Rome et le Maghreb..., pp. 77 - 78.

لم يرو الحرب كلها بل انتقى منها فصولا ومعارك، لعلها تمثل انتصارات الرومان، وأغفل ما سواها، لأن التاريخ عنده هو تدوين لمآثر الرومان وأمجادهم أكثر من أي شيء آخر.

إنّ سالوستيوس يُظْهِر لنا يوغرطة نشطا ومراوغا بل ومناورا في مواجهة بستيا (Bestia) وألبينوس (Albinus) وأولوس (Aulus) ومتلوس (Metellus) وحتى ماريوس نفسه، إنّه يرشي سفراء روما وقادتها، يكمن في الموثول (Muthul)، يهاجم فجأة سيكا (Sicca)، يربك الجيش الروماني في باجة (Vaga) وبعد هزيمته نراه يبحث بمختلف الوسائل عن تحالفات وعن جنود وعن موارد...، ولا يعلن هزيمته دائما،بل يعاود المقاومة بسرعة وشجاعة كبيرتين، وعندما تسنح له الفرصة –ابتعاد الرومان أكثر من ألف كلم غربا- إذا به لا يستغلها ولا يفعل أي شيء، ولا يذكر عنه أي نشاط عسكري يستغل فيه الظروف المناسبة لضرب الرومان من الخلف؟.



الشكل (5) ميكيبسا
Source, Mazard, corpus... N°36

لعل سالوستيوس كان قد اعتمد –في أحسن الأحوال- على روايات بعض من رُويت لهم هذه الأحداث دون تمحيص، وهذا أثناء توليه حكم المقاطعة الأفريقية، أو أنه استقى هذه المعلومات من طرف واحد هو الطرف الروماني، وبكل تأكيد فإنّ هاجس تمجيد الرومان كان يسيطر عليه، ولذلك فانه كتب تحت تأثير هذه النزعة، وعليه فإنّ نص سالوستيوس فيه توظيف للتاريخ من وجهة نظر «استعمارية» وفيه الكثير من التحامل على قدماء شمال أفريقيا.

03 - أسباب الحرب ضدّ يوغرطة:

إن حرب يوغرطة (BELLUM JUGURTHINUM) هو أهم أعمال سالوستيوس فقد دوّن وروى الحرب التي كان المغرب القديم ميدانا لها على امتداد

سنوات عديدة، بين المملكة النوميدية بقيادة ملكها يوغرطة (ش.4،ص50)، وجحافل الجيوش الرومانية بقيادات رومانية متوالية، وفي هذا الكتاب معلومات مهمة، خاصة في غياب نصوص أخرى تؤرّخ لنفس الأحداث والوقائع، ومن خلال ما ورد في هذا الكتاب نستعرض في ما يلي أهم وقائع هذه الحرب والظروف والملابسات التي اكتنفتها، مستعملين النقد والتحليل ما أمكننا ذلك.

في أعقاب وفاة ميكيبسا (ش.5، ص 50) (Micipsa) 118 ق.م. وبعد مواراته التراب، اجتمع الأمراء الشباب: آدربال (ش.6،ص 52) ويمبسال (ش7.ص 53) وهما ولدا ميكيبسا، ويوغرطة وهو ابن عمهما مسطانبال، للحديث عن مختلف الأوضاع في المملكة، وهذا الاجتماع الأول هو الذي فجّر الوضع وعمّق الخلاف، لقد كان هناك وفاق أولي في شأن تقسيم الكنوز التي خلفها الملك ميكيبسا، وحسب رواية سالوستيوس فإنّ الجميع انسحب كلٌّ إلى جهة، ولكن غير بعيد عن مكان وجود الكنوز فقد انسحب يمبسال إلى ثيرميدا[1] (Thirmida)، وكان آدربال ويوغرطة غير بعيدين عن ذلك الموقع[2] ولعل اختيار هذا الموقع يعود ليس إلى قربه من الكنوز فقط، وإنما لقربه من ولاية أفريقيا الرومانية، حيث الاتصال بالسلطات الرومانية هناك أسهل منه في سيرتا، وهذا يعني أن النية مبيتة لدى طرف ما في الاستنجاد بالرومان وفسح المجال لتدخلهم[3].



الشكل (6) آذربال
Source, Mazard, ibid N°40

(1) لعلها ثيميدا (Thimida) الواقعة غير بعيد عن دقة (Thugga) أنظر:
- Gsell (S) H.A.A.N. T. VII, P. 143.

(2) فنطر (امحمّد)، يوغرطة، الدار التونسية للنشر، تونس 1970 ص.ص. 125-127.

(3) حارش (محمد الهادي)، سالوستيوس وحرب يوغرطة، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، الأردن، المجلد السادس، ص. 223.

كان موقف يوغرطة في تلك الأثناء موقف تشكيك في الدولة الرومانية، ولا ريب أنه كان يتوجس خيفة من تدخلهم المحتمل، كما أن جشع طبقة الأشراف الرومان من أعضاء السيناتوس، يجعل ثروة دولته محل أطماعها، وحتى يتجنب عواقب ذلك، كان قد أرسل إلى روما ممثلين عنه محملين بالذهب والفضة وإذا كان آدربال -في ما بعد- اختار الارتماء في أحضان روما، فان يوغرطة كان يتوقع ألاّ تترك روما فرصة كهذه تمر دون أن تتدخل أو أن تعمّق الخلاف بين الأمراء الثلاثة، خاصة وأن آدربال التجأ اليها، واذا كان احتلال كامل أفريقيا قد ظل حلما منذ الحروب البونية، وإذا كانت اتفاقيات روما-نوميديا في عهد ماسينيسا قد «عطّلت» اجتياح كامل أفريقيا وأن الرومان لذلك حافظوا مرحليا أو ظاهريا على احترام تلك المعاهدات فان الزمن طوى تلك العهود والتاريخ دارت عجلته والفرصة سانحة فالأسرة الملكية النوميدية منقسمة على نفسها وإذا كانت ملامح يوغرطة تنذر بظهور ماسينيسا جديد وقويّ فإن روما لا تجهل ذلك[1].

حين كان حصار سيرتا قائما، كان آذربال قد أرسل رجلين من عنده إلى روما، وإلى السيناتوس بالذات خاصة وهو يرى نضوب الذخيرة وليس لديه أمل في نجدة من أي أحد، وفي رسالته أوضح لمجلس الشيوخ الروماني وضعه «المأساوي» وأشار إلى أن الرومان أنفسهم مهددون، فقرر السيناتوس ردّاً على ذلك إرسال «محافظين» للتقصي[2] وكان بعض من الجالية الرومانية بسيرتا قد أشار عليه بالذهاب إلى روما بنفسه فإنها ستضمن له الحماية، مما يدل على أن المدن النوميدية كانت تضم جاليات إيطالية تمارس مختلف النشاطات ولها

---

(1) يورد سالوستيوس جزءا من خطاب ليوغرطة، ويذكر بأن عباراته تتكرر في كل خطاباته، حيث جاء فيه: «...إن الرومان شعب ظلوم، وبخله لا حدود له، وهم أعداء كل البشرية، وأنهم إنما يحاربونه. هو وأمم أخرى لسبب واحد هو حب التسلط، وذلك ما كوّن لهم خصوما في كل الأنحاء، فاليوم هاهو نفسه (أي يوغرطة) وبالأمس القرطاجيون والملك برسي، وغدا كل من يتبينون أنه أغنى سيكون محل عدوان من قبلهم». B. Jug. LXXXI.

(2) نلاحظ أن فكرة تقصي الحقائق باستعمال محافظين لا تزال قائمة في أيامنا هذه وهذه السياسة ما هي إلا تدخل مقنّع يتستر وراء أسباب واهية.

مصالح، وهي لا تتوانى في طلب النجدة من روما وأنها ترى في يوغرطة خطرا عليها وعلى مصالحها التجارية.



الشكل (7) يمبسال الأول،
المصدر: Charrier (L), Numismatique - Africaine, RSAC, XXXIII, 1989, P.441

عندما أرسل السيناتوس محافظين إلى أوتيكا (Utica) قرّر التحضير لحملة عسكرية ضد يوغرطة خاصة عندما وصلت أخبار مصرع آذربال والفتك بالجالية الإيطالية بسيرتا وهي الأسباب التي تذرّع بها الرومان للتدخل عسكريا في المنطقة، غير أن السبب الحقيقي والعميق كان دون ريب هو خشية الرومان من هذا «الزعيم» الصاعد الذي قد يكون ماسينيسا ثانٍ يريد الاستيلاء على القطر ويتخذها عاصمة له، وهذا انبعاث لدولة قوية مثل قرطاج البونية، ولكن هذه المرة تضرب بجذورها في عمق الأمة الأفريقية.

04 - الحملات الرومانية على نوميديا كما دوّنها سالوستيوس:

يمكن تتبع سير الحرب النوميدية-الرومانية من خلال الحملات الرومانية على نوميديا كما دوّنها سالوست في كتابه حرب يوغرطة (Bellum Jugurthinum)، وهي الحرب التي دامت حوالي خمس سنوات واجهت فيها المملكة النوميدية بقيادة ملكها يوغرطة عدّة حملات بقيادات متوالية من بستيا الى ماريوس.

أ- حملة 111 ق.م. بقيادة كالبورنيوس بستيا:

نزلت تشكيلة عسكرية رومانية كبيرة في المقاطعة الرومانية بأفريقيا وكانت قادمة من صقلية، وكان يقودها كالبورنيوس بستيا (Calpurnius Bestia) دخلت إلى نوميديا واحتلت عدّة مدن، ولكنها لم تتوغل في الداخل بل لم تصل الى باجة وهي

أقرب مدينة نوميدية إلى حدود المقاطعة الرومانية، إلا أن هذا القائد وقع ضحية جشعه عندما قبل هدايا يوغرطة المغرية (فيل وخيول وأغنام وكمية معتبرة من المال).

إنّ يوغرطة من خلال مقاومته وبوسائل مختلفة (الحرب والإغراء بالمال) كان دون ريب يريد إيقاف العدو الروماني في وقت مبكر، لقد كان أيضا يريد توجيه الضربة له في الشمال بدءا من الخندق الملكي، مثلما سيفعل في معارك لاحقة وملك قائد مثل يوغرطة، يجتاز الحدود النوميدية مرارا إمّا للتفاوض أو للحرب، هو ملك قوي رسخت سلطته في إقليم دولته، إنّه يريد حماية حدوده واستقلال مملكته، وهو ما لا يقرّ به سالوستيوس بل يمكن استنتاجه من نصه فقط[1].

عندما وصل خبر إيقاف الحرب إلى روما، كان الناس على حد قول سالوستيوس في العاصمة الرومانية، يشعرون بالغيظ، ولذلك فان السيناتوس برئاسة مميوس (Memmius) كلّف البريطور كاسيوس (L. Cassius) بأن «يستقدم» يوغرطة إلى روما وأن يمنحه «الأمان»، فسافر يوغرطة فعلا إلى روما، ولكن على أساس أن يتمكن من «شراء» ذمّة نقيب العامة بايبيوس (Baebius) وكان قد علم بأن شائعات تتردد في روما مفادها أن تاج نوميديا سيمنح لأحد أحفاد ماسينيسا اللاجئ إلى روما بعد استيلائه هو على سيرتا، وهذا الأمير هو ماسيوا (Massiva) ابن غولوسا (Gulussa).

كان أمر نوميديا قد أُوكِل خلال 110 ق.م. من قبل السيناتوس إلى بوستوميوس ألبينوس (Postumius Albinus) الذي كان يطمح إلى تحقيق انتصارت عسكرية، وهو الذي أُقنع ماسيوا بطلب عرش نوميديا لنفسه، وكان ذلك سببا في تصفية يوغرطة له عندما علم بالمخطط، وقد نفّذ ذلك أحد أعوانه وهو بوملكار (Bomilcar) مما أثار السخط في كل روما، وجعل السيناتوس يصدر أمره إلى يوغرطة بمغادرة روما، وكان هذا الحادث قد اعتبر فضيحة كبرى في روما الجمهورية، وكان يوغرطة قد تأكد بأن قادة روما وأعضاء السيناتوس بها ليست لهم مواقف ثابتة وأن ذممهم

(1) حارش، م. الهادي: مرجع سابق، ص 221.

معروضة للبيع، فقال وهو يغادر العاصمة الرومانية في طريق عودته إلى نوميديا كلمته الخالدة: مدينة للبيع ستهاوى قريبا لو وجدت من يشتريها[1].

ب – حملة 110 ق.م. بقيادة ألينوس:

استؤنفت العمليات العسكرية غير أنها كانت مجرد مناوشات، وكانت الفترات متباعدة ما بين معركة وأخرى، وكان القائد هذه المرة هو ألبينوس (Sp. Postumius Albinus) الذي ينسب سالوستيوس عدم فعاليته إلى أنه لم يتلقّ المدد[2]، إلا أن الواقع غير ذلك فالجنود الرومان بعد مقامهم فترة معينة بأفريقيا أخذوا يفقدون تدريجيا انضباطهم في جو الدعة وعدم النشاط كما يكونون أيضا قدكشفوا هدف قادتهم الرومان وجشعهم فانكفأوا، وبالمقابل كان النوميد الذين يقودهم يوغرطة يعرفون فن حرب الكرّ والفرّ الذي يعتمد على الكمائن ويتحاشى المواجهة المكشوفة وفي هذه الظروف سافر ألبينوس إلى روما لحضور جمعيات الشعب الناخبة بعد أن نظم المعسكر الشتوي لجنده وجعل أخاه أولوس (Aulus) على رأس الجيش ليخلفه في القيادة.

هذا القائد الغرّ (أولوس) كما يصفه سالوستيوس، أغرته الغنائم التي يمكن أن ينالها، فصمم على الغارة على سوثول (Suthul)[3] وحاصرها إلاّ أن الهزيمة لحقت به وبجنده، لأن خطّة يوغرطة كانت قائمة على استدراج الرومان نحو المناطق الصعبة ثم الإجهاز عليهم، وفعلا تم ذلك، وانتصر النوميد، وكان هذا أهم انتصار على الرومان، وخوفا من الأسر فرّ الرومان وانسحبوا إلى ما وراء الخندق الملكي (Fossa regia) وتم جلاؤهم عن التراب النوميدي، وهكذا حرّر يوغرطة مملكته، وأصيب الرومان بالهلع والذعر وكان ذلك منعرجا هاما في الحرب النوميدية الرومانية[4].

---

(1) - Urbem venalem et mature perituram si emptorem inveneritl. B. Jug. XXXV.

(2) - Idem. XXXVI.

(3) لم يتمكن المتخصصون من تحديد موقع سوثول بدقة، ولعلها تقع في جهات وادي ملاق على مقربة من التقائه بوادي مجردة.

(4) يذكر بول أورور (Paul Orore) في كتابه: (Advers Paganos V.15, 6) أنّ يوغرطة انتصر على أولوس بالقرب من مدينة كالما (Calama) التي تبعد عن الخندق الملكي بحوالي 240 كلم، وهي مسافة الأيام التي منحها يوغرطة لأولوس لمغادرة أرض نوميديا.

كانت خطة يوغرطة أثناء هجوم أولوس وحصاره لسوثول تقوم على استدراج الرومان وجرّهم نحو موقع جبلي، غير أنِ الأمطار هطلت بغزارة، وحولت السهول المجاورة إلى برك ومستنقعات، مما أربك الرومان الذين وقعوا في هزيمة نكراء. وكان من آثار ذلك توقف اجتماعات جمعيات الشعب الناخبة[1] بروما خلال سنة 110 ق.م. كلها، واهتزت مكانة ألبينوس وذلك ما جعله يصمم على العودة إلى أفريقيا للانتقام، إلاّ أنه وجد الجيش في معسكره الشتوي وقد فقد الروح المعنوية، ويعيش في فوضى عارمة، فلم يستطع عمل أي شيء.

يرجع المؤرخون (الرومان) سبب فشل الرومان في الحملتين الأولى والثانية إلى جهل هؤلاء بطبيعة البلاد التي أقحموا فرقهم العسكرية فيها، إلا أن الحقيقة هي أن استراتيجية يوغرطة هي الجديدة عليهم، لأن البلاد الممتدة خلف باجة (Vaga) ودقّة (Thugga) إلى أوتيكا، كانت معروفة لديهم منذ ما قبل سنة (110 ق.م.)

ج – حملة 109 ق.م. بقيادة متلوس:

قاد هذه الحملة كايكيليوس متلوس (Q. Caecilius Metellus) الذي انتخب قنصلا في أوائل سنة 109 ق.م.، ووصل أرض أفريقيا في فصل الربيع من نفس السنة لتسلُّم قيادة الفرق العسكرية الرومانية، وكانت مهمة صعبة، خاصة في ظل الوضع المتدهور الذي يعيشه الجيش الروماني، من قلة انضباط ومعنويات منهارة... وفور وصوله الأرض الأفريقية اتجه إلى نوميديا وأقام معسكرا قرب باجة ثم اتجه من هناك نحو الجنوب الغربي حتى وصل وادي موثول[2] (Muthul).

---

(1) في روما خلال العهد الجمهوري هي جمعية عامة للشعب ينتخب فيها القضاة وتناقش فيها القضايا العامة.

(2) يذكر مومسن تواريخ مختلفة، وحسبه يكون متلوس قد قضى سنة 109 ق.م. في إعادة تنظيم الجيش، وباشر الحرب في ربيع سنة 108 ق.م. وواصلها خلال سنة 107 ق.م.، وسلم القيادة الى ماريوس في أوائل سنة 106 ق.م.

كان متلوس يريد القيام بمعركة ينتصر فيها ليرد من خلالها الاعتبار للرومان ويرفع عنهم العار الذي ترتب عن معاهدة أولوس مع يوغرطة، وكان يريدها معركة فاصلة وخاطفة، ولعله كان يستهدف مقرّ الحكم النوميدي في سيرتا، وكان عليه أن يشق بعساكره إقليما واسعا -المسافة من باجة إلى سيرتا تبلغ حوالي 350 كلم- وقد وافق ذلك خطة يوغرطة الذي يعمل دائما على استدراج الجيش الروماني للدخول في مناطق يجهلها ومن ثمّ يسهل الإجهاز عليه لأنه سيتحكم في الخط الذي يسلكه الجيش الروماني وقد يكون الهجوم عليه في موقع يحدده هو انطلاقا من كمين يكون عادة في مسالك وعرة تضمن المباغتة الخاطفة ثم الانسحاب، وهذا الموقع هو «موثول» (ش.9، ص 60).

إنّ هذا الموقع يصعب تحديده الآن، وقد حاول اغزال من خلال عدة مقاربات أن يتوصل إلى تحديد هذا الموقع، وحسب سومان (Saumagne) فإنّ يوغرطة يكون قد تحكم في خط سلكه الجيش الروماني، وكان قد قرر أن يكون موقع المعركة في الموثول وإذا كان موثول هذا ليس وادي ملاق (O. Mellègue) فإنّه يصعب حسب الوصف الجغرافي الذي أورده سالوستيوس[1] تحديد هذا الموقع فيوغرطة كان يراقب التحركات الأولى لخصمه ويعمل على أن يقطع عليه خط الرجعة، ولكن في موقع مناسب، وفي الطريق ما بين أوتيكا وموثول يذكر سالوستيوس محطة هي واكة (Vacca) حيث جعل منها القائد الروماني قاعدة للتزود بالمؤن، ومن هناك فان الجيش إذا أراد التوغل في المناطق الحيوية في نوميديا، فإن عليه ألا يتجه غربا لأنه سيصطدم بجبال خمير وسوق اهراس، ولكن عليه أن يتوجه نحو الجنوب الغربي حيث تقع عدة مدن هي: دقة (Thugga) وتبرسق (Tubursucu) وسوثول (Suthul) وثيرميدا (Thirmida) والكاف (Sicca Veneria) وزاما (Zama) وخلال هذه المسيرة فان العقبة الكأداء هي وادي تاسا، وحسب سومان فان الطريق الأقصر والتي لا يزال

---

(1) - Explorato hostium itinare.. per tramites occultos exercitum metelli antivenit. B. Jug. XLVIII.

الراجلون والخيالة يسلكونها إلى اليوم هي التي تمر على المحطات الآتية: هنشير المطرية (Uchi Numluli) وهنشير الدوامس (Uchi Majus) على طول الطريق: باجة-الكاف، بمسافة مائة كلم، وعبر هذا المسلك الموازي للخندق الملكي يكون قد عسكر حيث أنه يسهل تلقّي النجدات والمؤن في حالة الحصار أو الأخطار، وعبر هذا الخط بحث سومان عن موقع الموثول[1].

د- معركة الموثول:

كان يوغرطة الذي ثبّت فرقه في شكل جدار من جهة الموثول التي تشرف على مجرى الوادي، أين وضع بوملكار فيلته وقسما من مشاته، وقام هو بالصعود إلى أعلى قمة الهضبة نحو نقطة الاتصال بالسلسلة الجبلية، وهناك بقي منتظرا ومعه خيرة رجاله من المشاة والخيالة وبينه وبين الجبل سيسلك متلوس طريقا تنتهي إلى السهول الوسطى، وعند ظهور متلوس عبر المفازة تكون فرقه متجمعة على مرأى من الجيش النوميدي من جهة الحراسة الخلفية، وكان أول ما قام به النوميد هو إعطاء الأمر لألفين من المشاة بالتوجه نحو الجبل المجاور للتمركز فيه واحتلال الممر خلف الجيش الروماني لمنع أي انسحاب وقطع خط الرجعة عنهم.

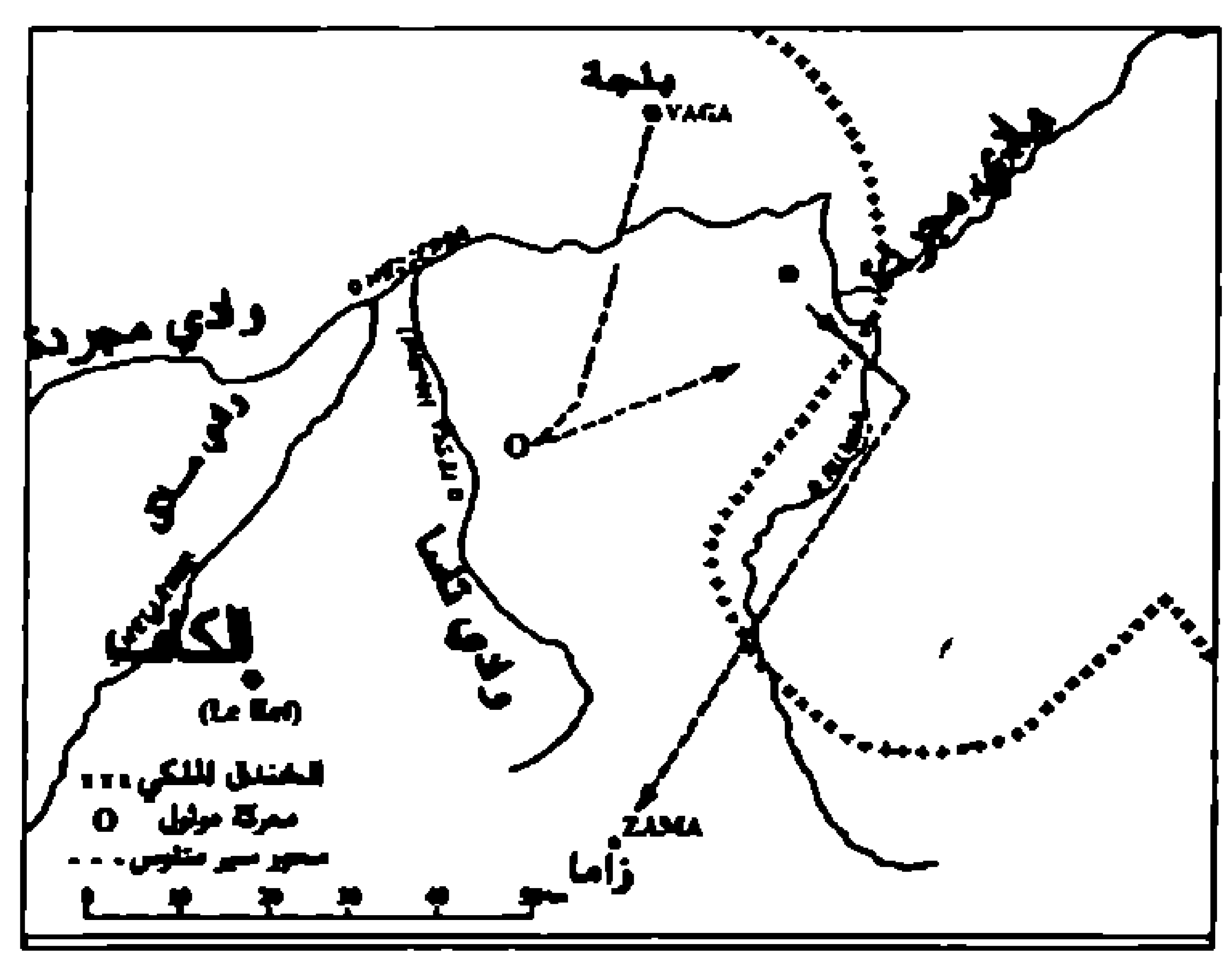


الشكل (8) الهضبة المسمّاة: مائدة يوغرطة (Table de Jugurtha) ما بين قلعة سنّان وتالة
(صورة ملتقطة من قبل المؤلّف)

(1) - Saumagne: La Bataille du MUTHUL, IN Revue Tunisienne 1930, PP. 3 - 17.

توقف الرومان وأوعز متلوس الى ضابطه روتيليوس (Rutilius) بنصب معسكر قرب النهر وبينما انهمك الرومان في ذلك العمل، انقضّ عليهم النوميد حسب الخطة، وطوّقوهم من الجهتين واستبسلوا في القتال إلى أن نزل الليل فانكفأ كل فريق إلى معسكره، واتجه بوملكار نحوالجبل، واتجه الرومان نحو معسكرهم الذي كان روتيليوس قد شرع في إقامته، ويبدو أنّ هذه الخطة قد أربكت الجيش الروماني الذي كان يبذل كل جهده للخروج من الكمين الذي وقع فيه ثم الانسحاب نحو الكاف[1] (Sicca Veneria).

يذكر سالوستيوس في نصه أن متلوس أقام في المعسكر أربعة أيام، يعالج الجرحى ويوزع المكافآت على «البواسل» من جنده، وقام بتوجيه خطاب «تعبوي» إلى أولئك الجند الذين خارت قواهم وضعفت معنوياتهم، في هذا الخطاب أطنب في الثناء على الجيش الروماني وذكّر بانتصاراته وأمجاده، ثم شجع جنده على الاستعداد للقيام بالمهام التي تنتظرهم قائلا: «إنّ المعركة من أجل النصر قد انتهت وأن المعركة الباقية هي معركة الغنائم»، وكان هذا الخطاب في المعسكر الذي نصبه روتيليوس على ضفة وادي تاسا حسب ما نفهمه من الوصف الوارد في نص سالوستيوس.



الشكل (9) عمليات متلوس

---

(1) بويزم (عبد القادر)، كتاب حرب يوغرطة للمؤرخ الروماني سالوستيوس، دفاتر التاريخ المغربية، عدد 1 ديسمبر 1987، جامعة وهران، ص ص. 14 - 15.

يعترف القائد الروماني هنا بأن الحرب ليست لها أهداف سامية، فهو نفسه يشجع على النهب والسلب وتجريد السكان من أموالهم، وهو ما يصدم القارئ لنصوص سالوستيوس الذي لا يستنكر هذه الدعوة الصريحة لنهب أولئك الذين جاء الرومان لتخليصهم من «بطش» يوغرطة وبذلك يفصح عن النوايا والأهداف الحقيقية التي دفعت الرومان إلى تجهيز جيوشهم وعبور البحر نحو أفريقيا، ومع ذلك فإن قائد الحملة بقي في الضفة اليمنى لوادي تاسا لا يتجاوزها[1] فهل أراد من خلال ذلك جعل وادي تاسا حدّا لمنطقة نفوذ رومانية، ثم تستمر المعركة ولكن في شكل مناوشات على جوانب تلك الحدود، أم أنّها سياسة الاحتفاظ بموطئ قدم وتجميع القوى للاعداد لنقلة أخرى؟.

يمعن سالوستيوس في الابتعاد عن الموضوعية عندما يروي بأن يوغرطة قد أسرع إلى أراض غابية خلف الموثول ليجمع جيشا كثير العدد ولكن يتكون من رجال يصلحون للفلاحة أكثر من الحرب، ويضيف: لقد كان يوغرطة لا يزال يحتفظ بكبريائه في حين أن متلوس تأكد أن هزيمة النوميد هزيمة خفيفة لا تمثل انتصارا للرومان، والذي لا يذكره سالوستيوس هو أنه ليست هناك هزيمة بل هو انسحاب «تاكتيكي» لاستدراج الرومان وهي خطة كثيرا ما يطبقها يوغرطة وتمثل تاكتيكا مألوفا عند الأفارقة.

إنّ هذه المعركة جعلت متلوس يتخوّف من محاولة الدخول إلى معقل المملكة النوميدية، فقرر البقاء في مناطق سهلية لا يخشى فيها من كمائن، وهي أغنى المناطق النوميدية، وهي المناطق الممتدة بين وادي تاسا والخندق الملكي، واتخذ المدن التي تقع فيها مصدرا للمؤن التي يحتاج اليها جنده[2].

لا يخفي سالوستيوس بعض الفظائع التي ارتكبها الرومان، ولعل الحديث عن الأمجاد والانتصارات والتفوق الروماني والانسياق في السرد استدرجه في القصة التي يرويها عن هذه الحرب إلى الحديث عن النهب والتخريب أيضا، فهو يذكر

---

(1) B. Jug. LV. -

(2) فنطر (امحمّد)، مرجع سابق، ص ص. 175 - 186.

أن الرومان بقيادة متلوس منذ دخولهم المنطقة الأغنى في نوميديا، اكتسحوا الأرياف وأحرقوا العديد من القلاع والمواقع الأقل تحصينا والتي لا تتوفر على حاميات وأبادوا الرجال وأسلموا كل شيء للنهب ويذكر سالوستيوس أيضا أنه منذ كمين الموثول أصبح متلوس في مأمن من كمائن النوميد، فقد تمركز في الضفة اليمنى لوادي تاسا بحيث يحمي ظهره بالمقاطعة الرومانية، ويراقب من جهة الغرب فقط عدوه النوميدي، وذلك أقل عناء وخطورة، أما يوغرطة، فليس له إلا طريق واحد وهو يشاهد نهب وخراب بلده على يد الرومان، وهذا الطريق هو حرب العصابات وكان يفاجئ الرومان بين حين وآخر[1] في الروابي والمسالك الصعبة، ولم يترك للرومان أيّ فرصة للقيام بمشروع ما والنجاح فيه، وذلك ما أثار متلوس وجعله يفقد أعصابه ويصمم على إجبار الطرف النوميدي على المواجهة في حرب مباشرة، ولذلك قام بمهاجمة مدينة نوميدية هامة هي زاما[2] وهو ما جعل النوميد بقيادة يوغرطة يسارعون إلى نجدتها[3].

للهجوم على زاما كان الجيش الروماني في مأمن بحيث أن المقاطعة الرومانية على يساره ووادي تاسا على يمينه في الغرب، وخلفه قواعده، ومن جهته أسرع يوغرطة لنجدة المدينة وعند وصوله شرع في تعبئة السكان مشجّعا إياهم على المقاومة وأراهم الفارين الرومان عنده، ثم عسكر في الروابي الغابية المجاورة، أما الرومان فقد أقاموا قواعد على امتداد وادي تاسا - لضمان التموين- يشرف عليها متلوس، في حين يقود ماريوس الجند، وكان متلوس قد وضع قموحه في سيكا، وعند ذهاب ماريوس إلى هنالك لنقلها كان يوغرطة قد تفطن إلى الأمر، وحاصر المدينة ليلا مما جعل ماريوس يلوذ بالفرار.

قاومت مدينة زاما مقاومة باسلة، ولم يتمكن الرومان من دخولها فأقاموا حولها حصارا شديدا فهاجمهم النوميد لحمايتها، ويحدث سالوستيوس عن

---

(1) - B. Jug. LVI.

(2) بالقرب منها كانت قد وقعت أحداث المعركة الفاصلة بين القرطاجيين بقيادة هانيبال، والرومان بقيادة سيبيون الأفريقي 202 ق.م.

(3) بوبزيم (عبد القادر)، مرجع سابق، ص. 14.

المبررات بحيث لا يجعل انسحاب الرومان هزيمة لهم ولا ينسبه إلى بسالة النوميد وشدة مقاومتهم بل يقول أن متلوس عندما لاحظ بأن الصيف على الأبواب وأن يوغرطة لن يحارب حرب مواجهة مباشرة، بل سوف يتابع خطته في الهجومات الفجائية واقتناص الفرص لضرب الرومان خاصة وأن المدينة لا تفتح أبوابها،وأسوارها محصنة ففضّل أن يغادرها، ويتخذ موقعا له في الجزء المحاذي لحدود نوميديا داخل المقاطعة الرومانية[1].

وهكذا نرى كيف أن هذه الحملة انتهت بهزيمة كبرى للرومان- يسميها سالوستيوس: انسحاب- بحيث عادت فلول الرومان إلى ما وراء الحدود النوميدية الى المقاطعة الرومانية، وتحررت مدن كانوا يحتلونها، ولكن بعد أن نهبوها مثل باجة وسيكا وإذا كان الرومان قد ابتدأوا الحرب اعتمادا على قوتهم العسكرية فإن فشلهم فيها جعلهم يفكرون في الكيد والمؤامرة كمرحلة أُخرى في حربهم ضد النوميد،وذلك باستغلال بعض العملاء والبحث عن طابور خامس.

هـ. حملة 108 ق.م. استعمال سلاح المؤامرة ضدّ يوغرطة:

ظل متلوس متحصنا في المقاطعة الرومانية إلى نهاية سنة 109 ق.م.في أُوتيكا، وكان يريد التوجه إلى مواقع في الداخل تكون قريبة من هذه المدينة، أو لعله كان يود إقامة سلسلة من المواقع المحصنة التي تضمن له الأمن والتزود بالمؤن في حالة الانطلاق في حملة جديدة.

كانت الحملة السابقة لم تحقق له طموحه، فقد كانت المقاومة النوميدية أكثر قوة وتنظيما ولذلك اتخذ متلوس هذه المرة منحى آخر وهو محاولة دراسة أوضاع الأهالي واللجوء إلى الدهاء وإثارة الفتنة، ولهذا بحث عن شخصية نوميدية يمكن الاتصال بها، فنجح في عقد اتصالات مع شخصية نوميدية رفيعة تتمثل في أقرب مساعدي يوغرطة وهو بوملكار الذي كان له دور في اغتيال الأمير النوميدي ماسيوا[2] أثناء ذهاب يوغرطة إلى روما، وقد أصبح بوملكار هذا من أقرب المقربين

(1) فنطر (امحمّد)، مرجع سابق، ص ص. 184-185.

(2) بويزم (عبد القادر)، مرجع سابق، ص ص. 16 - 15.

إلى يوغرطة، ولذلك اتصل به متلوس وزين له الإيقاع بقائده، ويبدو أنه أخذ يميل إلى إغراءات متلوس، لأنه حاول إقناع يوغرطة بأن الحرب ضد الرومان لا طائل من ورائها وأن موارد المملكة نضبت واستنزفتها هذه الحرب، والحقيقة أن متلوس كان قد قدم وعودا مغرية لبوملكار في حالة نجاحه في الإيقاع بيوغرطة أوجعله يقبل الاستسلام،ومن خلال ذلك عمل بوملكار على تهويل الوضع للنيل من معنويات يوغرطة حسب الخطة السرية بينه وبين متلوس، وعندما ظهر بعض القبول أو القبول الحذر لدى يوغرطة، ظهرت مطالب الرومان التي لا تقف عند حد، مثلما يذكرها سالوستيوس، وصدر الأمر بأن يلتحق يوغرطة لإكمال نصوص الاتفاقية بثيسيديوم (Thisidium) قرب كريش الواد.

كان يوغرطة -كما يبدو- قد ساير بوملكار حتى يقف على حقيقة العلاقات السرية بين متلوس وبوملكار، وعندما وقف على حقيقة الأمر واكتشف المؤامرة التي تدبر في الخفاء للإيقاع به قرّر أن يضرب في العمق، وكان هدفه هذه المرة مدينة باجة للثأر من متلوس مدبّر المؤامرة فاتصل بأعيان المدينة للتعاون معه للإيقاع بالحامية الرومانية المرابطة في المدينة، وكان ذلك يصادف الاحتفال بإلهة الفلاحة كريريس (Cereres) وقد تجاوب الأعيان مع يوغرطة، ولا ريب أنهم رأوا في التعاون معه تحريرا لمدينتهم من بطش الرومان، ومن أجل ذلك استدعوا أفراد الحامية الرومانية إلى حفل ثم أمروا بإبادتهم، وقضي عليهم جميعا إلا قائدهم الذي تمكن من الفرار، وشارك سكان المدينة جميعا نساء ورجالا،في المعركة التي دارت بين يوغرطة والرومان مما يدل على أن الأفارقة كانوا ملتفين حول الملك يوغرطة وأنهم على استعداد للتضحية من أجل تحرير وطنهم وطرد المعتدي الروماني، وليس كما يصوّر سالوستيوس الوضع ويصفه بالمؤامرة[1].

كان ردّ متلوس على ذلك هو الإمعان في سياسة الكيد والمؤامرة من جديد، فقد كان في عداد جنده فرقا نوميدية -كما يذكر سالوستيوس- ولا ريب فإن بوملكار كان له دور في ذلك لقد عزم متلوس على أن يناور بهذه الفرق

---

(1) - B. Jug. LXI. LXII.

وفعلا فإن سكان باجة الذين أغلقوا أبواب مدينتهم عند مشاهدة طلائع الجيش الروماني عادوا لفتحها عندما شاهدوا الفرسان النوميد في المقدّمة، فخرجوا للتحية معتقدين أنه يوغرطة على رأس الجيش النوميدي، وهنا وجد الجيش الروماني الفرصة للانتقام فأباد كل من وجده أمامه، وأسرع بالدخول إلى المدينة التي سقطت ثانية في أيدي الرومان، واستمر متلوس في طريق التآمر وحيث أن العميل بوملكار اتضح أمره وأصبح يعمل جهارا للإيقاع بيوغرطة، فإنه اتصل هذه المرة بأمير نوميدي له مكانة وحظوة هو نبدالسا (N'Abdalsa) لإقناعه بضرورة القضاء على يوغرطة، ويذكر سالوستيوس بأنهما اتفقا فعلا على ذلك[1] ولكن كيف نفسر عدم التحاق نبدالسا بيوملكار كما كان متفقا عليه للإيقاع بيوغرطة. إنّ المبررات التي يوردها سالوستيوس غير مقنعة، ولعل هاجس الأحكام المسبقة التي تسيطر على تفكيره جعلته يوظف الأحداث أو يخترعها ويؤولها لتأكيد مقولة يكررها مرارا وهي أن الأفارقة جبلوا على الخيانة.

و – حملة 107 ق.م. بقيادة ماريوس:

جاء على رأس الحملة الرومانية هذه المرة أحد أبرز القادة العسكريين الجدد. إنه ماريوس (ش.10، ص66) (Marius) الذي انطلق علىرأس فرقه العسكرية التي جندها من إيطاليا، وكان قد عهد بتوفير المؤن إلى ضابطه مانليوس (A. Manlius) ونزل بأوتيكا، وقد اختار النزول في ذلك الميناء لأنه ميناء عاصمة المقاطعة الرومانية بأفريقيا ويتوفر على إمكانيات الإنزال فضلا عن الأمان الذي يوفره للجند القادم من إيطاليا[2].

---

(1) أنظر أدناه، الفقرة LXIX، ص 136، وكذلك: - RINN (Louis) OP. CIT. P. 178.

(2) ليس كما يشير برتيه من أن ذلك يعود إلى أن سيرتا ليست هي قسنطينة وإنما هي الكاف، ومن ثمّ يفترض بأن اختيار أوتيكا كان بسبب قربها،ولو كان ماريوس قاصدا قسنطينة لكان قد أنزل جنده في هيبون أو روسيكاد، أنظر:

- Berthier (A.), LE 'Bellum Jugurthinum' de Salluste et le Problme de CIRT, Constantine 1951, P. 64.

قبل أن يشرع ماريوس في عمليات عسكرية كبيرة، اهتمّ بإعداد جيشه وتنظيم التزود بالمؤن، ولعله يكون قد اهتمّ أيضا بتثبيت سلطة روما في المقاطعة الرومانية وما جاورها، لأنها رأس جسر في الأرض الأفريقية منها تنطلق القوة الرومانية في غزوها خاصّة وأن الحرب ضدّ المملكة النوميدية لم تبق مجرّد نجدة من «حليف» لإنقاذ آذربال، بل تجاوزت ذلك وأصبحت غزوا حقيقيا هدفه إخضاع الأرض الأفريقية لسيطرة روما، وقد وجد ماريوس الوضع في تدهور كبير لأن متلوس لم يتمكن من السيطرة على الوضع والخصم النوميدي خصم عنيد مستميت في الدفاع عن استقلاله ولذلك كان لا بد من وقت لرأب تلك الصدوع بالنسبة إليه، ولا ريب فإن ماريوس يدرك أنه لكي يحقق ذلك عليه أن يتريّث ولا يبدأ في العمليات الحربية على أرض لا يزال يجهل مسالكها ومواقعها الحساسة.



الشكل (10) ماريوس

لعل ماريوس يكون قد بدأ بالمناوشات الصغيرة، حتى يدرس الأرضية ويتحسس الوضع عن كثب، ويكون قد لاحظ أن كل من يتجرّأ بالمواجهة أمام النوميد يؤسر أو يقتل، بينما كان الحذرون وحتى الجبناء - لم لا، - من الرومان هم الذين يظفرون بالنجاة[1].

لضمان التزود بالمؤن كان ماريوس قد سيّر فرقه العسكرية نحو المنطقة "التلية" وهي بلاد غنية «بالغنائم» وخصبة، كما قام بمهاجمة الحصون والمواقع ضعيفة الدفاع طبيعيا أو التي لا تتوفر على حاميات عسكرية كافية لحمايتها[2]، ولعل ذلك كان بسبب خشيته من مباغتة النوميد له، خاصة وأنهم يحاربون فوق أرضهم ولهم دراية بالبلاد وتستطيع فرقهم أن تناور وأن تستعمل أساليب جديدة لم يألفها الرومان وأهمها حرب الكمائن، وكان ماريوس زيادة على حنكته الحربية يوظف الدهاء ولذلك أخذ في البحث عن حلفاء من بين النوميد وأخذ

(1) - B. Jug., LXXXVI.

(2) - Id., LXXXVI.

يؤكد الادّعاء بأن الرومان حماة لهم من بطش يوغرطة، وأهم من ذلك البحث عن مدى قوة التحالف ما بين يوغرطة وبوكوس، خاصة وانه لمس في هذا الأخير رغبة في عقد اتفاق مع الرومان على حد قول سالوستيوس، وبدأ ماريوس بالتفكير في كيفية تحييد هذا الملك بل ضمّه إلى الجانب الروماني[1].

عمل ماريوس على تحقيق نصر «استعراضي»، فاتجهت أنظاره صوب قفصة (Capsa) وهي مدينة معزولة في الصحراء، في أرض ليست بها زراعة، وتفتقر إلى المياه ومليئة بالحيات، وهذه المنطقة هي التي لم يكن متلوس قد فكر في نقل الحرب إليها أي ضرب الخصم في الأطراف قبل الإجهاز عليه في قلب مملكته، وقد فصّل سالوستيوس في الكلام على الحملة على كل من قفصة وتالة (Thala)، فذكر أن الفصل كان صيفا والصيف يقارب نهايته، وأن الملك يوغرطة لم يكد ينتهي بعد من نقل الغلال إلى المواقع المحصنة لخزنها[2].



الشكل (11) الملك غودة: المصدر:
- Charrier (L), Numismatique Africaine, RSAC, XXXIII, 1899, p.442

قضى ماريوس في السير نحو قفصة حوالي عشرة أيام، ولعله كان يسير ليلا حسب خطّة رسمها، حتى يضرب المدينة على حين غرّة، ويتجنب القيظ أيضا،وفعلا باغت المدينة وتمكن من اقتحامها وأسلمها للحرق وأباد كل من فيها من النوميد الذين هم في سنّ حمل السلاح، ونهب ووزع الأسلاب على جنده، وحتى يبرر سالوستيوس هذه الجريمة الشنعاء والمنافية لقوانين الحرب ذكر بأن المدينة تمثل موقعا هاما ليوغرطة،وأن شعبها خائن وغادر[3]!.

دشنت هذه الضربة الخاطفة مرحلة جديدة في الحرب النوميدية – الرومانية تتمثل في ضرب المدنيين، واستعمال الابتزاز من قبل الرومان بالانتقام من العزّل،

---

(1) - Id. LXXXVII.

(2) - Id. LXXXVIII.

(3) - Id. LXXXVIII. XCII.

وبذلك أظهروا نواياهم بوضوح، وخاصة استعمال النهب لتشجيع الجند على الغزو والحرب وهذا ما أكسبه شعبية بين جنده وتحول الجيش الروماني على يده إلى مجموعة قراصنة وقد أطنب سالوستيوس في تمجيد ماريوس قائلا: بعد هذا «النصر» الذي تم لماريوس دون أن يخسر جنديا واحدا من جيشه، نال مجدا مطّردا وأصبحت خططه أداة لإثبات بسالته بين جنده، وباختصار، يضيف سالوستيوس فإن الجميع أعداء وأصدقاء أصبحوا يعتقدون بأن روحا إلهية حلت فيه، أو أنه ملهم من الآلهة على الأقل[1].

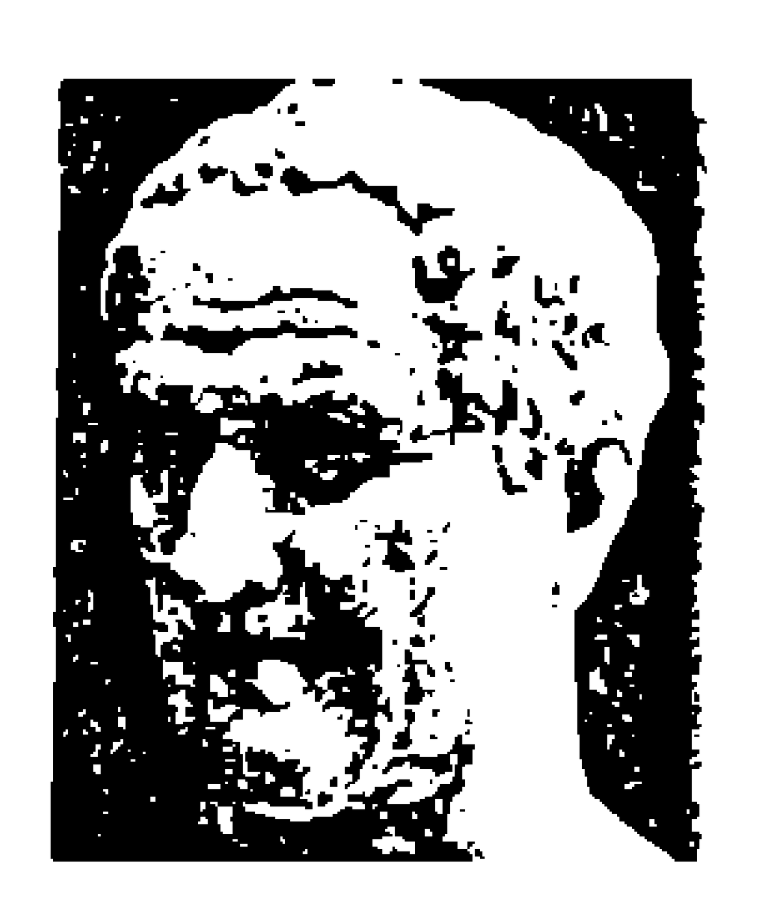
عاد ماريوس على إثر ذلك إلى الشمال لإقامة معسكراته الشتوية،ولكنه لم يكن قد اختار الانسحاب نحو الشمال سلميا بل أراد انتهاز فرصة مسيرته الطويلة للانقضاض على بعض المدن والقلاع الواقعة في طريقه، غير أن سالوست لا يذكر هذه المدن والمواقع وانتقل إلى الحديث عن الهجوم الروماني على حصن المولوشا، في الحدود بين نوميديا وموريتانيا، فلعل ذلك كان بعد انقضاء فصل الشتاء على الأقل، أو أنّ بترا وقع في النص السالوستي، أو أنّ سالوستيوس هو الذي يختار في سرده التاريخي الأحداث التي يتفاعل معها وليس ضروريا هنا أن يتتبّع الحرب كما هي يوما بيوم، ويمكن أن نستنتج بأن تحوّل يوغرطه إلى الغرب وتحالفه مع بوكوس إنما يعود إلى العدو الروماني الذي اختار هذه المرة خططا جديدة وهي البدء بالأطراف لخلق مرتكز ينطلق منه في الهجوم على السكان العزّل وإرهابهم كما هو الحال في الهجوم على قفصة التي كانت آمنة بعيدة عن جبهة الحرب.

في معركة مولوشا، يمزج سالوست الأسطورة والخيال بالحقيقة، عند سرده لقصّة الجندي الليغوري الذي اكتشف مسلكا استراتيجيا يفضي إلى حصن يضم كنوز الملك يوغرطة عندما كان هذا الجندي يقتفي أثر الحلازن في منحدر صعب وأثناء ذلك كان الخيالة الرومان بقيادة سولّة الذين جندهم من اللاتيوم (Latium) من حلفاء الرومان كانوا قد التحقوا بماريوس في أفريقيا،

---

(1) - RINN (Louis), op. cit. PP. 184 - 186.

وفي نفس الوقت كان جيش الملك الموري بوكوس قد انضمّ إلى جيش يوغرطة، لينطلق الجيشان نحو ماريوس الذي يكون قد وصل إلى معسكره الشتوي ليخلدإلي شيء من الراحة، وبدا أنّ يوغرطة عازم على ألاّ يترك الفرصة تمرّ دون أن يوجه ضربة قوية لعدوه لإبعاد الخطر عن مملكته ولذلك ما إن أرخى



الشكل (12) سولة

الليل سدوله حتى اندفع في هجوم كاسح ضدّ الرومان، فانهزم ماريوس وفرّ مع جنده بحثا عن ملاذ لهم، وقد اعتصم بربوتين محاذيتين لبعضهما، إحداهما لاتكفي لإقامة معسكر ولكنها تتوفّر على عين ماء أمّا الأخرى فهي أكثر ملاءمة لإقامة معسكر وواسعة ويمكن التحصن فيها، وهناك عسكر ماريوس مع سولّة، ومن الغداة وقعت المعركة التي لايذكر سالوست تفاصيلها كعادته بالقدر الكافي عندما يكون الطرف الروماني هو المنهزم ولكنه يفعل العكس عند تدوين الانتصارات الرومانية، ويبدو أن الرومان انهزموا لأن سالوستيوس يذكر بأنهم انسحبوا نحو معسكراتهم الشتوية شرقا بالقرب من المقاطعة الرومانية، ولكن قبل وصولهم إلى تلك المعسكرات وقعوا في كمين غير بعيد عن سيرتا، نصبه لهم جيش يقوده وولُكس (Volux) نجل الملك الموري بوكوس غير أنّ الجيش الموري انهزم لضعف قيادته علىحدّقول سالوستيوس فاستعاد الرومان حماسهم وأخذ ماريوس يعدّ العدّة لدخول سيرتا التي كان قد احتلها من قبل ثم استرجعها النوميد منه، وتمكن فعلا من اقتحامها وإخضاعها من جديد[1].

ز- مؤامرة القبض على يوغرطة:

خلال هذه الأحداث أي بعد هزيمة جيش بوكوس، يذكر سالوستيوس أن الملك الموري هاله الأمر، فأرسل وفدا من عنده إلى ماريوس ليفاوضه في أمر الحرب وطلب أن يرسل إليه ماريوس اثنين من خاصته بشأن التباحث حول

(1) - B. Jug. XCVII., CII.



الشكل (13)
الملك بوكوس الأول

مصلحة الطرفين ومنذئذ تبدأ مرحلة جديدة فعوض العمليات الحربية الصعبة التي يلعب فيها الحظ دورا كبيرا لأنها حرب كمائن، دخل ماريوس طريق المفاوضات التي يلعب فيها الدهاء دورا أساسيا، ثم أليس هو القائل عند هزيمة الرومان: الآن انتهت الحرب وبدأت المؤامرة! خاصة وأن الوضع بدا أقل حدّة من ذي قبل، والعمل العسكري أصبح محدودا، ومن ثم فإن لعب ورقة المفاوضات كان في غاية الأهمية[1].

كان الرومان قد جربوا المفاوضات أو إعمال الدهاء منذ متلوس الذي حاول إغراء بوملكار وشجعه على أن يعمل على ثني الملك يوغرطة عن الحرب، وعندما همّ بوملكارهذا بتسليم الفارين (Transfuges) الرومان إلى متلوس علم بأن بعضهم فرّ إلى موريتانيا خوفا من العقاب، ولعل وصول ماريوس إلى القيادة هو الذي أنهى حبل المفاوضات التي كان يمكن أن تحقق للطرف الذي يمتلك القدرة على المناورة وكسب الوقت ما لم يتحقق بقوة السلاح، وقد جاءت المبادرة في المجال الديلوماسي من الطرف الروماني الذي ناور وتمكن من الكيد والدس للملك النوميدي يوغرطة، هذا الأخير الذي وجد نفسه مقيّدا بالأغلال على إثر الاتفاق السري بين سولّة وبوكوس هذا الملك الذي حمل السلاح سنين طويلة يلقى عليه القبض وهو أعزل من السلاح وآت إلى المفاوضات دون أن يدرك خطورة الخطوة التي أقدم عليها، لأن حسن الظن في الحرب هو أول خطوة نحو الهزيمة.

استغل سولّة انتصار ماريوس العسكري فوظفه في الجانب الديلوماسي وفاوض بذلك النصر فاستمال إليه بوكوس - الذي لم يقدّر حجم الكارثة التي ستنجرّ على ما سيقدم عليه، وأن ذلك سيرهن البلاد لعدو ليست لطموحاته حدود، وهو في طور التوسع- وقَبض على قائد طالما أربك الرومان وأوقع بهم في هزائم عديدة، قَبض عليه مجرّداً من أيّة قوة تحميه، فبدت روما في غاية الرضا عن هذا العمل،

---

(1) (قنطر) محمد، مرجع سابق، ص. 269.

ويعتقد كاركوبينو بأن اتصالات سولّة بالملك الموري للإيقاع بيوغرطة تكون قد دامت من الأسابيع الأخيرة من سنة 106 ق.م. إلى جزء هامّ من سنة 105 ق.م[1].



الشكل (14) الملك يوغرطة يقع ضحيّة مؤامرة سولّة وخيانة بوكوس

كان لزاما على روما أن تكمل مخططها، وذلك بتنفيذ بنود الاتفاق مع بوكوس الذي تسلّم القسم الغربي من نوميديا الذي سيحمل اسم موريتانيا الشرقية منذ ذلك التاريخ، كثمن لخيانته وغدره[2]، ويكون ماريوس قد تمركز في سيرتا لبعض الوقت لإكمال إجراءات إنهاء الحرب، وسيق يوغرطة إلى روما أين قضى نحبه في سجنها، حوالي سنة 104 ق.م. ولكن ذكراه استمرت خالدة في أذهان الأجيال عبر التاريخ تستلهم منها مثل التضحية دفاعا عن كرامة الأمة وعزة الوطن.

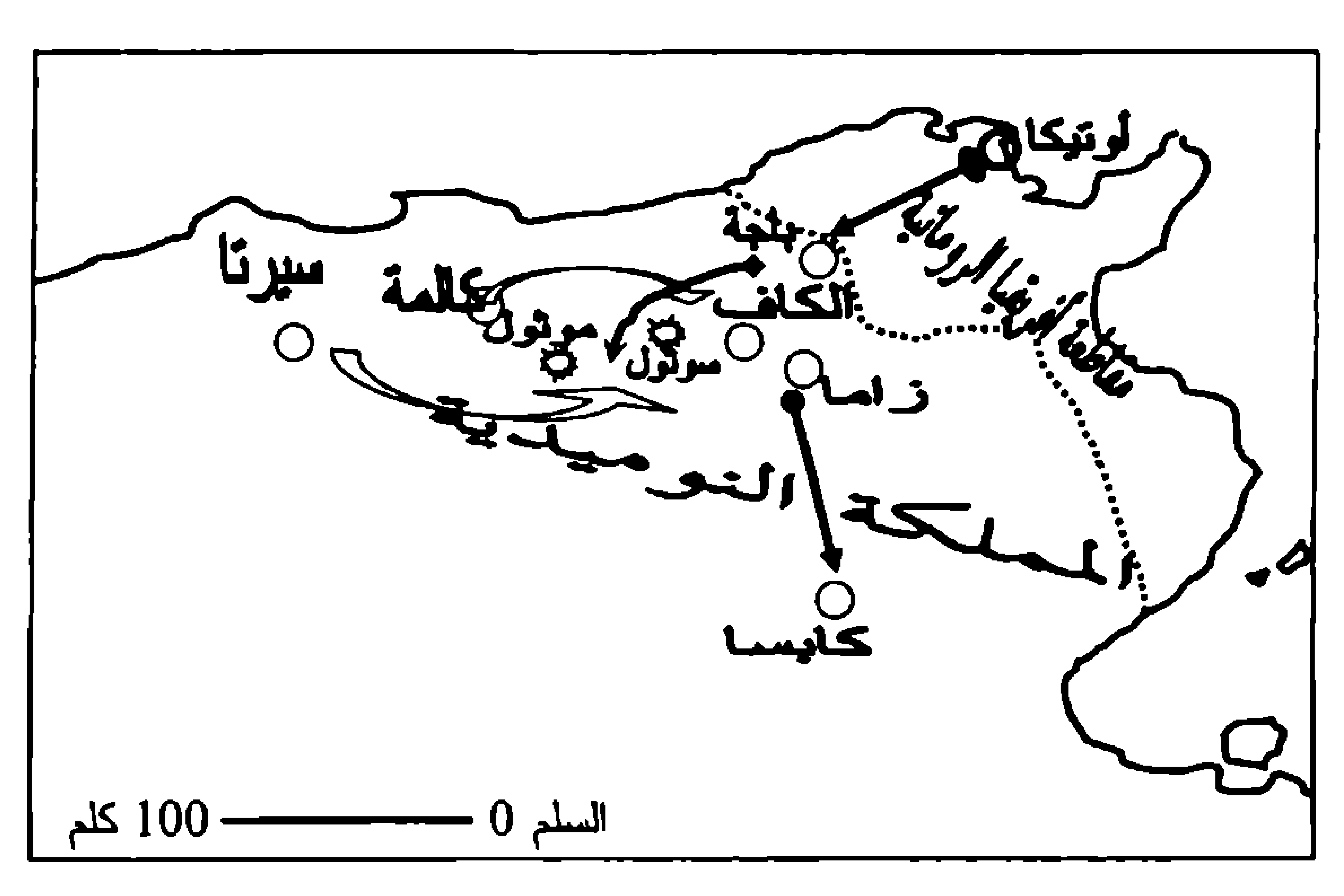
---

(1) بويزم (عبد القادر)، مرجع سابق، ص.20. - Carcopino (J.); OP. CIT. P. 184.

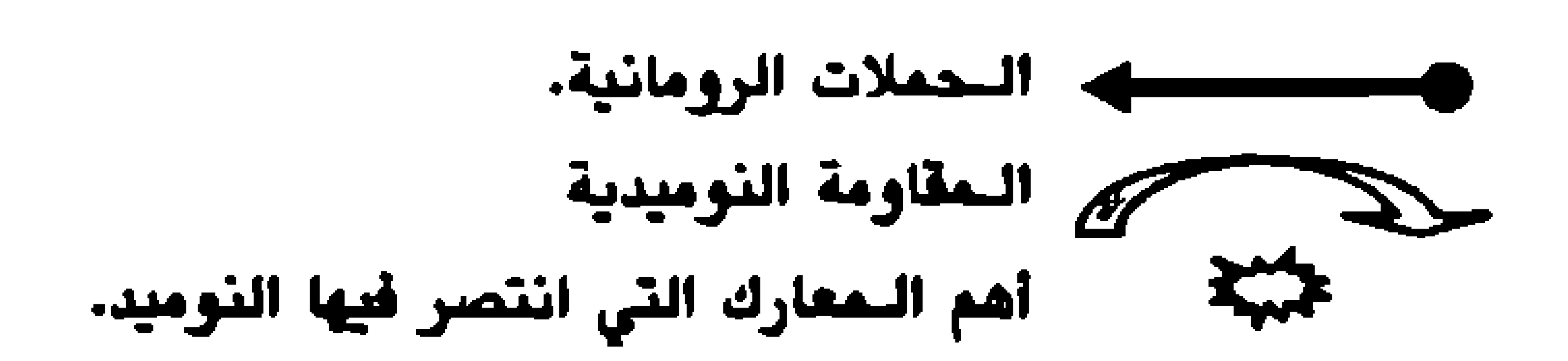
(2) في غياب مصدر آخر غير سالوست يبقى موقف الملك بوكوس غير واضح كفايةً، ونعتقد بأنّ هناك تفاصيل لم يذكرها سالوست لتمرير ما يريد، ولهذا نودّ الإشارة إلى أنّ نهاية الحرب على هذه الصورة مسألة فيها نظر، ولعلّ سالوست ببنائه لوقائع التاريخ بأسلوبه الذي أشرنا إليه أعلاه (ص ص 31-41)، يريد أن يثبّت في ذهن الأجيال اللاحقة الخيانة كطبع متأصّل في المغرب القديم وهو طبع كان الرومان يلصقونه بالبونيين فلمّا زال هؤلاء ورّثوه للنوميد والموريتانيين، وقد يأتي من تنطلي عليه هذه الأغلوطة أو من يريد الصيد في الماء العكر فيفسّر تاريخ المنطقة قديما وحديثا على ضوئها دون تروٍّ، لأنّ الوقائع التاريخية لا يثبتها مصدر واحد خاصّة عندما يكون ذلك المصدر منحازا مثل سالوست الذي لم يخف انحيازه لأمّته الرومانية منذ أن بدأ بخطّ سطوره الأولى، ولذلك وجب التنبيه.

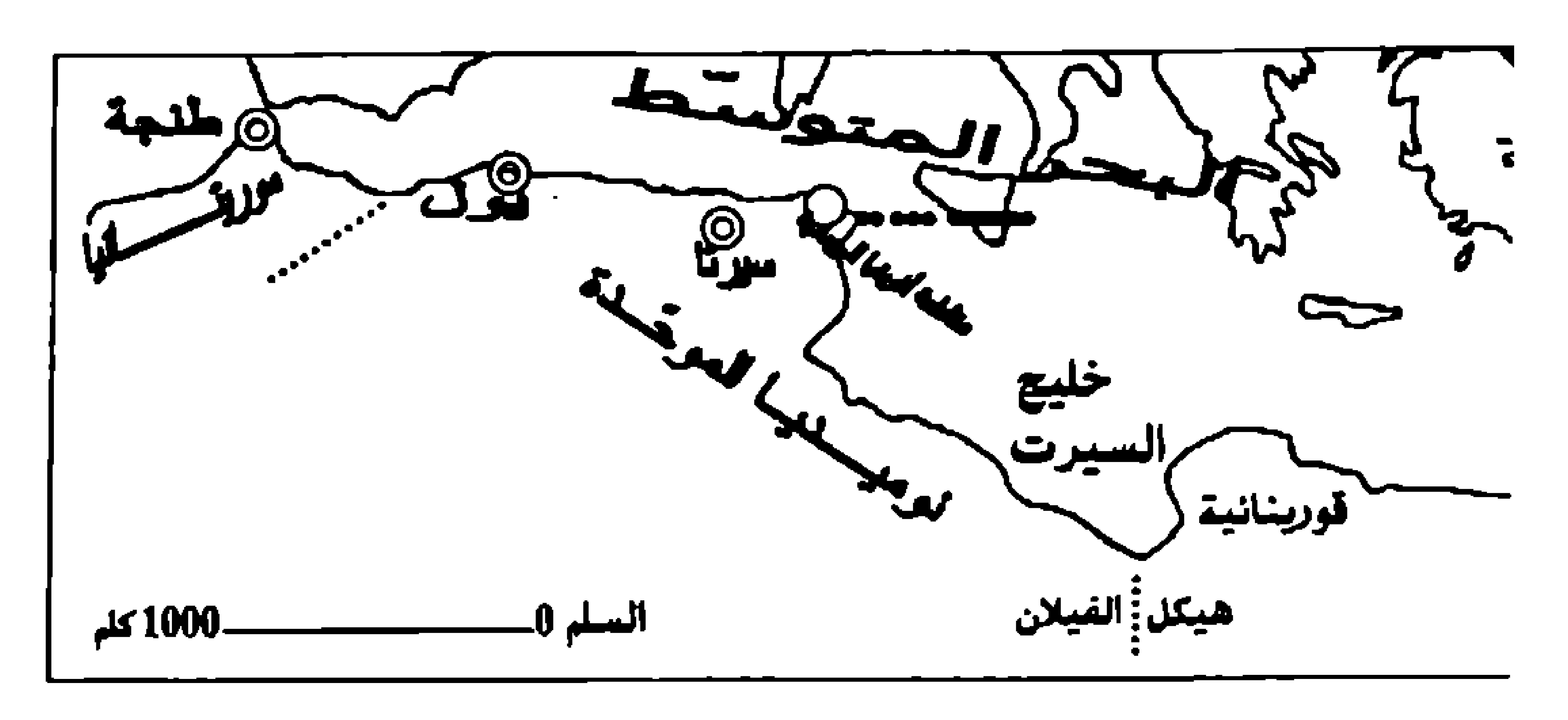


الشكل (15) الملك يوغرطة في الأسر

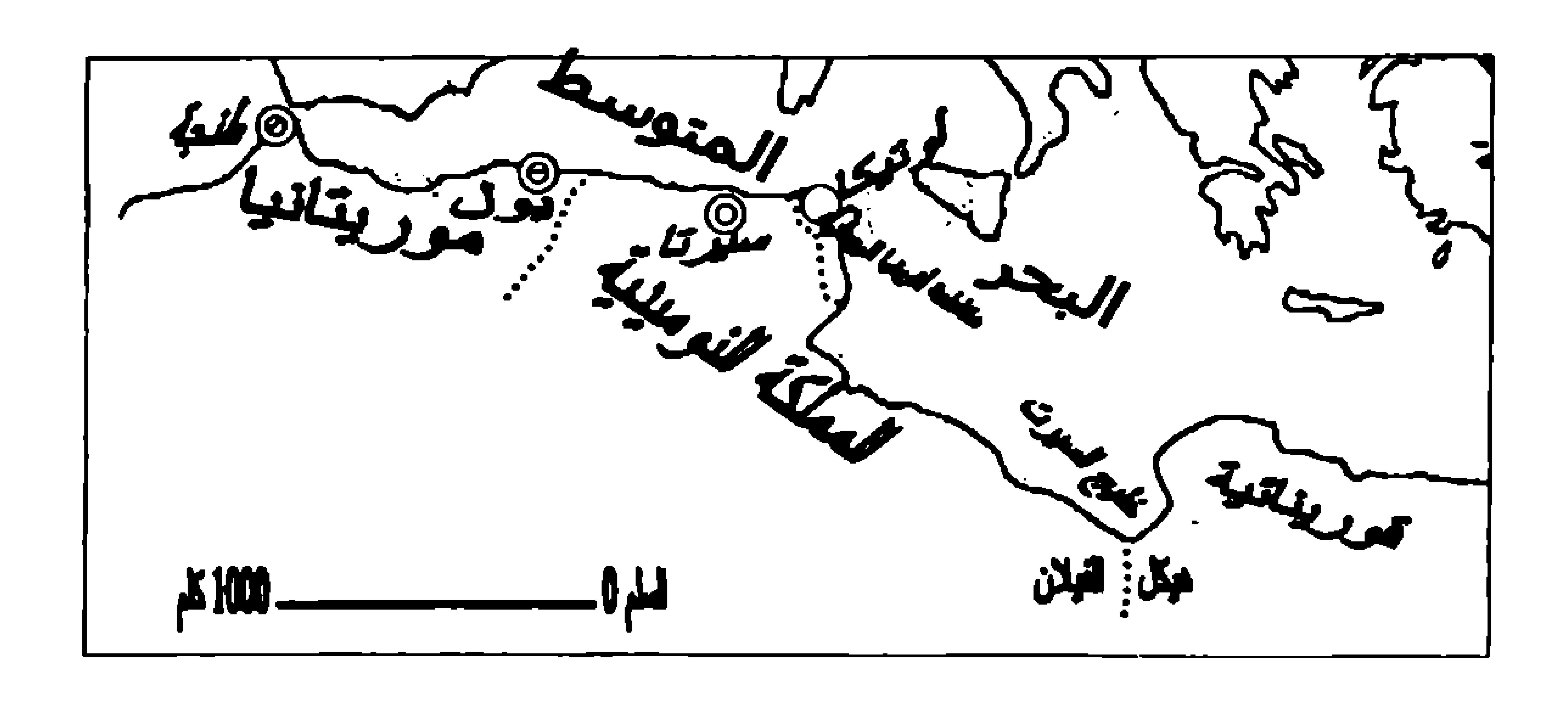


الشكل (16) أهمّ وقائع الحرب الرومانية النوميدية (حرب يوغرطة)





الشكل (17) المملكة النوميدية الموحّدة كما تركها الملك ميكيبسا (توفي سنة 118 ق.م.)



الشكل (18)

الخريطة السياسية لأفريقيا الشمالية القديمة

بعد نهاية الحرب الرومانية النوميدية (112-105 ق.م.)

خاتمة

يتضح مما تقدم أن روما في آخر عهد الجمهورية، شهدت تسارعا كبيرا في الأحداث التاريخية، فقد كان الصراع بين الحزبين الأرستقراطي والشعبي على أشدّه في الداخل، بحيث أدى إلى سلسلة من الحروب الأهلية، وانعكس ذلك الصراع وامتدّ إلى الخارج لأنه انتقل إلى المستعمرات الرومانية والدول التابعة أو المجاورة فأصبحت ميدانا لذلك الصراع، ويلاحظ بأنّ تلك الصراعات التي حصدت الآلاف من الضحايا وجعلت الرعب يخيم على روما، لم تكن كلها سلبية، فقد خدمت الدولة الرومانية في عدة جوانب هامة أبرزها تكوين جيش محترف ومدرب، خاصة بعد فسح المجال أمام العامة للانخراط فيه وظهور ما يمكن أن نسمّيه بديمقراطية الكلام التي ساهمت في تطوير فن الخطابة ومايتّصل به من علوم لغوية وأدبية، وجعل ذلك في خدمة التطاحن الحزبي.

في هذا العصر الذي كانت فيه روما تصنع تاريخها بقوّة، يتحول التاريخ إلى فضاء معرفي واسع تسجل فيه أحداث و«أمجاد» ذلك العصر، ويظهر سالوستيوس كرائد في هذا المجال على «أنقاض» كتاب الحوليات (Annalistes) ومدوّني الأخبار (Chroniqueurs) أي بروز مهتمين بالمادة التاريخية والباحثين في علل الحوادث ونتائجها، وهذا سيؤدي إلى اكتشاف منهجية جديدة وتطويرها، وحقا فإن مؤرخا مثل سالوستيوس رغم مبالغته في تمجيد «أبطاله» والحطّ من شأن خصومه، إلاّ أنه قدم وصفا لملامح عصره، وطوّر وصف هذا الواقع من خلال ملاحظته المباشرة بحيث أن دراسته عن كثب تعلّم بناء الواقعة التاريخية بنفس الطريقة التي يتحرك في إطارها هذا الواقع ذاته، ورغم أن أعماله مكرسة لشجب سياسة الطبقة الأرستقراطية المهيمنة على السيناتوس إلاّ أن الدفاع عن المصالح العليا للشعب الروماني بحسّ رجل مارس السياسة والقيادة يبقى حاضرا في أعماله كلها.

في حرب يوغرطة يندّد بفساد الطبقة الأرستقراطية من جهة، ويشيد ببطولات القادة الرومان وخاصة ماريوس من جهة أخرى، وكان يجانب الموضوعية بحيث يجعل مصالح الرومان كلها مشروعة، وأن يوغرطة متمرد على القانون يجب

التخلص منه، لإحكام القبضة الرومانية على البلاد الأفريقية، وطبيعي أن يفكر كذلك لأنّه بعد أحداث الحرب على يوغرطة -التي دوّنها في كتابه هذا- بما يربو على نصف قرن، سيُكافَأ بتوليته منصب بروقنصل على مقاطعة أفريقيا الجديدة التي عيّنه على رأسها يوليوس قيصر بعد انتصاره في ثابسوس، فاتخذ الابتزاز والقهر منهجا في تسييره لشؤونها.

وفي الأخير ينتهي بنا القول إلى أن حركة تدوين التاريخ في روما كانت تسير جنبا إلى جنب مع التوسع الروماني، تسجل أحداثه وتشيد به، وتلك طريقة أحياها الاستعمار في العصر الحديث كذلك.



ملحق

غايوس كريسبوس سالوستيوس

Caius Crispus SALLUSTIUS

حرب يوغرطة

Bellum Jugurthinum

نقله إلى العربية الدكتور محمّد العربي عقون

"Justum est bellum quibus necessarium; et pia arma quibus nulla, nisi in armi Relinquitur Spes!" *tit - live, lib. IX, cap. X.*

«الحرب عادلة لمن أُرغِم عليها، والأسلحة مقدّسة لمن لم يبق له أمل خارج السلاح!»

تيت- ليف، الكتاب التاسع، الفقرة العاشرة

مقدّمة فلسفية(*)

I- من الخطأ أن يتذمّر الإنسان لكونه من الجنس البشري، وأن يرثي ضعفه وقصر حياته، لأنّ وجوده تتحكّم فيه الصدفة أكثر من الجدارة، إلاّ أنّه لو فكّر مليّا لوجد العكس بحيث لا يضاهيه أيّ شيء آخر في عظمته ومهارته، وسيتحقّق من أنّ الذي ينقصه إنّما هو حسن استخدام قوّته ووقته، والحال أنّ ما يقود ويوجّه حياة الأفراد إنّما هي الروح(1). إنّها تشقّ طريقها نحو المجد سالكة طريق الفضيلة، كما أنّها تمتلك القوّة والمقدرة والعظمة دونما حاجة إلى الثروة، لأنّ هذه الأخيرة لا يمكن أن تمنح الاستقامة والأمانة والطاقة وكلّ الخصال الأخلاقية الحميدة الأخرى لأيّ أحد، على أنّه إذا كان المرء سجين الأهواء والرذيلة، واستغرق في الكسل وأضاع قواه ووقته وفكره في الملذّات الجسدية، والتذّ بعض الوقت بالشهوات الغرائزية المفسدة ورأى أنّه أسرف في الكسل، يقوم باتهام طبيعته البشرية بالضعف، إلاّ أنّ الأصحّ هو أنّ كلّ واحد يقع ضحية الأخطاء والأوضاع التي يكون هو نفسه المسؤول عنها، فإذا كان الرجال ينشدون الفضائل الحقيقية بنفس الحماس الذي يظهرونه أثناء انغماسهم في اتباع الأهواء غير النافعة والخارجة عن طبيعتهم البشرية -وغالبا ما تكون خطيرة ومفسدة- بعيدا عن أن يكونوا تحت طائلة الأحداث، فإنّه يجدر بهم أن يتحكّموا فيها بأنفسهم وأن يسموا إلى درجة عالية تقودهم إلى الخلود رغم طبيعة البشر الفانية.

II- ولأنّ الإنسان مركّب من جسد وروح، فإنّ كلّ أعماله ونزواته إنّما تنبثق من هذه الثنائية: الجسد والروح، وإذا كان الجمال الطبيعي (جمال الجسم) والثروة يضيفان إلى الإنسان قوّة مادّية وأشياء أخرى من هذا القبيل فإنّ ذلك سيذهب في وقت قصير، في حين أنّ إبداعات العقل الباهرة، مثلها مثل الروح تبقى خالدة، والخلاصة أنّ مزايا الجسم والثروة لها نهاية مثلما كانت لها بداية،

(*) العناوين الواردة في نصّ الملحق هي من وضعنا، وقد رصدنا من خلالها أهمّ محاور الكتاب خدمةً للقارئ.

(1) عن هذه المقدّمة أنظر أعلاه ص ص 34-35، ويشترك سالوست في فكرته هذه عن النفس البشرية مع العديد من الكتّاب اللاّتين ومن بينهم سينيك. - Cf Sénèque, De Const. Sap., ch. 5.

فكلّ مولود سيهلك وكلّ من يكبر يشيخ، أمّا الروح فإنّها لا تبلى، إنّها سرمدية، إنّها سيّدة الجنس البشري، تقود الكلّ وتهيمن على الكلّ، دون أن تنقاد لأيّ سلطان عليها، ثمّ هل هناك ما يثير العقل أكثر من غباوة أولئك الأشخاص المستسلمين للملذّات الحسّية، تراهم يقضون حياتهم في البذخ والكسل ويتهاونون في استخدام عقولهم، مع أنّ العقل هو الجزء الأنبل والأجمل في النوع البشري، فيدعون عقولهم في فتور واسترخاء وجهل وبلادة، رغم أنّها الوسيلة المثلى لاكتساب الأمجاد السامية.

III- ومن بين الوسائل التي تكسب الأمجاد الوظائف القضائية والقيادة العسكرية، وباختصار فإنّ النشاط السياسي الموصل إلى تلك الأمجاد، لا يبدو - في رأيي- أنّه مرغوب فيه في عصرنا هذا، لأنّ الأمجاد لا تمنح حسب الجدارة، وحيث أنّ الأفراد الذين اكتسبوها، إنّما اكتسبوها بالغشّ، فإنّهم ليسوا في مأمن ولا حتّى في عزّ أوفر، لأنّ استعمال العنف لحكم الأهالي والوطن يؤدّي إلى الخطر، خاصّة إذا أخذنا في الاعتبار أنّ كلّ الثورات يكون مآلها الموت والنفي والقهر، وعند التصدّي لها تذهب كلّ الجهود سدى، ولن يكون جزاء ذلك سوى الأحقاد والضغائن. إنّ ذلك يمثّل قمّة الجنون، إلاّ إذا كان كلّ ذلك مجرّد مغامرة تنمّ عن رغبة حقيرة ومفسدة للتضحية الحقّة، الغرض منها ارتقاء عدد من الطموحين نحو الشرف والحرّية.

IV- ومن بين الأعمال التي تدخل في دائرة اختصاص الفكر، وهي أكثر نفعا، تدوين الأحداث الماضية، ولقد أفاض آخرون كثيرون في الثناء على هذا الجانب، وحتّى لا أعود إليهم - فلقد كرهت أن يرتابوا في أنّني أرغب عن طريق التفاخر، في نيل مزايا كتابة هذه الدراسة التي أجد لديّ ميلا كبيرا لإنجازها - فإنّني ومنذ أن قرّرت الابتعاد عن السياسة لم يكن هناك من يمكنهم الاضطلاع بمهمّة كبرى كهذه، وبطريقة مسلّية، مثلما فعلت.

V- إنّ غرضي من تدوين أحداث الحرب التي دارت بين الشعب الروماني وملك النوميد يوغرطة (Jugurtha)، إنّما يعود لسببين هما:

أولا – لأنّها كانت قاسية امتزج فيها النصر بالهزيمة مرارا.

ثانيا – لأنّها في الآن نفسه، ولأول مرّة تظهر أثناءها معارضة قويّة ضدّ طغيان النبلاء، فقد قام صراع طالما أربك كلّ الشرائع الإلهية والبشرية ووصل درجة معيّنة من الهيجان لا يمكن معها وضع حدّ للخلاف بين المواطنين إلاّ بالحرب واكتساح إيطاليا.

وقبل الشروع في هذا العمل عليّ أن أعود إلى الوراء قليلا للتذكير بعدّة حوادث تنير الموضوع وتسمح بتفهّم أحسن لتلاحق الأحداث.

الأسرة الملكية النوميدية [الماسيلية]

في خضمّ الحرب البونية الثانية كان القائد القرطاجي هانيبال (Hannibal) قد وجّه أعنف الضربات إلى إيطاليا، وهي ضربات لم تشهد لها إيطاليا مثيلا منذ قيام الدولة الرومانية، وكان ماسينيسا (Masinissa) ملك النوميد قد نال صداقة الرومان بفضل سكيبيو (Scipio) الذي لقّب فيما بعد بالأفريقي لكفاءته وبسالته.

اشتهر ماسينيسا بعدّة انتصارات حربية، ولمكافأته بعد هزيمة القرطاجيين والقبض على حليفهم سيفاكس (Syphax) الذي كانت له بأفريقيا مملكة واسعة وقوية منح الشعب الروماني للملك ماسينيسا كلّ المدن والأقاليم التي فتحها بقوّته[1]، فكان يحتفظ للرومان بصداقة حميمة وإخلاص عميق، إلاّ أنّ إمبراطوريته انتهت بانتهاء حياته،وبعده بفترة انفرد بالحكم ابنه ميكيبسا (Micipsa)، فقد فتك المرض بأخويه مسطانبال[2] (Mastanbal) وغولوسا

---

(1) كيف يفتح ماسينيسا مدنا وأقاليم بقوّته ثمّ يمنحها له الرومان، لا ندري على أيّ أساس اعتمد سالوست في عبارته هذه، لأنّنا لم نعرف عن الرومان أنّهم يمنحون بلادا لآخرين، خاصّة عندما يكون هؤلاء الآخرون هم أصحاب البلاد، ولعلّ طموح ماسينيسا لم يكن يتوقّف عند مجرّد ملك تابع كما يريد سالوست أن يوهمنا، بل إنّه كان يريد أن يجعل من أفريقيا مملكة موحّدة عاصمتها قرطاج ولولا الموت الذي عاجله لعمل على تحقيق طموحه لأنّ سياسته الاستقلالية المستخلصة من شعاره: أفريقيا للأفريقيين تتطلّب ذلك.

(2) وجدنا هذا الإسم مستمرّا في الاستعمال إلى الآن، ولكن بدون «بال أو بعل» وهذا عند التوارق، أنظر:

- Rinn (Louis), Lettres de Touareg , IN R. AF. Anne 1887, pp. 321 - 340.

ففي الرسائل التي أثارت اهتمام إدارة السجن بالجزائر العاصمة أين كان سبعة من التوارق مسجونين،فوجئت تلك الإدارة برسالة جماعية ورسائل فردية كتبها أولئك التوارق إلى ذويهم، وخلال =

(Gulussa))، وكان له ولدان هما آذربال (Adherbal) ويمبسال (Hiempsal) كما كفل يوغرطة ابن أخيه مسطان، موفّرا له الرعاية مثل ولديه تماما، رغم أنّ ماسينيسا كان قد تركه يعيش حياته الخاصّة مغمورا لأنّه ولد من جارية.

VI- كان يوغرطة لدى بلوغه سنّ الفتوّة ذا بنية قويّة، وكان وسيما، يضاف إلى ذلك أنّه كان ذا نباهة وذكاء حادّين، لم يستسلم للمغريات المفسدة، لا التي يحدثها البذخ ولا التي يحدثها الفراغ، إلاّ أنّه وتبعا لتقاليد هذا الشعب مارس الفروسية ورمي الرمح، وبزّ أقرانه في السباق، وحقّق النصر على الجميع، وكان يقضي أغلب أيامه في الصيد، وكان الأول في صيد الأسود والحيوانات الضارية الأخرى، فقد كان الأسرع في تنفيذ خطّة الصيد دائما دون تبجّح أو مباهاة[1]، وكان ميكيبسا في الأول مغتبطا بأن يكون له ابن أخ كهذا، على أساس أنّ بسالة يوغرطة تشرّف دولته إلاّ أنّه واعتبارا لتقدّمه في السنّ، وصغر سنّ ولديه وشهرة الفتى اليافع يوغرطة التي تزداد انتشارا تملّكته واستبدّت به الهموم، فلم يتوقّف عن التأمّل فيها، وكان لديه أكثر من سبب لتزداد تلك الهموم، وأولها أن طبيعة الإنسان تجعله دائما طموحا إلى السلطة، فيعمل دون هوادة لتحقيق هذه الرغبة، ثمّ إنّ سنّه وسنّ ولديه يمثّل فرصة يمكن أن تغري وتشغل بال حتّى أولئك الذين لا يملكون طموحا كبيرا، وهذا من خلال المغنم الذي يكمن وراء ذلك، والخلاصة أنّ تعلّق النوميد الكبير بيوغرطة هو الذي جعله يخشى قيام حرب أهلية أو تمرّد أو حتّى اغتياله لشخص كهذا.

= مراقبة إدارة السجن لها استغربت هذه الكتابة التي لم يسبق لها أن عرفتها ولذلك عرضتها على المختصّين ومن هنا جاء اهتمام لويس رينّ بها وهو المختصّ في قراءة نصوص التيفيناغ والباحث في إثنولوجيا البرابر،وهؤلاء السبعة هم: كنّون وأمومن ومسطان وطاشا من قبيلة تابتوق، وشيكّاط وأقّور من قبيلة كال - أهنات، وسابعهم هو عبد السلام بن الحاجّ غادي من قبيلة الشعانبة، والمهمّ في هذه الرسالة هو اسم مسطان الذي استمرّ متداولا عبر العصور إلى هذا الوقت.

(1) هنا يطلق سالوست العنان في مدح يوغرطة وإبراز شجاعته وخصاله الحميدة، إلاّ أنّ هذا سيزول تماما في الفقرات القادمة، عندما يتحدّث عنه كقائد وملك يدافع عن استقلال بلاده ضدّ الغزو الروماني الذي جاء من وراء البحر لفرض سيطرته على الشعب النوميدي.

VII- وفي صراعه مع تلك المصاعب رأى ميكيبسا أنّه من غير الممكن قتل رجل له مثل هذه الشعبية لا بالقوّة ولا بالمكيدة، وهو يعرف شجاعة يوغرطة وتعلّقه بالأمجاد العسكرية النبيلة، فوطّد العزم على أن يرمي به في أتون الحرب وأن يجرّب حظّه بهذه الوسيلة، وعند قيام حرب نومنتيا[1] (Numantia) أرسل ميكيبسا إلى الشعب الروماني نجدات من الخيالة والمشاة، على أمل أن يقع يوغرطة دون ريب ضحية إقدامه أو ضحية اندفاع العدو، فقد عهد إليه بقيادة النوميد الذين توجّه بهم نحو إسبانيا غير أنّ الأحداث أبطلت حساباته، فقد أعجب سكيبيو وكان قائد الجيش الروماني حينئذ، بنشاط يوغرطة وفكره الثاقب وحسن خططه، ومن فرط ما أبداه من العمل والحماس والانقياد، والاستهانة بالمخاطر اكتسب بسرعة شهرة كبيرة، بحيث أصبح معبود الرومان ومصدر رعب للنومنتيين، والواقع أنّه جمع بين صفتين قلّ أن تجتمعا في شخص واحد وهما: البسالة في المعركة والحكمة في الرأي، فتحوّلت هذه إلى تروّي وحذر والأخرى إلى جرأة إلى حدّ المجازفة، ولذلك كان القائد يعهد إليه دائما بالمهمّات الصعبة، وكان يعدّه من بين أصدقائه، ويزيد في إكرامه كلّ يوم، فأصبح في سعادة تبدو في الظاهر أكثر ممّا هي في الباطن، وقد أضاف إلى هذه الخصال الكرم والنباهة والذكاء، وذلك ماجعله يكتسب صداقات حميمة وجديدة بين الرومان.

فساد الطبقة الأرستقراطية الرومانية

VIII- كان في عداد الجيش الروماني آنذاك رجال حديثو نعمة ونبلاء ممّن يؤثرون الثراء على الشهرة والشرف اندمجوا في مجتمع روما وتعاظم شأنهم لدى الحلفاء، وكان صيتهم أكثر من شرفهم وهو ما ألهب طموح يوغرطة المتّقد لقوّة الوعود التي تلقّاها في أن يصبح الملك الأوحد للمملكة النوميدية في حال وفاة الملك ميكيبسا، فلشخصيته مكانة سامية، وما عدا ذلك فإنّ كلّ شيء يباع في روما، إلاّ أنّه عند سقوط نومنتيا قرّر سكيبيو تسريح الفرق المساعدة، وقرّر كذلك

(1) مدينة إسبانية، قرب منابع نهر دورو، استولى عليها الرومان بقيادة سكيبيو الإيميلي، وساعده في ذلك يوغرطة على رأس جيش نوميدي [134-133 ق.م.]، يتكوّن من الفرسان والرماة و12 فيلا.

أن يسلك بنفسه طريق العودة بعد أن كافأ يوغرطة وامتدحه امتداحا رائعا أمام الجنود المتجمّعين، كما اصطحبه إلى خيمته وانحاز به إلى ركن حيث حاوره ونصحه بأن يزرع صداقة الشعب الروماني في إطار أعمال عامّة بدلا من علاقات خاصّة، وأن يكفّ عن منح الهبات بسخاء للأشراف، فمن الخطأ أن يشتري المرء من بعض الأشخاص أشياء تخصّ الجميع، وأنّه إذا احتفظ بسيرته الحسنة فإنّ المجد والعرش سيؤولان إليه عفويا، أمّا إذا أراد القفز على الحواجز للوصول بسرعة، فإنّ أمواله ذاتها ستقوده إلى الدمار.

بروز شخصية يوغرطة في حرب نومنتيا

IX– وقد حمّله رسالة إلى ميكيبسا ومنحه عطلة، وها هو مضمون الرسالة: «لقد برز عزيزكم يوغرطة في حرب نومنتيا بطلا باسلا لا نظير له، وبكلّ تأكيد فإنّ هذا شيء يسرّكم، فلقد جعلته جدارته عزيزا، ونحن نعمل جهدنا ليقاسمنا مجلس الشيوخ والشعب الروماني هذه العواطف، أمّا في ما يخصّكم فإنّني أهنئكم باسم صداقتنا فلديكم هنا رجل شرّفكم أنتم وجدّه ماسينيسا».

ومن خلال رسالة القائد بدا أنّ ميكيبسا قد تأكّد ممّا سبق وأن روّجه الرأي العامّ، وزيادة على ذلك فقد بدا متأثّرا بشجاعة وإخلاص ابن أخيه، فغيّر عواطفه نحوه وسعى في أن يرضي يوغرطة من خلال إغداق النعم عليه فأعلن تبنّيه إياه في الحال، وأقرّه وليا للعهد بواسطة وصية على قدم المساواة مع ولديه، وبعد سنوات قليلة وكان سنّه قد تقدّم واستبدّ به المرض رأى أنّ نهايته قريبة فاستدعى أصدقاءه وذويه وولديه: آذربال ويمبسال وأمام هذا الجمع وجّه إلى يوغرطة خطابا جاء في محتواه[1]:

---

(1) كان تبنّي ميكيبسا لابن أخيه يوغرطة قبل وفاته بثلاث سنوات [توفي ميكيبسا في 118 ق.م.]، حسب هذا النصّ السالوستي الذي بين أيدينا وعليه فإنّ التبنّي يكون قد تمّ سنة 121 ق.م.، أمّا حصار نومنتيا فكان في 133 ق.م.، والملاحظ أنّ المدّة الفاصلة بين نهاية حرب نومنتيا وإعلان التبنّي طويلة [حولي 12 سنة] فما هي الظروف التي عطّلت تنفيذ هذا التبنّي، وما هي الأوضاع التي كان يعيشها العرش النوميدي خلال هذه الفترة.

وصية الملك ميكيبسا:

X– «يا يوغرطة لقد كنت صبيا دون أب، دون آمال ودون ثروة، عندما دعوتك لأن تكون وريث تاجي. إن هذه المبرّات تدلّ على محبّتي إياك تماما مثل ولديّ، وإذا قدّر لي أن أندم على ذلك في وقت لاحق فإنّني لم أخدع الآن، وهذا عدا الكلام عن مآثرك وانتصاراتك، فها أنت تعود من نومنتيا لتغمرنا بالمجد أنا ومملكتي، ومن خلال مناقبك، فإنّك تدعّم أواصر الصداقة التي يكنّها الرومان لنا في إسبانيا من جديد، والخلاصة أنّ أمجادك انتصرت رغم الضغائن وذلك شيء صعب قلّ أن يحقّقه رجل، والآن ها هي الطبيعة تضع النهاية لوجودي، أقسم بهذه اليد الممدودة وبحقّ ثقتا ويقيننا بالمملكة، أترجّاك وأتوسّل إليك أن تبرّ وتودّ هذين الولدين: ابني عمّك بقرابة الدم وأخويك من خلال النعم التي أسبغتها عليك، أترجّاك ألاّ تبعد أقاربك الذين تجمعك بهم روابط الدم وتضمّ إليك الأغراب، فأقاربك هم الحراس الحقيقيون للعرش، والصداقة والأصدقاء لا يمكن الحصول عليهما لا بالمال ولا بالسلاح، ولكن بتبادل المصالح وبالإخلاص، ثمّ أيّهما أفضل الصديق أم الأخ، وأيّ غريب يمكن أن يكون وفيا إذا كان لك أعداء من ذويه، وبالنسبة إليّ ها أنذا أعهد إليكم بعرش متين وسيبقى كذلك طالما أنّ قيادتكم رشيدة، أمّا إذا أسأتم الحكم فسيتزعزع لأنّ الوفاق يشدّ أزر الدول الصغيرة والاضطراب يدمّر حتّى الدول الكبرى[1]. أمّا أنت يا يوغرطة فأنت أكبر إخوتك سنّا وأكثرهم مقدرة لأن تجعل الأمور تسير جيّدا لأنّه مهما كان النزاع أقوى وأشدّ فإنّ المرء الذي يسمو على ذلك ويجعل الأمر لصالح الوفاق دائما، يكون في مأمن من كلّ الأرزاء، أمّا أنتما يا أذربال ويا يمبسال فامنحا احترامكما وإجلالكما لرجل كهذا، وتحلّيا بشجاعته وخصاله، ومن خلال فضائلكما اجتنبا القول بأنّني آثرت ابني بالتبنّي عن ولديّ من صلبي[2]».

---

(1) العبارة اللاتينية هي:

...am concordia parvae res crescunt, discordia maxumae dilabuntur.

(2) يقوم أسلوب سالوست على الإيحاء بحيث يمهّد لحوادث يريد ترسيخها بأفكار وأحكام مسبقة تجعل القارئ في ما بعد يقبل ما يسرده من «وقائع»، فهذا الخطاب الذي كتبه على لسان ميكيسا يستخلص =

وفاة الملك ميكيبسا وبداية الصراع بين ورثته:

XI- لم يكن لهذا الخطاب وقع حسن، فيوغرطة أدرك مراميه وأهدافه، ومع ذلك فإنّه كان يفكّر بخلافه تماما، وكان ردّه يتّسم بالاحترام والاعتبار مثلما تقتضي الظروف، وبعد ذلك بأيّام توفّي ميكيبسا، وأقيم له حفل جنائزي جرى في أبّهة وحفاوة كبيرة تليق بقائد أمّة وعند الانتهاء من ذلك، اجتمع الملوك الشباب للمداولة في شأن كلّ قضايا المملكة إلاّ أنّ يمبسال وهو أصغرهم - وكان مستعليا، يحتقر يوغرطة منذ أمد بعيد، لنسبه من جهة أمّه - اتّخذ مكان جلوسه إلى يمين أذربال حتّى يمنع يوغرطة من أن يشغل صدر المجلس الذي يعتبر مكان تبجيل وتشريف لدى النوميد، ومع ذلك فإنّه بناء على توجيهات أخيه الذي دعاه إلى أن يحترم السنّ، امتثل وأفسح المجال منسحبا إلى الجانب الآخر، ولكن على مضض، وخلال المحادثات المطوّلة التي دارت حول إدارة المملكة، كان من بين مقترحات يوغرطة إلغاء كلّ القرارات والأوامر التي صدرت في الخمس سنوات الأخيرة، وهي الفترة التي كان فيها ميكيبسا قد وهن واستبدّ به الكبر، ولم تكن لديه كلّ القوى الكافية، فكان ردّ يمبسال أنّه يشاطر هذا الرأي لأنّه خلال السنوات الثلاث الأخيرة [من حكم ميكيبسا] أصبح يوغرطة شريكا في العرش بفعل تبنّيه.

أحدث ذلك الكلام جرحا عميقا في قلب يوغرطة وأثار فيه مخاوف كبيرة، وكان منذ تلك اللحظة قد أضناه الجزع والحنق، وأصبحت هذه القضية شغله

= منه احتمال حدوث النزاع بين ولديه من صلبه وابنه بالتبنّي، وعندما يسجّل فيما بعد النزاع الذي حدث فعلا يقدّم النزاع في الصورة التي يريد أن يرسّخها عن النوميد المنقسمين المتصارعين، والرومان ذوي القوّة والبأس والحكمة، ومجلس الشيوخ والقادة العسكريين...، ولا يتطرّق إلى ما كان يحيكه الرومان من دسائس لتوسيع الهوّة بين الملوك النوميد وزرع بذور التفرقة بينهم وعن دور الجالية التجارية الرومانية في سيرتا. والأرجح أنّ يوغرطة بذكائه وروحه الاستقلالية التي تعرّف عليها الرومان منذ حرب نومنتيا كان يمثّل خطرا على المصالح الرومانية في المنطقة، ولا يمكن الاطمئنان لرجل بتلك الكفاءة، ولعلّ إرجاء مسألة تبنّي عمّه له كانت بضغط من الرومان، وترسيخ فكرة الاستعلاء من قبل يمبسال على يوغرطة - لأنّه ابن جارية - كانت بوحي من الرومان أيضا.

(1) لعلّها ثيميدا (Thimida) الواقعة غير بعيد عن عن دقّة (Thugga)، راجع:

- Gsell (S), H.A.A.N. ,T. VIII, p. 143.

الوحيد، وأخذ يدبّر ويضع الخطط للتخلّص من يمبسال بالحيلة أو المكيدة إلاّ أنّ خططه تلك لم توصله إلى مبتغاه بالسرعة الكافية، فازدادت أحقاده وقرّر أن ينهي هذه المسألة مهما كان الثمن.

مصرع يمبسال واستنجاد آذربال بالرومان:

XII- في الاجتماع الأول الذي عقده الملوك الشباب، والذي أفضت في الحديث عنه آنفا، قرّر [الملوك] لعدم تمكّنهم من التفاهم، توزيع السلطات واقتسام كنوز ميكيبسا، وتحديد الإقليم الذي سيحكمه كلّ واحد منهم،ثمّ شرعوا في تنفيذ ذلك، وأوله اقتسام الأموال، ولهذا الغرض انسحبوا كلّ إلى موقع مجاور للكنز، واتفق أنّ يمبسال كان قد استقرّ في ثيرميدا[1] (Thirmida) في منزل الحارس الرئيسي ليوغرطة، وهو شخص ظلّ ينعم دائما بالحظوة لدى الأمير، وقد استغلّ يوغرطة هذه الفرصة، وأقنع الحارس بالدخول إلى منزل يمبسال متذرّعا بأيّ حجّة، وصنع مفاتيح مماثلة للمفاتيح الأصلية للأبواب، لأنّ المفاتيح الأصلية كانت تسلّم كلّ مساء إلى يمبسال، وكانت خطّة يوغرطة هي أن يأتي في الوقت المناسب ومعه فرق قوية، للتخلّص من يمبسال.

نفّذ الحارس الأوامر بسرعة، وتبعا للتعليمات فإنّه أدخل جنود يوغرطة ليلا، واقتحم هؤلاء المنزل الذي يقيم فيه يمبسال، وقتلوا حرّاسه فقد كان بعضهم نائما والبعض الآخر امتثل لأوامر جنود يوغرطة وتمّ تفتيش المكان وتحطيم المزالج، ممّا أدّى إلى حدوث فوضى، وأخيرا اكتشفوا مكان وجود يمبسال الذي كان يختبئ في حجرة أحد العبيد، لأنّ الرعب والاقتحام المفاجئ جعلاه يلتجئ أولا إلى هناك، وعند الإمساك به نفّذوا فيه التعليمات التي تلقّوها، وسلّموا رأسه إلى يوغرطة.

XIII- ما لبثت أخبار هذه الحادثة أن انتشرت في كلّ أنحاء أفريقيا، وشاع فوق ذلك أنّ أذربال وكلّ رعايا ميكيبسا معرّضين للإرهاب، فانقسم النوميد إلى قسمين، والتفّ العدد الكبير منهم حول أذربال، لكن الأشدّاء وقفوا إلى جانب يوغرطة الذي جنّد أكثر الفيالق قدر استطاعته فأصبح سيّد المدن طوعا أو كرها،

واستعدّ للانفراد بحكم نوميديا، أمّا أذربال فقد أرسل إلى روما وفدا لإعلام مجلس الشيوخ بموت أخيه والوضعية التي يعيشها وأنّه قويّ بالمال والجند ويستعدّ للمقاومة بقوّة السلاح، إلاّ أنّه فرّ من الميدان منهزما أمام أول هجوم، والتجأ إلى المقاطعة الرومانية في أفريقيا ومن هناك ذهب إلى روما.

أصبح يوغرطة بعد انتصاره سيّد كلّ نوميديا، ففكّر مليا فيما سيتّخذ من قرارات لحفظ الأمن، وكان مرتابا في الشعب الروماني ولكي يرضي غضبه وجد أنّ الأمل يكمن في النبلاء وفي المال، فأرسل إلى روما وفدا محمّلا بالذهب والفضّة، وكان قد أصدر إليهم الأمر بأن يسبغوا نعمه على أصدقائه القدامى أولا لكسبهم من جديد، وباختصار جعل بذل المال بسخاء سبيلا لنيل رضى النافذين في روما، وعند وصول وفده إلى روما سلكت الهبات طريقها إلى أعضاء مجلس الشيوخ الأكثر نفوذا، وفعلت فعلتها في المجلس، وسرعان ما تحوّلت النقمة ضدّ يوغرطة إلى مشاعر صداقة ورضى بعد إغواء هؤلاء بالمال وأولئك بالوعود، وقاموا بمساعيهم حتّى لا يصدر المجلس قرارات قاسية ضدّ وليّ نعمتهم، وحينئذ تأكّد ممثّلو يوغرطة من نجاح مهمّتهم وتمّ تحديد اليوم الذي سيجتمع فيه مجلس الشيوخ للنظر في المسألة النوميدية والاستماع إلى طرفي النزاع، ولدى انعقاد الجلسة ألقى أذربال الخطاب الآتي:

خطاب آذربال في مجلس الشيوخ الروماني[1]

XIV- **حضرات الشيوخ**، عندما أحس والدي ميكيبسا بدنو أجله، كان قد عيّنني، معتبرا إياي حاكما وحيدا للملكة النوميدية، حيث أنتم الحكام الشرعيون والسادة الحقيقيون، وألحّ عليّ كذلك أن أقدم أقصى الخدمات الممكنة للشعب الروماني، في السلم مثلما هو في الحرب وأن أعتبركم أهلا بالتحالف أو بالدم، وبهذا أضحت صداقتكم بالنسبة لي سلاحا وثروة وسندا آخر للعرش، إنني أطبق

---

(1) لا ندري بأيّ لغة ألقى آذربال خطابه، ومن المرجّح أن يكون باللاّتينية، مع أنّ سالوست لم يشر إلى ذلك، والأكيد أنّ اللغة اللاتينية منذ توطيد علاقة الأسرة الملكية الماسيلية بروما تكون قد نالت مكانة خاصّة في البلاط الملكي النوميدي.

بأمانة هذه الوصايا الأبوية، في حين يستهين يوغرطة بسلطتكم لأنه الأكثر غدرا بين الرجال، ولم تعرف له الأرض شبيها، لقد جردني من مملكتي وكل أملاكي، أنا حفيد ماسينيسا، أنا حليف الرومان وصديق الشعب الروماني أبا عن جد، ومن ثم فإنه من الواجب -وقد وصلت الأمور إلى هذا الحد من سوء الأحوال- أن أطلب منكم النجدة التماسا لمعونة أستردّ بها حقوقي الشخصية، فضلا عن أنها حقوق أسلافي. إنني أريد استرداد حقوقي بالاعتماد على الشعب الروماني خاصة، وإذا طلب مني الإقرار بأن ذلك دين فإنني سأتقبل طالما أن الشرعية وحدها لا توفر الحماية الكافية إن الأمر لا يتعلق بي، بل إن يوغرطة هو الذي جعلني آتي إليكم صاغرا على هذا النحو لأكون حملا ثقيلا عليكم، عوض أن أكون نفعا لكم، فليكن موقفكم كما هو معهود إزاء الملوك الآخرين من الذين جعلتموهم في عداد أصدقائكم بعد هزيمتهم في حرب أو بالأحرى من الذين التمسوا التحالف معكم ساعة الخطر، فلقد كانت عائلتنا صديقة للشعب الروماني طيلة حرب قرطاج، في وقت لم تكن تبخل فيه لا بثروتها ولا بوعودها الموفية بقدر ما استطاعت.

حضرات الشيوخ: لا يأخذنّكم البأس، فها هو ذا سليل تلك العائلة الذي هو حفيد ماسينيسا، يقف في آخر المطاف طالبا نجدتكم، إنه ليس لديّ شعار آخر أحمله سوى حظي الذي يرثى له، أنا الذي كنت بالأمس ملكا قويا بثروتي ومكانتي وعراقتي، واليوم هاهي النوائب تنال مني فجعلتني آيلا إلى الفاقة، لا أرجو أكثر من نجدة أجنبية، فلتكن هذه النجدة من بين مبرّات الرومان لإحباط الظلم، ولكي لا يُترَك ملك، كائنا من كان، يطغى بالجريمة.

إن المملكة التي طُردت منها هي التي منحها الشعب الروماني لأجدادي[1]، إنها تلك التي طَرد منها أبي وجدّي بمساعدتكم سيفاكس والقرطاجيين، إنها مبراتكم يا مجلس الشيوخ، واليوم واحسرتاه، حلّت بي الإهانة وقهرني عدوي

(1) يريد سالوست هنا أن يجعل المملكة النوميدية على لسان أذربال هبة من الرومان للعائلة المالكة الماسيلية لترسيخ فكرة الوصاية الرومانية على المملكة ومن ثمّ حقّ التدخُل....

بمكره، فتبًا لي، أيا أبتاه ميكيبسا، هل هذه ثمرة مبرّاتك، أم أنك أردت الخراب لسلالتك فجعلت منه[1] شريكا في العرش لأبنائك ومساويا لهم في الحكم، وإذا كان الأمر كذلك فإن عائلتنا لن تعرف الاطمئنان وستعيش دائما في الدماء وفي الحروب وفي المنفى، ومثلما عانينا من الشرور بوجود القرطاجيين إلى جوارنا، فقد كان من الطبيعي أن نواجههم وآمالنا معلقة على خوضنا المعركة، ومع أنكم أنتم أصدقاؤنا كنتم بعيدين عنا، فإننا كنا متأكدين من أنه عندما سيزول ذلك الشر من أفريقيا سنعيش سعداء آمنين، إذ لم يكن لنا عدو سوى أولئك الذين بإمكانكم إصدار تعليمات إلينا بشأنهم، لكن هاهو ذا يوغرطة يندفع متجرئا بالإجرام والطغيان تجرُّؤًا لا يطاق، لقد اغتال أخي يمبسال وهو وليه الأقرب، واستولى على مملكته كغنيمة حرب بعد ذلك الاغتيال، ثم انظروا: إنه أراد الإيقاع بي في نفس الكمين ولم يستطع بفضل حمايتكم لي، إنني لا أفهم منه شيئا سوى أنه يريد العنف والحرب، لقد أجبرني كما ترون على الفرار بعيدا عن وطني وعن عاصمة ملك آبائي مجردا من ثروتي أسيرا للمصائب، وبسببه لا أكاد أجد مكانا في كل مملكتي يمكن أن آمن فيه على نفسي.

حضرات الشيوخ: أعتقد أنني لو أمتلك القدرة على إسماع أبي لقلت له: إن أولئك الذين زرعوا صداقتكم بإخلاص وهم أنتم، هاهم يتحملون مهمة ثقيلة وهم بمنأى عن كل طغيان من أي كان، إن عائلتنا التي طالما تعلقت بكم إنما يعود استمرارها في الوجود إليكم فلقد كانت في جميع الحروب إلى جانبكم.

حضرات الشيوخ: هاهو الأمر في أيديكم ونحن في سلم وأمان طالما ضمنتم لنا ذلك، لقد ترك أبونا ولدين: يمبسال وأنا، وكان قد تبنى ثالثا هو: يوغرطة، على أمل أن يخْلص لنا من خلال المبرات التي أسبغها عليه، واليوم أين أنا من أخويّ، لقد قتل أحدهما، وأنا فارّ من الآخر لأنجو بنفسي خوفا من عقابه الوحشي، فما العمل، ولمن ألتجئ أمام هذا الحظ التعس، حيث لا أثر لأي معونة

(1) يقصد يوغرطة.

من قبل أهلي، إن أبي - بناء على القانون الذي لا يمكن أن تُتَلافى تبعاته - دفع ضريبته للطبيعة، وأخي، وابن عمي تحدى أحدهما الآخر، وهذا الأخير انتزع الحياة من قريبه الشقيق بكل بشاعة وإجرام، لقد أخفق الحلفاء والأصدقاء وباقي الأقرباء على السواء أمام الضربات المتوالية ليوغرطة ولقوا مصيرهم على يديه، فقد أصلى بعضهم نار الموت ورمى بالبعض الآخر إلى الوحوش، والقليل من بين الذين نجوا بأرواحهم ألقى بهم في غياهب السجون، يعانون العذاب والألم في وضعية أقسى من الموت، وإذا كنت قد نجوت بعد أن ضاعت مني عدة نجدات وكل ما يحيط بي من سند طبيعي، فلأنني أمام انقضاض خاطف وغير متوقع لمصيبة مباغتة، لم أتوسّل لغيركم ولا أزال!.

حضرات الشيوخ: إنني لا أزال أتوسل إليكم، أنتم بسموّ إمبراطوريتكم التي تعمل على إرساء الحق ومحو الظلم، إنني مطرود من وطني ومن سكني فإلى أين أتوجه، هل أتوجه إلى الشعوب أم إلى الملوك، إن هؤلاء الأخيرين[1] تجعلهم صداقتنا لكم أعداء لنا دون استثناء، إن النبل هو الذي جعلني أتوجه إليكم،وهل تقوى قدماي على حملي إلى غيركم دون أن استحضر ذكريات لا تعد ولا تحصى من الكفاح المدعوم من قبل أجدادي للرومان، فمن هو الشعب الذي يمكن أن يرأف بنا في هذا العالم غيركم، والخلاصة، حضرات الشيوخ، أن ماسينيسا قد أنشأنا على المبادئ الآتية: ألاّ ننمّي صداقة مع أي شعب كان سوى الشعب الروماني، وألاّ نقبل تحالفا ولا معاهدات جديدة، فصداقتكم تضمن لنا كل العون الذي نحتاجه، إذا لم يغيّر القدر دعمه لإمبراطوريتكم، سيسقط الظلم أمامكم بفضل شجاعتكم وكرامة الآلهة فأنتم عظماء وأشدّاء، والكل يجعلكم تفوزون والكل مذعن لكم، وتستطيعون الانتقام للإهانات التي يتعرض لها حلفاؤكم بسهولة.

---

(1) يقصد الأمراء والملوك من الأسرة النوميدية «يوغرطة وأنصاره» بالذات، وهذا دليل على أن الاستنجاد بالرومان كان قرارا فرديا اتخذه آذربال لوحده دون موافقة ذوي النفوذ في مملكته.

إنني لا أخشى إلاّ من شيء واحد فقط وهو أن البعض منكم قد تغويه «الصداقة الخاصّة»[1] - وهو خطأ ينبغي كشفه - فيبلّغ ليوغرطة ما صرحت به لكم، ويظهر له كل إمكانياتكم، إن هؤلاء سيلجأون إلى فضح كل واحد منكم وإزعاجه، متوسلين إليكم ألاّ تقرروا شيئا في غياب المتهم دون أن تسمعوا إليه، وفي زعمهم أن تهمي له وهمية ومنفاي مصطنع، وأنه يمكن أن أبقى في مملكتي وفي أمان.

حضرات الشيوخ: كيف يمكن أن تقع عيني على الذي ارتكب الجريمة الفظيعة، وهو لن يتوانى في الإيقاع بي في مصيبة مماثلة، ومع ذلك فلعل السماء ستصفو ذات يوم ولا ريب، سواء عندكم أو لدى الآلهة الخالدة، إنّ الآلام تولد من الأعمال البشرية، فإذا كان هذا المجرم اليوم فخورا ومزهوا بجرائمه فإنه سوف يصاب بثقل الكفارة، وسوف تعاقبه الآلهة بكل الشرور بسبب عقوقه لأبينا وقتله لأخي، وهذه المصائب التي أجد نفسي وقد قيّدني بها.

إي إخوتي وأصدقائي الأعزاء، إنه الفرار، إنه المنفى والإملاق، وأنا منكوب الحظ، مُبْعَد عن عرش آبائي في بحر من النكبات، وفي هذا المشهد، لا أملك إلا أن أقول لو استطعت الانتقام لفعلت، إلا أنني كلما بحثت عن نجدة لي أو للدفاع عن تاجي أجد أن قرار الحياة أو الموت بين أيدي الآخرين، إنني أدعو الآلهة أن تنهي حياتي نهاية مشرفة أفضل من هذه النكبة، وأن لاتتركني مهانا أسير النوائب مستسلما للظلم والجور فها أنَذَا اليوم لا أستطيع أن أمتلك الحياة ولا حق الموت بشرف!.

حضرات الشيوخ: أستحلفكم بشرفكم وبأولادكم وأهليكم وبسموّ الشعب الروماني أن تنجدوني في محنتي هذه، وأن تعملوا ضدّ الجور بلا تردُّد فعرش نوميديا موالٍ لكم!.

---

(1) لا يترك سالوستيوس أي فرصة تمر دون التلميح إلى فساد الطبقة الأرستقراطية من أعضاء مجلس الشيوخ، وفي عبارة: الصداقة الخاصة، إشارة إلى أن يوغرطة قد يستميل إليه بعض الشيوخ بالأموال، فيتحصل منهم على المعلومات بل قد يستعملون نفوذهم لصالحه مقابل ما تحصلوا عليه من أموال.

مداولات مجلس الشيوخ في الشأن النوميدي:

XV- حين انتهى الملك من خطابه، ردّ وفد يوغرطة وهم واثقون في مفعول سخائهم أكثر من عدالة قضيتهم، ردّوا باختصار: «إنّ يمبسال قتل من قبل الشعب النوميدي عقابا له على طغيانه، أمّا أذربال فهو المعتدي في هذه الحرب، وهو لوحده الذي جاء مقدّما شكواه بعد هزيمته وفشله في محاولته الإجرامية، إنّ يوغرطة يطلب من مجلس الشيوخ عدم الاعتقاد بأنّه أصبح مختلفا عمّا كان عليه في نومنتيا، وأن يحكم عليه من خلال أعماله لا من خلال ما يقوله عدوّه.»

وبعد ذلك خرج الفريقان من مقرّ مجلس الشيوخ، بينما بقي الشيوخ للتشاور في الموضوع في الحال، وكان أنصار وفد يوغرطة يمثّلون القسم الأكبر من أعضاء المجلس وكان نفوذهم قويا، وكلّهم مرتشون، فأظهروا استخفافا بخطاب أذربال، وقرّروا أنّ الحقّ إلى جانب يوغرطة، وباختصار فإنّهم وضعوا رهن العمل كلّ الوسائل الممكنة من فصاحة ومصداقية، للدفاع عن جرم وفظائع الآخر، معتبرين ذلك من المبرّات الخالصة، غير أنّ رجالا آخرين أقلّ ولعا بالمال ومتمسّكين بقيم الشرف والعدل، أعربوا عن إرادتهم في نجدة أذربال والانتقام بشدّة لمقتل يمبسال، وكان أكثرهم تصلّبا السيّد: إيمليوس سكاوروس، وهو شخصية نبيلة وكان منذ صغره ذا دهاء، جادّا وطموحا إلى السلطة والجاه والثراء،كما أنّه كان ماهرا في إخفاء أطماعه والتحكّم فيها، فقد لاحظ التعاليق المثيرة بسبب تلك التوزيعات الصفيقة للمال، فأوقف جشعه التقليدي خشية انفجار الأحقاد التي تترتّب عنها تبعات مخزية.

XVI - في مجلس الشيوخ - رغم أن الوضع يتّجه نحو الحرب من جديد - إلاّ أنّ الأغلبية فيه آثروا المال والنفوذ على قول الحقيقة، وعليه فقد تقرّر أن يشرف عشرة أعضاء على اقتسام مملكة ميكيبسا القديمة بين يوغرطة وأذربال، وعيّن على رأس هؤلاء ل.أوبيميوس (L. Opimius) وهو شخصية لامعة، ومتنفّذ في مجلس الشيوخ، طيلة تولّيه القنصلية واستغلّ استغلالا فاحشا انتصار الطبقة النبيلة على العامّة على إثر مقتل فولويوس فلاكوس (Fulvius Flaccus) وغراكوس (C.Gracchus)، وكان يوغرطة يعتبره من أشدّ خصومه في روما، إلاّ أنّه وبتأثير

الهبات والوعود استقبله بحفاوة كبيرة إلى حدّ أنّه جعله يضحّي بشهرته وجاهه، بل بكلّ مصالحه في مقابل مصالح الملك [يوغرطة]، وعليه فقد عمل مع الموفدين الآخرين ونجح في كسب الأغلبية من بينهم، وأصبح يؤثر المال على الجاه، وكان من نتائج تواطئه أن منح يوغرطة القسم الذي يحاذي موريتانيا من نوميديا، وهو الأكثر غنى وسكّانا في حين منح لأذربال القسم الآخر الذي ليست له قيمة حقيقية تجعله مساويا للسابق، إلاّ أنّه يحتوي على موانئ وعمران أكثر[1].

نبذة عن جغرافية وتاريخ أفريقيا

XVII- إنّ موضوعي هذا يتطلّب أن أعرض ولو بإيجاز جغرافية أفريقيا وشيئا عن سكّانها الذين كانوا بالنسبة لنا على امتداد الزمن إمّا أصدقاء وإمّا أعداء، فمن حيث الظروف الطبيعية تتميّز أفريقيا بالحرارة الشديدة وبصحارى تميّز مظهر الأرض، وهذه مواضيع صعبة، ويقيناً فإنّني لا أجد ما أقول في بعضها، أمّا البعض الآخر فأسجّل فيه ما استطعت بإيجاز.

في تقسيم الأرض، تكوّن أفريقيا الجزء الثالث من العالم، إلاّ أنّ بعض الكتّاب لا يعدّون سوى قسمين [آسيا وأوربّا] ويلحقون أفريقيا بهذه الأخيرة. يحدّ أفريقيا من الغرب المضيق الذي يصل بحرنا بالمحيط، وفي قسمها الشرقي تمتدّ هضبة شاسعة منحدرة يسمّيها سكّانها كاتا باتموس[2] (Catabathmos) تطلّ على بحر دون مرافئ، أمّا الأرض فهي خصبة في إنتاج الحبوب، جيّدة لتربية الحيوانات، وهي فقيرة في الغطاء النباتي، أمّا مصدر الماء فهو الأمطار أكثر من الينابيع التي هي نادرة جدّا. للرجال أجسام صلبة رشيقة وقويّة على العمل، يعيشون حتّى الشيخوخة تقريبا -لأنّه نادرا ما تصيبهم الأمراض- ما عدا أولئك الذين يسقطون في ساحات الوغى، أو الذين يقعون ضحيّة الحيوانات الضارية، فقد كانت بلادهم آهلة بعدد كبير من الحيوانات المفترسة.

---

(1) هذا مخالف للواقع لأنّ القسم الشرقي من المملكة هو الأغنى والأكثر عمرانا ويمتدّ من السيرت الكبير شرقا إلى ما وراء الأمبساغا غربا، وله واجهتان بحريتان تفصل بينهما المقاطعة الرومانية.

(2) كلمة إغريقية تعني: المنحدر، وهي الهضبة الممتدّة ما بين مصر وقورينائية.

أمّا من حيث أصل السكّان الأوائل لأفريقيا أو أولئك الذين ينتمون إليهم، أو الاندماج الذي هم نتاجه فإنّني أقدّم رواية مخالفة للمألوف، وهي مستقاة من ترجمة عن كتب بونية تعود إلى يمبسال الثاني، مضمونها يطابق الفكرة الباقية لدى الأهالي أنفسهم،ونترك للمؤلّفين مسؤوليتهم عمّا يقولونه، وهاهو بإيجاز عرض عن ذلك[1].

XVIII- الجيتول (Gaetulii) والليبو (Libyes) هم السكّان الأوائل لأفريقيا وهم عمالقة متوحّشون يتغذّون على لحوم الحيوانات الضارية أو على أعشاب المروج على شكل مجموعات، لا يحكمهم عرف ولا قانون ولا زعيم.يعيشون متجوّلين ومغامرين ومتفرّقين لا يتوقّفون إلاّ عندما يداهمهم الليل[2]. وبعد وفاة هرقل في إسبانيا - وهو رأي الأفارقة على الأقلّ- وكان جيشه مكوّنا من عناصر مختلفة ما إن تحرّر من قائده حتّى انساق وراء عدّة متنافسين، فقد أراد كلّ واحد من هؤلاء المتنافسين أن تكون له القيادة، وما لبث (الجيش) أن تفرّق وفي عداده ميد (Medi) وفرس (Persae) وأرمن (Armenii)، عبروا إلى أفريقيا في سفن واستقرّوا في المناطق المجاورة لبحرنا، أمّا الفرس فقد انسحبوا أكثر نحو المحيط، حيث أقاموا أكواخا من هياكل زوارقهم التي نقلوها معهم، لأنّهم لم يجدوا خشبا في تلك البلاد، ولم يستطيعوا تأمين ذلك من إسبانيا بالشراء أو بالتبادل،فاتّساع البحر والجهل باللغة منع كلّ تجارة وقد اختلط هؤلاء تدريجيا بالجيتول عن طريق المصاهرة، وكانوا يتنقّلون كثيرا في محاولة للعثور على بلد مناسب للعيش ولذلك سمّوا أنفسهم: نوماداس(Nomadas)[3] وهو الاسم

---

(1) في هذه الفقرة غموض وتناقض فكيف تكون هذه الرواية مخالفة للمألوف وفي نفس الوقت مطابقة لما يتناقله الأهالي عن أصولهم، ولعلّ سالوست هنا وعلى عادته دائما يريد زرع فكرة اختلاف الأصول بغرض إضعاف التضامن وروح الانسجام لدى الشعب الأفريقي.

(2) يرى كامبس أنّ المقصود بهذا الوصف هو عصر ما قبل التاريخ حيث كان السكّان يعيشون على القطف والقنص، أنظر:

- Camps (G.), Aux origines de la Berbérie, Massinissa ou les dbuts de l'Histoire, p. 16.

(3) أي الرحّل، بسبب حياتهم البدوية، وهو الرأي الذي يرجّحه سالوست، كما نرى.

الذي لا يزال إلى الآن وكان شكل مساكن هؤلاء النوميد التي تسمّى ماباليا (Mapalia) مستطيلا، وجدرانها محنية تعلوها سقوف تشبه غواطس السفن، وقد انضمّ الميد والأرمن إلى الليبيين لأنّهم يقيمون قرب البحر الأفريقي أمّا مواطن الجيتول فهي أقرب إلى الشمس[1] غير بعيد عن المنطقة الحارّة، واستقرّ الميد على الأخصّ على مقربة من المدن المحصّنة التي لا يفصلها عن إسبانيا إلاّ المضيق، وأقاموا مع هذا البلد تجارة مبادلات، وشيئا فشيئا حرّف الليبيون اسم الميد، فأخذ في لغتهم البربرية صيغة: مور، أمّا الفرس فنمت قوّتهم بسرعة، وفي وقت لاحق برزت منهم جماعة من الفتية اضطرّت إلى ترك المنزل العائلي، وتملّكت البلاد المجاورة لقرطاج التي نسمّيها نوميديا بشعبها القديم والحديث، وتعاون هؤلاء فأخضعوا البلاد الأخرى المتاخمة لهم بالسلم حينا وبالترهيب أحيانا أخرى، وبذلك ضمنوا لأنفسهم الشهرة والمجد، لأنّ الليبيين كانوا أقلّ حبّا للحرب من الجيتول، فأخذوا اسم المنتصرين وفيه اندمجوا[2].

XIX- في زمن لاحق، نظّم الفينيقيون من جهتهم عامّة الناس وجميع المتلهّفين على المغامرة، وكان هدف بعضهم إفراغ بلادهم من الاكتظاظ السكّاني، وبعضهم بدافع الرغبة في الفتح، كلّ هؤلاء ذهبوا فأسّسوا هيبون (Hippone) وهدرومت (Hadrumetum) ولبتيس (Leptis) ومدن أخرى، وسرعان ما ازدهرت هذه المدن متلقية الدعم من المدن الأمّ، ولا أريد هنا أن أطنب في الكلام عن قرطاج، إلاّ أنّ موضوعي يقودني إلى هناك، فإذا تتبّعنا الساحل نجد قورين (Cyrene) وهي مستعمرة أقامها أهل ثيرا (Thera) ثمّ بعد ذلك نجد سرت الكبرى والصغرى وبينهما لبتيس (Leptis) ثمّ هيكل الفيلان (Philaenon Arae)، وكان قديما يمثّل حدود الإمبراطورية القرطاجية باتجاه

---

(1) كان الاعتقاد قديما بأنّ ارتفاع درجة الحرارة فيما نسمّيه اليوم المنطقة المدارية والمنطقة الاستوائية سببه القرب من الشمس.

(2) استخلص غابريال كامبس بأنّ المضمون التاريخي في نصّ سالوست ضعيف، أنظر:
- Camps (G.), Aux origines de la Berbérie, Massinissa... pp. 15 - 17.

مصر، وإلى الغرب هناك مدن بونية، ومناطق أخرى حتّى موريتانيا، يشغلها النوميد، أمّا الأقربون إلى إسبانيا فهم المور (Mauri) وفي صعيد نوميديا نجد كما ذكرنا الجيتول (Gaetulii) الذين يعيش بعضهم في أكواخ (Tugurii) والبعض الآخر يعيش حياة الترحال، وهم أكثر وحشية، وخلف هؤلاء يعيش الإثيوبيون في مناطق شديدة الحرارة يلهبها أوار الشمس.

خلال الحرب ضدّ يوغرطة كان الشعب الروماني هو الذي يحكم بواسطة قضاته أغلب المدن البونية، أمّا المناطق النائية التي كانت تحتلّها قرطاج، أو القسم الأكبر من جيتوليا ونوميديا إلى نهر المولوشا (Mulucha Flumen) فقد أذعن ليوغرطة وكان المور كلّهم تحت سلطة الملك بوكوس (Bocchus) الذي يجهل كلّ الشعب الروماني ما عدا بالاسم، ولم تكن للرومان علاقات ممتازة سلمية أو عدائية معه.

هذه هي بعض النقاط عن أفريقيا وسكّانها، أعتقد أنّها تكفي متطلّبات موضوعي.

استمرار الصراع بين آذربال ويوغرطة

XX- إثر اقتسام المملكة غادر وفد مجلس الشيوخ أفريقيا،وأصبح يوغرطة -عكس ما كان يتوجّسه- يعيش في ملك من ثمار جرائمه، وتأكّد بأنّ أصدقاءه في نومنتيا لن يخدعوه، إذ أكّدوا له أنّ روما كلّها للبيع، في حين أسال لعاب أولئك الذين وفدوا من روما لإكمال استلام الهدايا برّا بوعده.

ما لبث يوغرطة بعد ذلك أن شخص ببصره نحو مملكة أذربال، وكان جسورا ميّالا إلى الحرب، وهذا على عكس الآخر الذي كان محبّا للدعة مسالما حليما، وهو ما يجعله أجبن من أن يخيف؟.

قام يوغرطة فجأة بغزو مملكة أذربال بفيالق عديدة،واختطف الكثير من الرجال مع قطعانهم، وأخذ غنائم أخرى وأحرق المساكن، واكتسح بفرسانه القسم الأكبر من البلاد، ثمّ قفل راجعا بكلّ جيوشه ومن معه إلى مملكته مقتنعا بأنّ أذربال -تحت ضربات الإهانة- سينتقم بقوّة السلاح ثأرا للضربة التي تلقاها، وهذا يوفّر السبب الذي يجعل الحرب مفتوحة، لكن أذربال ارتأى ألاّ قوّة له تعادل قوّة خصمه، وأنّ اعتماده على النوميد أقلّ من اعتماده على صداقة الشعب

الروماني ولم يفعل سوى أن أرسل وفدا إلى يوغرطة للتشكّي من العدوان العنيف الذي اقترفه في حقّ مملكته، ورغم الردّ الشائن الذي حمله إليه الوفد، فقد صمّم على تحمّل هذا الوضع أفضل من الدخول في حرب ثانية، طالما أنّ الحرب الأولى كانت وبالا عليه.

ما كان هذا الموقف ليوقف طموح يوغرطة أبدا، فقد أصبح يعتقد بأنّه سيّد كلّ مملكة أذربال إن لم يكن أكثر، وكما كان قد فعل، يمكن أن يغزو البلاد بجماعة من النهابين، بل بجيش كبير كان قد وضعه في حالة حرب بقصد إعلان فتح كلّ نوميديا، بل إعلان حرب تضاعف من ثقة رجاله وإرهاب أعدائه، فيخلي المدن والأرياف ويستولي على كلّ ما يمكن أن يكون غنيمة.

هزيمة آذربال وحصار سيرتا:

XXI- أمّا أذربال فليس أمامه سوى أن يغادر مملكته أو أن يدافع عنها بقوّة السلاح،ودفعته الضرورة إلى استنهاض الهمم وجمع الجيوش، وسار للقاء يوغرطة، وبذلك تمهّدت الطريق إلى الحرب، والتقى الجيشان غير بعيد عن البحر قرب سيرتا، وكان الوقت آخر النهار والمعركة لم تبدأ بعد، وفي آخر الليل والظلام لا يزال مخيّما، كرّ جند يوغرطة على معسكرات العدو، بعد أن أعطيت لهم الإشارة بذلك ففاجأوا جند أذربال وبعضه نائم والبعض الآخر لا يكاد يتقلّد سلاحه، وهجم جيش يوغرطة بقوّة فاندحر جيش أذربال وفرّ إلى سيرتا مطاردا من بعض فرسان يوغرطة، وهكذا انتهت الحرب بين الملكين في نفس اليوم الذي بدأت فيه، وتمكّن عدد من المواطنين الإيطاليين من منع ملاحقي جيش أذربال من دخول المدينة، فعسكر يوغرطة خارجها، مستغلاً موقعه، وفي الحين أمر بإحضار آلات الحصار: الوقاء النقّال، المخارط (Uineis turribusque)، آلات من كلّ نوع، لاقتحام المدينة، فقد كان يريد الإسراع حتّى ينهي فتح المدينة قبل عودة السفير الذي علم بأنّ أذربال أرسله إلى روما قبل المعركة، والحال أنّ مجلس الشيوخ عندما وصله خبر تجدّد الحرب، انتدب وفدا من ثلاثة أرسلهم إلى أفريقيا مع أمر بالالتحاق بالملكين، والإعلان بأنّ روما باسم مجلس الشيوخ ترغب وتريد

أن يضعا السلاح، وأن يحلاّ خلافهما عن طريق العدل لا الحرب، وأنّ شرف روما وشرفهم أيضا يتطلّب ذلك.

XXII- ذهب أولئك الموفدون الرومان إلى أفريقيا وهم أكثر طيشا ممّا كانوا عليه في روما، وعند وصولهم إلى معسكر يوغرطة وقابلوه، شرعوا في الحديث عن المعركة التي كانت تدورحول سيرتا، والحصار المضروب على المدينة، وبعد الاستماع إليهم ردّ يوغرطة قائلا: «أنتم لا شيء أقدس عندكم ولا أعزّ على نفوسكم سوى سلطة مجلس الشيوخ، أمّا أنا فمنذ صباي كنت أجدّ لأستحقّ تقدير المواطنين المخلصين، وما كان ذلك ليتحقّق لولا شجاعتي بعيدا عن الرذائل، وإذا لم أكن، كما يريد أحد كبار الرجال مثل سكيبيو، وإذا أخذ ذلك في الاعتبار، فإنّ الخطأ ليس خطأ الابن الذي كان ميكيبسا قد تبنّاه لتقاسم عرشه، بل إنّ ذلك كان اختيار الرجل طيّب القلب، وما عدا ذلك فبمقدار ما كنت أقلّ استعدادا لتحمّل الظلم، كان أذربال قد حاول بخبث القضاء على حياتي،وفي سياق ذلك العمل الإجرامي أردت أن أنتقم منه. إنّ الشعب الروماني يفتقر إلى العدالة والنبل إن لم يبرئني». وبهذا الردّ افترق الطرفان، ولم يكن بوسع موفدي مجلس الشيوخ، أن يقابلوا أذربال.

XXIII- منذ أن سيّر يوغرطة موفدي مجلس الشيوخ رأى أنّ طبيعة الميدان تعرقله، وتمنعه من أن يحتلّ سيرتا بالقوّة، فأحاط تحصيناته بخندق وحباك (Vallo) وشيّد أبراجا مزوّدة بمراكز للحراسة، ومن جهة أخرى كان يجرّب ليل نهار استعمال القوّة والخدعة الحربية وكدّ ليصل إلى المدافعين عن المدينة إمّا بالرشوة أو بالترهيب، وأخيرا التجأ إلى رجاله فقام فيهم خطيبا وألهب حماسهم، والخلاصة أنّ هؤلاء تأهّبوا لخوض كلّ الصعاب بنشاط.

أذربال يطلب الحماية من روما

أمّا أذربال فقد شعر بضعفه إلى أبعد حدّ، وأنّه في ضيق شديد من قبل عدو مصمّم على تدميره، ودون أمل في مدد من خارج البلاد، والحصار يطول، وفضلا عن ذلك أخطأ في وضع ترتيبات التموين، فمن بين أتباعه في سيرتا اختار

اثنين من كبار الشجعان، وتحصّل منهما بقوّة الوعود ونداءات الشفقة على الموافقة على أن يجتازوا ليلا تحصينات العدو للوصول إلى أقرب نقطة على البحر، للاستنجاد بروما، وفي ظرف أيام نفّذا ما أراده أذربال ووصلا إلى روما، وفي مجلس الشيوخ قرئت رسالة أذربال التي حملها مبعوثاه، وتضمّنت ما يلي:

«حضرات الشيوخ: ليس خطأي أن وجّهت إليكم التماسات عديدة فاقت الحدّ، فما أجبرني على ذلك إلاّ شراسة يوغرطة الذي اندفع يريد سلبي مملكتي، دون أن يضعكم في الاعتبار لا أنتم ولا الآلهة الخالدة، فهو يريد قبل كلّ شيء أن يرى دمي مسفوكا، وهاهو الشهر الخامس -وأنا صديق الشعب الروماني وحليفه- وأنا محاصر من طرف جيوشه، فلا المبرّات التي أغدقها عليه أبي ميكيبسا، ولا مراسيمكم عملت لصالحي، لقد أضحيت لا أعرف ما الذي يكبس على أنفاسي بوحشية أكثر: الحديد أم الجوع، لا أريد أن أكتب إليكم كثيرا عن يوغرطة فحالتي في نكبتي هذه تثنيني عن ذلك، لأنّني أدركت بعد تجربة طويلة أنّ الشقي لا يصدَّق إلاّ نادرا، غير أنّني أشعر جيّدا بأنّه يطمح إلى شيء أكبر ممّا أطمح إليه كثيرا،ولا أمل في أن يحافظ على مملكتي ولا على صداقتكم، فما الذي يكنّه في ضميره، لا أحد يعرف شيئا، فهو أولا وقبل كلّ شيء اغتال أخي يمبسال، ثمّ طردني من عرش آبائي. أملي ألاّ تصوّب هذه الاعتداءات إليكم، وألاّ تتجاوزنا لتلمسكم بسوء، ألا إنّ المملكة التي احتلّها بقوّة السلاح هي مملكتكم والأمير الذي يحاصر فيها هو أنا، أنا الذي وضعتموني بأنفسكم على عرش نوميديا والخطر الذي أتبيّنه بجلاء هو الوضع الذي أحدثه كلام موفديكم، فما ذا بقي لإثارة المشاعر غير قوّة جيوشكم. بالنسبة إليّ فلطالما رغبت في أن تكون هذه الرسالة ذات نتائج، وأنّ شكواي الأولى أمام مجلس الشيوخ لن تكون دون سند لأنّني لا أملك شيئا لإعطاء مصداقية لأقوالي الشاهدة على تعاستي، لكن أما وأنّني وجدت لأكون الشاهد الحيّ على جرائم يوغرطة، فهذا أقرب إلى الموت منه إلى النكبة، بسبب جبروت عدوّي الذي أستحلفكم أن تنقذوني من احتمال انتقامه منّي،أحكموا برضاكم بل بمشيئتكم مملكة نوميديا، فهي لكم، انقذوني فقط من

صعبا إقناع هذا القائد بالخيانة، خاصّة وأنّه كان متخوّفا من أنّه في حال السلم مع الرومان سيكون تسليمه للقتل أحد الشروط.

LXII- قرّر بوملكار تنفيذ ما اتفق عليه مع متلوس، وعندما التقى يوغرطة وجده قلقا بائسا، فرأى أنّ الفرصة مواتية فنصحه وتوسّل إليه باكيا أن يفكّر أخيرا في أمنه وأمن أبنائه وأمن الشعب النوميدي الذي خدمه دائما والذي كان في جميع المعارك ينهزم وتكتسح بلاده، وذكّره بالعدد الكبير من الرجال الذين قتلوا أو أسروا وأنّ موارد المملكة مدمّرة وأنّ بسالة النوميد وفعالية السلاح رهينة المعركة القادمة، وهي المعركة التي مهما أخّروها فإنّ النوميد لا يضمنون لأنفسهم المنعة من ويلاتها، ومن تأثير أقوال على هذا المنوال قرّر الملك أن يستسلم، فأرسل إلى القائد الروماني وفدا أعلن أنّ يوغرطة رهن أوامره، وأنّه يضع نفسه ومملكته دون شرط في خدمته، ومن جهته قام متلوس في الحال باستقدام كل أعضاء التنظيم المشيخي الذين يعملون تحت إمرته وجمعهم بشخصيات كفأة في التدبير والتفكير لتشكيل مجلسه الحربي، والحال أنّه تبعا لتقاليد الأسلاف وبقرار من المجلس اشترط على يوغرطة من خلال ممثّليه أن يدفع مائتي ألف ليرة فضّية، وجميع فيلته، وكمّية معتبرة من السلاح والخيول وإذا قبل هذه الشروط دون تأخير يوافق على تسليمه كلّ الجنود الفارّين وهم مقيّدون، وعندما قبلت الشروط من الطرفين تسلّم يوغرطة طبقا للاتفاق أغلبهم، منذ بداية الحوادث، ولم يفلت إلاّ عدد قليل التجأ إلى موريتانيا لدى الملك بوكوس، وبقي يوغرطة مجرّدا من السلاح ومن الرجال والأموال، وأعلن بنفسه في ثيسيديوم[1] (Thisidium) أنّه على استعداد لتلقّي الأوامر من القنصل وبدا هذه المرّة أنّه سليم الطوية حسن النية، متخوّفا من العقاب الصارم على جرائمه، والخلاصة أنّه ظلّ يتأرجح بين مرارة الهزيمة التي أظهرت بأنّ كلّ شيء أفضل من الحرب، في أيّام طال فيها التردّد، وبين تأمّل مقدار فداحة السقوط من العرش إلى العبودية، ولذلك ما إن تجمّعت عنده بعض الإمكانات المعتبرة حتّى قرّر عبثا معاودة الحرب،

(1) في الموقع المسمّى اليوم: كريش الواد على بعد 7 كلم إلى الشمال الشرقي من مجاز الباب.

أمّا مجلس الشيوخ من جهته فتداول في اقتسام المقاطعات، وجعل نوميديا من نصيب متلوس.

طموحات ماريوس

LXIII- صادف في تلك الفترة أن كان ماريوس في أوتيكا (Utica) يقدّم قربانا للآلهة وبتلك المناسبة أعلن له عرّاف أنّ «أحشاء الأضاحي تنبئ بأنّ له مستقبلا باهرا، وبمعونة الآلهة يمكن أن يكون قويّا فليشرع في ما خطّط له وليجرّب، فسيجد الحظّ إلى جانبه أكثر من ذي قبل، إنّ كلّ شيء يخدمه لتحقيق النجاح».

منذ أمد بعيد كان ماريوس يطمح إلى الحصول على منصب القنصلية، إلاّ أنّه فشل في ذلك، رغم أنّه كان يتوفّر على كلّ المزايا المطلوبة ما عدا عراقة عائلته، فقد عُرف بالقوّة والاستقامة، وبدراية كبيرة في فنون القتال، وكانت له معنويات لا تقهر في المعركة، وفي السلم كان متواضعا لا يمكن التأثير فيه بالانفعال أو بالمال قطّ، كان طموحا إلى المجد، ولد في أربينوم[1] (Arpinum)، وفيها قضى طفولته كلّها، ومنذ أن بلغ سنّ حمل السلاح، تمرّس في السلك العسكري لا في دراسة البلاغة اليونانية أو الأناقة الاجتماعية، وبفضل الانضباط في العمل العسكري الذي صانه من الفساد، نمت مواهبه بسرعة، وعندما تقدّم لأوّل مرّة أمام الشعب يلتمس منصب التريبون العسكري لم يكن أحد يعرفه معرفة شخصية تقريبا، إلاّ أنّ شهرته هي التي مكّنته من الحصول على رضى الكلّ بسهولة، وقد فاق الآخرين في كلّ المهامّ التي مارسها تباعا، وكان يتقلّد الوظائف التي تولاّها بطريقة تجعله جديرا بتولّي وظيفة أخرى أهمّ من سابقاتها، والحال أنّه حتّى تلك الفترة كان الرجل الأجدر «لأنّ الطموح سيبدّد قواه في وقت لاحق» فلم يشأ أن يصرف نظره عن القنصلية، في الوقت الذي لا يزال يُنظَر إلى العامّة على أنّها إذا ما دخل منها أفراد إلى منصب الحكم فإنّ ذلك يمثّل خطرا على الأشراف الذين ما احتفظوا بتلك المناصب إلاّ لتبقى لهم يمرّرونها من

---

(1) سنة 156 ق. م. وبدأ حياته العسكرية في حرب نومنتيا تحت قيادة سكيبيو، مثل يوغرطة. تولّى في البداية منصب كستور، ثمّ تريبون العامّة [119 ق.م.] ثمّ بريطور [115 ق.م.] ثمّ بروبريطور في إسبانيا.

يد ليد دون أن تخرج من أيديهم، غير أنّه لم يبرز من بينهم شخص جديد مثل ماريوس الذي حاز العظمة بما صنع من أمجاد ومآثر، ولا تشوبه شائبة، فقد يبدو حتّى عن طريق الحدس بأنّه أهل لشرف الحكم.

LXIV- لاحظ ماريوس أنّ نبوءات العرّاف تتّفق وما تمليه عليه رغبته الدفينة، فطلب من متلوس عطلة يذهب فيها لترشيح نفسه ومهما كان لمتلوس من فضائل كالشجاعة وحبّ الخير ومزايا أخرى جليلة للغاية، فإنّه كان فيه هذا العيب الذي يشترك فيه مع الأشراف وهو روح الاستعلاء واحتقار الآخرين، فبدت عليه الحيرة والبلبلة حيال مسعى ماريوس المفاجئ مع أنّه تظاهر له باستحسان مشروعه ونصحه ألاّ يندفع بطلبه نحو هيئة لا تزال تحكمها التقاليد، وألاّ يتطلّع إلى الارتقاء فوق وضعيته، إذ لا يمكن أن يكون مثل هذا الطموح لكلّ الناس، وأنّ عليه أن يرضى بما هو فيه، والخلاصة أنّه لم يرد له أن يلتمس من الشعب الروماني شرف لقب جدير به فيقابل بالرفض، ومع تلك التحذيرات وتنبيهات أخرى مماثلة، بقي ماريوس مصرّا على قراره، وانتهى بأن ردّ عليه: «إنّ له الحقّ في طلبه، وأنّه لن يتأخّر في ذلك طالما أنّ الأوضاع العامّة تسمح بذلك»، وحيث أن ماريوس استمرّ في إلحاحه، فإن متلوس ردّ عليه: «لا تستعجل كثيرا فالوقت لا يزال كافيا للسعْي في طلب القنصلية له ولابنه في نفس الوقت كذلك»، وكان عمر ابنه آنذاك حوالى عشرين سنة وكان ضمن الجيش تحت قيادة والده.

أثار كلام ماريوس في نفسه رغبة كبرى في نيل النبل الذي يسعى إليه كما اشتعل الحنق في قلبه نارا على متلوس، خاصّة وأنّ ناصحيه ما فتئوا يرغّبونه في طموحه، فامتزج في قلبه الطموح بالحنق، ولم يدّخر أيّ جهد أو كلمة يمكن أن تخدم ترشيحه إلاّ واستعملها مع الجند الذين كانوا تحت قيادته في معسكرات الشتاء، ثمّ التجأ إلى أسلوب أكثر ليونة على غير عادته مع الجالية التجارية الرومانية في أوتيكا وكان عددها كبير هناك، وأكثر من الانتقاد في كلامه عن الحرب، ومن أقواله أنّه: «لو أُعطي نصف الجيش فقط لجاء بيوغرطة مقيّدا بالأغلال في خلال أيام معدودات وأنّ القائد يؤجّل حسم المعركة عمدا، لأنّه بغروره وعتوّه وكبريائه

طاب له أن ينحرف في ممارسة القيادة». وقد أظهرت هذه التهم للجنود أنّ طول الحرب استنزفت منهم ما يملكون، وأن لا شيء يسير كما يتغون.

غودة (أخو يوغرطة) في المعسكر الروماني:

LXV- في تلك الأثناء، كان قد انضمّ إلى الجيش الروماني نوميدي يدعى غودة (Gauda) وهو ابن مسطان وحفيد ماسينيسا، وكان ميكيبسا قد دوّن اسمه في وصيته كوريث احتياطي للعرش[1]، إلاّ أنّ المرض الذي أصابه كان قد أثّر بعض الشيء في نباهته، وكان قد طلب أن يكون مقرّ إقامته، حسب التقاليد الملكية، إلى جانب القنصل، وأن تكون في حراسته فرقة من الخيالة الرومان، غير أنّ متلوس رفض ذلك كلّه، لأنّ غودة في نظره لا يرقى إلى درجة النبلاء الرومان، وهو ما جعل الرومان يمتنعون عن الاعتراف به كملك، كما أنّ تخصيص حراسة من الفرسان الرومان لخدمة نوميدي يعتبر إهانة شائنة لأولئك الفرسان، ولمّا عرف غودة ذلك أصيب بصدمة كبيرة أثّرت فيه، وكان ماريوس على علم بذلك، فلمّا التقى بغودة -وكان أثر الصدمة بادٍ عليه- حثّه على الانتقام من متلوس والاستفادة من مساعدته مستعملا معه أسلوب الخداع، مذكّرا إياه بالإهانات التي تلقّاها من متلوس، فردّ عليه غودة رغم أنّ المرض كان قد أضعف تفكيره قائلا: «ألست أنا حفيد ماسينيسا والأجدر بأن أكون الملك المعظّم، وإذا قبض على يوغرطة أو قتل، فستعود إليّ زعامة نوميديا دون ريب، وإذا تكفّلت أنت بحسم الحرب في حال نيلك القنصلية، فإنّه يمكن أن يتحقّق ذلك بسرعة»، وبفضل مناورة ماريوس قرّر غودة والفرسان الرومان أن يكاتبوا أصدقاءهم منتقدين متلوس وأسلوبه في الحرب وأعلموهم بأنّ ماريوس أضحى هو الأجدر بالقيادة، ثمّ شرع عدد كبير من الشخصيات، بعضهم لإعجابه به والأغلبية منهم رغبة في أن يتمّ السلم، بحملة لفائدة ماريوس، وأظهروا له تأييدا كبيرا، وصادف أن كان قانون مامليا (Lex

---

(1) في الحالة التي يكون فيها ولداه ويوغرطة لا يستطيعون تولّي العرش أو أنّهم لم يخلّفوا عقبا يرثهم، ولا ريب أنّ وجود غودة في المعسكر الروماني كان أكبر سند للرومان معنويا ومادّيا، مع أنّ سالوست لم يوضّح لنا الأسباب والظروف التي انتقل فيها غودة إلى صفّ الرومان ضدّ أخيه وبلده.

Mamilia) حيّز التنفيذ آنذاك، وشاهد العامّة كيف أنّ ذلك القانون أوقف طغيان النبلاء وفتح الباب أمام أشخاص جدد للرقي بهم إلى درجة النبلاء، ولذلك كان كلّ شيء... الظروف وحتّى الأشخاص يعملون لصالح ماريوس.

سكّان واقا يقضون على الحامية الرومانية ويحرّرون مدينتهم:

LXVI- والحال أنّ يوغرطة عندما قرّر ألاّ يستمرّ في السلم، وأن يعاود الحرب قام بكلّ الاستعدادات بعناية تامّة ولم تكن تلك التحضيرات مجرّد إجراءات بل جنّد جيشا وأبدى الرغبة في استعادة المدن -التي كان قد تخلّى عنها- بجميع الوسائل: بالإرهاب أو حتّى بالإغراء بالمكافآت، وحصّن المواقع الهامّة، وجلب الأسلحة، وأمر بتصليح الدفاعية والهجومية منها وكلّ المعدّات التي كان قد تركها على أمل إقرار السلم ن واستمال إليه العبيد الرومان، وأفسد برشاويه حتّى الحاميات الرومانية ذاتها والخلاصة أنّه قام بكلّ ما أمكنه من أعمال، وفي مختلف الجوانب وبكلّ وسيلة، مجرّبا كلّ شيء ناجع، واضعا رهن العمل كلّ شيء لبلوغ أهدافه.

في واقا وهي مدينة كان متلوس قد أقام فيها حامية منذ أن بدأ يوغرطة يفكّر في عقد الصلح، ثمّ تنازل عنها أمام توسّلات الملك، أمّا البقية فلم يتركها بإرادته، وهو ما أثار الشرفاء من النوميد الذين التجأوا إلى التآمر، أمّا العامّة فتبعا لتقاليدها -خاصّة لدى النوميد- فإن طبْعها متقلّب، ومتعلّقة بالعصيان والفتن، وترغب في الجديد،وهي فوق ذلك عدوّة للسلم والهدوء.

قام شرفاء المدينة بتدبير دسيسة، وحدّدوا تنفيذها بعد الغداة لأنّه يوافق يوم عيد يحتفل به في عموم أفريقيا، لما يرجى فيه من متعة ومسرّات كثيرة، وفي وقت لا يوحي بأيّة ريبة، .وهو الوقت الذي حدّدوه لتنفيذ مؤامرتهم، قام كلّ واحد منهم باستدعاء قادة المئة والتريبونات العسكريين وحتّى حاكم المنطقة توربيليوس سيلانوس (Turpilius Silanus) لتناول الطعام، وخلال الوليمة أعدم الجميع باستثناء توربيليوس، ثمّ أخذوا جثثهم وعرضوها على الجنود الذين طافوا بها في جهات المدينة وهم مجرّدون من السلاح، وكأنّهم في يوم عادي كسائر الأيام، ولم تكترث العامّة بدورها بالحادث، بعضهم لأنّ الشرفاء على علم ولم

يدو أيّ اهتمام، والبعض الآخر لجهله بأسباب الحادث، تلقّى النبأ واعتبره كأيّ حادث عادي، إلاّ أنّ الجميع وجد الفرصة للتمتّع بمنظر هذا الحادث الجديد في جوّ تسوده الفوضى.

LXVII- كان الجنود الرومان قد بدا عليهم التضعضع والتفكّك بفعل هذا الخطر المباغت، ولم يكونوا يعرفون أيّ خطّة يتبعون، فكانت مبادرتهم مرتبكة، ولمّا همّوا بالاحتماء بالقلعة التي يتمركز فيها القادة وباقي المدافعين حال بينهم وبينها موقع عسكري نوميدي، ولمّا عزموا على الفرار حالت بينهم وبين ذلك الأبواب التي أغلقت قبل حدوث الاعتداء، وأكثر من ذلك قاموا برشق النساء والأطفال من أعلى المنازل بالحجارة وبكلّ ما وقع في أيديهم، فكان من المستحيل على هؤلاء أن يحتموا من خطرين يتساوى في ذلك الشجاع والجبان والعنصر الجيّد والعنصر الرديء، فكان مصير الجميع الذبح، دون أن يستطيعوا المقاومة أو الثأر.

في هذه النكبة، انقضّ النوميد على الرومان، وكانت المدينة مغلقة من كلّ الجهات، ولم يتمكّن أحد من الإيطاليين من الفرار للنجاة بروحه سوى توربيليوس ولا ندري أكان ذلك بسبب شفقة من مضيّفيه أم نتيجة اتّفاق سرّي، أو أنّ ذلك كان محض صدفة، وعموما فإنّ الذي فضّل الحياة دون كرامة على صيت دون سعي في مثل هذه النكبة ينبغي أن ينظر إليه على أنّه بائس ودنيء.

آلمت أخبار واقا متلوس وأحزنته كثيرا، وبلغ به الأمر أن توارى عن الأنظار، وعندما امتزج الألم بالحنق، قرّر أن يجدّ في الثأر لهذه النكبة والإهانة وبسرعة، فانطلق من مغرب الشمس ومعه الجيش الذي كان في المعسكر الشتوي، ومعه أيضا عدد من الخيالة النوميد، فقد جلب منهم ما استطاع، وكان الكلّ دون عدّة، ومن الغداة وحوالي الساعة الثالثة عبر سهلا تحيط به مرتفعات قليلة العلو، وكان جيشه قد أخذ منه التعب، فقد أنهكه طول المسافة التي قطعها فأبى الجنود مواصلة المسير، وما كان من متلوس لتحسيسهم بالأحداث وجعلهم يلتفّون حوله سوى أن صاح فيهم: «إنّ موقع واقا غير بعيد من هنا إلاّ بميل واحد على الأكثر، وأنّ من الشهامة أن يتحمّلوا الإرهاق في سبيل الثأر لمواطنيهم، فمن خانته

الشجاعة ليس له سوى النكبة»، والخلاصة أنّه أغراهم بالمغانم الوفيرة، وحتّى يعيد إليهم الثقة بالنفس، وافق للفرسان أن يتصدّروا مقدّمة الجيش، وللمشاة أن يتقدّموا في صفوف متراصّة قدر المستطاع وأن يخفوا راياتهم.

انتقام الرومان من سكّان واقا ونكبة المدينة

LXIX - عندما شاهد سكّان واقا جيشا قادما نحوهم عرفوا منذ الوهلة الأولى أنّه متلوس، فأغلقوا أبواب المدينة دون انتظار، إلاّ أنّهم بعد ذلك لاحظوا أنّ الجيش لم يكتسح الحقول وأنّ أفراده يلوّحون والفرسان النوميد في المقدّمة[1]، وتوقّعوا عكس ما اعتقدوا في الأول، وقادهم ظنّهم إلى أنّ الجيش نوميدي وأنّ يوغرطة قادم إليهم، فخرجوا للقائه بفرح عارم، وما إن حانت الفرصة المناسبة حتّى انقضّ الرومان فرسانا ومشاة - حسب الخطّة المرسومة- على النوميد وقاموا بذبح الحشد المتجمّع خارج المدينة، وأسرع البعض إلى الأبواب في حين استولى آخرون على الأبراج، لقد كان غضب الرومان وأملهم في المغنم أكبر من الإرهاق الذي نالهم، وأصبح أمر التخلّص من سكّان واقا لا يتعدّى اليومين، وأسلمت هذه المدينة الكبيرة والغنية للانتقام والنهب.

كان توربيلوس، قائد الموقع الذي سبق الكلام عنه، هو الوحيد الذي نجا بنفسه خلال إبادة سكّان واقا للحامية الرومانية بمدينتهم، وكان متلوس قد وضعه رهن الإقرار بالولاء وتقديم المبرّرات[2]، ولمّا لم يتمكّن من تبرئة نفسه حكم عليه بالإعدام، فضرب بالقضبان وقطع رأسه، خاصّة وأنّه لم يكن سوى مجرّد مواطن لاتيني.

خيانة بوملكار

LXX - في تلك الأثناء، كان بوملكار الذي أوحى إلى يوغرطة بمشروع الاستسلام، قد تبدّدت حجب المخاوف من أمامه تباعا[3]، مع أنّه أصبح مشبوها

(1) وتلك كانت خطّة من الرومان لمخادعة سكّان المدينة.

(2) لأنّه اتهم بالتواطؤ مع سكّان واقا.

(3) بسبب انتصارات الرومان، التي جعلته لا يخشى من العقاب حتّى لو كشف يوغرطة أمر خيانته وتواطؤه مع الرومان.

لدى الملك يوغرطة، وكان يتمنّى أن تتطوّر الحرب حتّى يتمكّن من الإيقاع بسيّده، ببعض الدسائس، وكانت هذه الفكرة تشغل باله ليل نهار، وقلّب الأمر من وجوه عديدة وانتهى إلى أن يتّصل بنبدالسا (Nabdalsa) وهو شخصية نبيلة، كان بارزا ومحبوبا جدّا من رفاقه، وكان الشخص الذي يقود الجيش في غياب الملك، و هو الذي يعتمد عليه الملك في كلّ المهامّ، خاصّة عندما يبلغ به الإرهاق حدّا لا يسمح له بالقيام بها أو أنّ انشغالات أهمّ تستوجب وجوده، وقد ضمنت له ثقة الملك الجاه والثراء وكان بوملكار لا يتوانى في الإتصال به لضبط خطّة الكيد والمؤامرة، لتحديد يوم الدسيسة، وفوق ذلك تتمّ مباغتة يوغرطة وهو في الموقع، ويكون ذلك في ظروف مواتية.

التحق نبدالسا بجيشه، وحسب الاتفاق يعسكر غير بعيد عن معسكرات الرومان الشتوية لمنعهم في حال اكتساحهم للحقول من نهبها أو الإفلات دون عقاب، ولكن استبدّ به الذعر من هول الجريمة المخطّط لها دون سابق إعلان، ووجد نفسه أسير خوفه من هول تلك المؤامرة، ولم يقو على تنفيذ المؤامرة ولم يحضر في الموعد ففشلت المؤامرة بسبب تخوّفه وكان بوملكار يرغب في تنفيذ مجازفته وفي نفس الوقت كان يتوجّس خيفة من هول المؤامرة، وعندما استبدّ به الرعب تخلّى عن خطّته الأولى وقام بالتخطيط لخطّة ثانية، وأرسل إلى نبدالسا أشخاصا يثق فيهم برسالة يعاتبه فيها على جبنه وضعفه، وأشهد الآلهة التي أقسم بها وحذّره من أن يحوّل عروض متلوس إلى خراب، وأضاف: إنّ يوغرطة أشرف على نهايته، والذي ينبغي أن نعرفه في المسألة هو أنّ ذلك سيعزى إلى شجاعتهما أم إلى شجاعة الرومان، وعليه إذن أن يقرّر ما يريد، المكافآت أم العقوبة.

خيانة نبدالسا وانكشاف المؤامرة:

LXXI- كان نبدالسا مرهقا من المهامّ التي أدّاها، ومسترخيا في سريره، عندما وصلت رسالة بوملكار، وعندما علم بها استبدّ به القلق وجعله لا يقوى على الحركة، وكان ذلك من أعراض تكون متبوعة بنوم عميق كثيرا ما تعتريه، وكان له أمين سرّ نوميدي شديد التعلّق به ومحلّ ثقته، علم بأنّ رسالة وصلته وفكّر أنّه

كالعادة يحتاج إلى خدماته ونصائحه، فدخل خيمة نبدالسا، الذي نام وترك الرسالة دون حذر على الوسادة، فقرأها كلّها فعلم بالمؤامرة، وانطلق نحو الملك.

أفاق نبدالسا بعد قليل فلم يجد الرسالة وعلم بما حدث خلال نومه فأرسل بسرعة خلف الواشي ولكن لم يتمكّن من اللحاق به، فذهب بنفسه إلى يوغرطة لتهدئته قائلا له بأنّه كان سيفعل نفس ما فعله أمين السرّ، وأقسم له باكيا بحقّ الصداقة المشهودة بينهما وبالأعمال التي قام بها إلى ذلك الوقت والتي تدلّ على وفائه، ألاّ يدينه في مثل هذه الجريمة.

LXXII- أجاب الملك عن تلك التوسّلات بلطافة، لا تعبّر عن مشاعره الحقيقية، فإذا كان قد أسلم بوملكار وغيره للموت بتورّطهم في المؤامرة فإنّه كظم غيظه إزاء غيرهم، خوفا من قيام تمرّد، إلاّ أنّه منذئذ لم يعرف طعم الشعور بالأمان ليل نهار، وكان يشكّ في الجميع، المواقع والأشخاص ويخشى من الجميع رعايا وأعداء على السواء، وكان دائم الحذر وعينه يقظة، ولذلك كان يغيّر مكان نومه على الدوام، بطريقة لا تناسب مقام الملوك أحيانا، وكان في بعض الأحيان يستيقظ مذعورا ويسرع إلى سلاحه ويدعو إلى حالة الطوارئ، والخلاصة أنّه كان يعيش في رعب شبيه بالهوس.

LXXIII - علم متلوس من الجنود الفارّين بمصير بوملكار وانكشاف المؤامرة، فشرع في الإعداد بسرعة، كما لو أنّ الأمر يتعلّق تماما بحرب جديدة، وكان ماريوس قد ضايقه كثيرا فيما يتعلّق بطلب المغادرة، ورأى أنّه من غير المجدي أن يحتفظ بشخص رغما عنه، فمنحه إجازة.

في روما، كانت العامّة على علم بالتقارير التي أرسلت حول متلوس وماريوس، وأبدت رضاها عمّا ذكر فيها عن الاثنين، قائد حديث عهد بالنبالة أضرّ به لقبه أكثر ممّا خدمه، في مقابل ماريوس وهو ذو منشأ متواضع ما انفكّ يحوز يوما عن يوم محبّة الجميع، وفيما عدا ذلك كانت الروح الحزبية هي التي تتحكّم، وليس محاسن هذا أو مساوئ ذاك، ومن جهة أخرى كان هناك من السلك القضائي متمرّدين ما انفكّوا يحرّضون الجماهير مطالبين برأس متلوس في

كلّ جمعية تعقد، مبرزين مزايا ماريوس، وانتهوا إلى تحميس العامّة وحتّى من الحرفيين والمزارعين الذين ليس لهم رصيد أو اعتبار إلاّ في سواعدهم، فقد تخلّى هؤلاء عن أعمالهم لمرافقة ماريوس مضحّين بذلك في سبيل الرفع من شأنه. وهاهي النبالة والقنصلية بعد تقطّع دام سنين طويلة، تعود إلى رجل جديد وهو شيء مذهل، وبعد ذلك تمّت استشارة تريبون العامّة ت. مانليوس منكينوس (T.Manlius Mancinus)، عن الشخص الذي يريد أن يعهد إليه بأمر الحرب ضدّ يوغرطة، فأجاب الشعب بصوت واحد: ماريوس، وكان مجلس الشيوخ قبل ذلك بمدّة قد......[1] ولكن بقي قراره دون فعالية.

استمرار يوغرطة في المقاومة:

LXXIV – في أثناء ذلك كان يوغرطة قد فقد جلّ مساعديه، وهلك عدد هامّ منهم على يديه، والذين خشوا من عاقبة ما اقترفوا التجأوا إلى الرومان أو إلى الملك بوكوس، وتبيّن له أنّه من المستحيل أن يحارب دون ضبّاط يساعدونه، وأحسّ بالخطر إذا اعتمد على مأجورين جدد، وكان قد رأى مكر وغدر كثير من القدماء منهم، فأعدّ مشاريع مختلفة عديدة، إلاّ أنّه لم يتمكّن من تنفيذ أيّ منها،ولم يرضه أيّ شيء لا الرجال ولا الحاضر ولا المستقبل وكان يغيّر كلّ يوم الطرق التي يسلكها والضبّاط الذين يسند إليهم القيادة، فتارة يسير صوب العدو وطورا يغوص في الصحراء وكثيرا ما فكّر في الفرار ثمّ يعود إلى الثقة في المقاومة، وفي شجاعة ووفاء رعاياه، ولكن حيثما قلّب الأمور وجدها ضدّه، وفي خضمّ هذا التردّد، تراءى له متلوس فجأة على رأس جيشه، فقام يوغرطة بتسليح وتصفيف جنده قدر المستطاع، ووقعت المعركة[2]، وقاوم الجند المحيطون بالملك،

(1) هنا فراغ في النصّ الأصلي من المخطوطة، وقد حاول الباحثون ملء هذا الفراغ حسب السياق الذي يفهم منه بأنّ مجلس الشيوخ حاول أن يصدر مرسوم قرار للوقوف بموجبه في وجه صعود رجل جديد من طبقة العامّة إلى القيادة العليا التي ظلّت حكرا على المنتمين إلى طبقة الأشراف لوقت طويل.

(2) لا يشير سالوست هنا إلى مكان المعركة، وتفاصيلها، وهنا يغلب الطابع الإنشائي على وقائع التاريخ الحقيقية.

في حين تضعضع الآخرون من أول صدام وانهزموا فاستولى الرومان على كمّية هامّة من أسلحتهم أمّا الأسرى فكانوا قليلين، لأنّ النوميد خلال الهزيمة يعوّلون على سيقانهم أكثر من سلاحهم.

معركة ثالة

LXXV - بعد هذه الهزيمة يئس يوغرطة نهائيا من جدوى قوته، واتجه نحو الصحراء ومعه الجند الفارّون وقسم من فرسانه، ثمّ عاد إلى مدينة ثاله (Thala) وهي مدينة كبيرة وغنية، وفيها كان يوجد القسم الأكبر من كنوزه والقصر الفخم الذي يقيم فيه أبناؤه الأمراء.

عندما علم متلوس بذلك ورغم شساعة الصحراء، فقد ذكروا له بأنّه يوغرطة يوجد على بعد خمسين ميلا ما بين ثالة وأقرب نهر، ومع ذلك فقد كان أمله أن يتمكّن من وضع نهاية لهذه الحرب بالاستيلاء على تلك القلعة، فشرع في العمل لتذليل الصعاب وللتغلّب على الطبيعة ذاتها، وجرّد حيوانات النقل من كلّ الأمتعة التي كانت تحملها، ولم يترك عليها سوى مؤن من القمح تكفي لمدّة عشرة أيام، وكذلك القرب والأواني المخصّصة لنقل الماء وفوق ذلك استولى على أكبر عدد ممكن من الحيوانات التي صادفها في الأرياف وجعل عليها أحمالا من مختلف الأواني لاسيّما المصنوعة من الخشب وقد جمعت من خيام النوميد، وألزم كلّ السكّان الذي استسلموا له بعد هزيمة الملك أن يجلبوا ما استطاعوا من الماء، وحدّد لهم اليوم والمكان الذي يجب عليهم أن يحضروا فيه، وتزوّد هو من ماء النهر الذي تتموّن منه المدينة. وانطلق نحو ثالة، وعندما وصل إلى المكان الذي حدّده للقاء النوميد، كان المعسكر قد هيّئ وأقيم، سقطت كمّية معتبرة من الأمطار كانت أكثر ممّا يكفي لحاجة الجند، وعلاوة على ذلك تجاوزت المؤونة المحمولة الآمال المعلّقة عليها. لأنّ النوميد نقضوا الاتفاق فقد لسعتهم نار الحمية كما هو حالهم دائما إثر إذعان حديث العهد، أمّا الجنود الرومان فبسبب الهاجس الديني استعملوا مياه الأمطار فزاد ذلك من شجاعتهم، لأنهم كانوا مقتنعين بأنّ الآلهة تحميهم، وفي الغداة وصل الجيش الروماني - على غير ما توقّع يوغرطة - أمام ثالة، وقد

بدت الحيرة على سكّانها إزاء اندفاع الرومان في مناورة لا قبل لهم بها، فقد كانوا يعتقدون أنّ وعورة المنطقة ستحميهم، ولكن لم يتوانوا في الإعداد للمعركة، وكذلك الرومان.

LXXVI - اعتقد متلوس ألاّ شيء مستحيل أمامه، من تلك الفترة فصاعدا فقد انتصر على جميع العراقيل بقوّته، في الدفاع والهجوم، ورغم الميدان والفصل، وحتّى الطبيعة ذاتها وما فيها من صعوبة، فإنّه انتصر، أمّا الملك يوغرطة فقد فرّ بنفسه ليلا من المدينة صحبة أبنائه ومعه قسم كبير من ثروته، ومنذئذ أصبح لا يمكث في مكان أكثر من يوم أو ليلة، متذرّعا بأنّ وضعيته تتطلّب ذلك، إلاّ أنّه في الحقيقة كان يخشى الخيانة، آملا في أن ينجو منها، ولربح الوقت لعلّ الفرص المواتية تعود، أمّا متلوس من جهته فقد رأى أنّ السكّان وطّدوا العزم على الدفاع عن أنفسهم، وكان موقع المدينة منيعا زيادة على تحصيناتها.

شرع متلوس في العمل العسكري بإحاطة الأسوار بحباك (Moenia)، وأقام أخصاصا في مقدّمة مركزين أكثر ملاءمة جعلهما قاعدة أقام عليها أبراجا لحماية العمّال، ومن جهتهم تأهّب أهل ثالة للدفاع، ولكن بعد أربعين يوما من العمل والمعارك استولى الرومان على المدينة، وعندما رأى هؤلاء مدينتهم وهي تسقط في أيدي العدو شعروا بالضياع وعرفوا أنّ أموالهم ستُنهَب، فقاموا بنقل الذهب والفضّة وكلّ ما هو نفيس إلى القصر الملكي وهناك أكلوا وشربوا ممّا لذّ وطاب وأسلموا الباقي لألسنة النار، وبذلك أتلفوا ودمّروا كلّ ما يمكن غُنْمه، وفعلوا بالقصر وبأنفسهم ما كان سيفعله المنتصر.

LXXVII - أثناء سقوط ثالة، كان وفد من مدينة لبدة قد جاء للقاء متلوس، ورجاه أن يرسل إليهم حامية عسكرية، فهم في خطر من قبل شخص يدعى هاملكار وهو رجل نبيل وداهية يعدّ للقيام بثورة، وهو متمرّد على الحكّام وعلى القوانين، وإذا لم يسرع متلوسٍ في التدخّل فإنّ وجودهم -وهم حلفاء روما- سيتعرّض لخطر كبير، وكان سكّان لبدة - منذ بداية الحرب ضدّ يوغرطة - قد أرسلوا وفدا إلى القنصل بستيا أوّلا ثمّ إلى روما بعد ذلك، يترجّون صداقة الرومان والارتباط معهم

بحلف، فنالوا ذلك، ومنذئذ بقوا على ولائهم وإخلاصهم، وكانوا يطبّقون بأمانة كلّ أوامر بستيا ثمّ ألبينوس ومتلوس، فوافق لهم القائد على مطلبهم وأرسل إليهم أربعة فرق ليغورية بقيادة أنيوس (Annius).

نبذة تاريخية عن مدينة لبدة

LXXVIII - أُسِّست لبدة من قبل صوريين، كما سبق الذكر، طُردوا من بلادهم بسبب اضطرابات أهلية، فجاءوا عن طريق البحر واستقرّوا بهذه المناطق، وتقع لبدة بين خليجي سيرت، وهو الاسم الذي يطلق على تلك السواحل كلّها، على أنّ سيرت في الحقيقة ما هو إلاّ اسم لخليجين يقعان في طرف أفريقيا تقريبا وهما غير متماثلين في الاتساع، ولكن يتماثلان في العمق الكبير ابتداء من الضفاف. وأجزاؤهما الأخرى معرّضة لحدوث الدوّامات والزوابع، والواقع أنّه عند هيجان البحر بسبب الرياح تقوم الأمواج بدفع الرمال والأوحال وحتّى الصخور الكبيرة بحيث تغيّر معالم أماكن كثيرة من السواحل، وقد اشتقّ اسم سيرت من فعل إغريقي يعني: سَحَب، ولكن تغيّر في لسان أهل لبدة فقط.

تلا ذلك تزاوج بين الوافدين والنوميد وأصبحت القوانين والأخلاق والعادات غالبا هي نفسها التي في صور بقدر ما كانوا بعيدين عن مركز السلطة الملكية [النوميدية][1] كان سهلا عليهم الاحتفاظ بها، خاصّة وأنّ بينهم وبين القسم الآهل من نوميديا صحاري شاسعة.

أسطورة الفيلان:

LXXIX - ولأنّ أحداث لبدة تنقلنا إلى تلك الجهات، يتبيّن لي أنّه من الجدير في هذا المقام، ذكر البطولة الخارقة لقرطاجيين اثنين، ذكّرني بهما الحديث عن هذه المدينة، ففي العصر الذي كانت فيه قرطاج سيّدة القسم الأكبر من أفريقيا، كانت تنافسها مدينة أخرى لا تقلّ عنها ثراء وقوّة، وهي مدينة قورين (Cyrne).

(1) بسط الملوك النوميد نفوذ مملكتهم على لبدة الكبرى التي عادت إلى وطنها نوميديا منذ الحرب البونية الثانية، أنظر أعلاه الفقرة 5.

يمتدّ بين المدينتين سهل رملي رتيب، وليس هناك نهر أو جبل يمكن أن يشكّل حدّا فاصلا بينهما، وكان ذلك سببا في حروب طويلة بين المدينتين، كان النصر فيها سجالا بين جيوش وأساطيل الطرفين، وقد أنهك الخصمان بعضهما البعض كثيرا، لذلك خشيا أن تستهلك الحرب - إن استمرّت - المنهزم والمنتصر، على السواء وعليه لماذا يبقيان فريسة عدوان يتجدّد باستمرار، وللنظر في الأمر اتفقا على عقد هدنة، وإقرار حلّ نهائي على النحو التالي:

في اليوم المحدّد ينطلق ممثّلا البلدين، كلّ واحد من مدينته في وقت واحد، وتكون النقطة التي يلتقيان فيها حدودا معترفا بها من قبل الشعبين، ولتطبيق الاتفاق، عيّنت قرطاج أخوين لقبهما: الفيلان (Philene) فانطلقا بسرعة، في حين كان القورينيون بطيئين في سيرهم، ولا ندري إن كان ذلك بسبب الكسل أو شيء آخر، في تلك الأقاليم التي لا تقلّ عن البحر المتلاطم، لأنّ الزوابع تحول دون التقدّم في السير، وعندما تهبّ الرياح في تلك السهول الشاسعة والجرداء، يعلو الجو ضباب كثيف من الرمال التي تدفعها الرياح العاتية، فتملأ عيون وأفواه المسافرين وتحجب عنهم الرؤية، وتؤخّر السير.

لاحظ القورينيون أنّهم لم يتقدّموا في السير كفاية، وتخوّفوا من العقاب بتهمة خيانة قضية مدينتهم فوجّهوا تهمة الانطلاق قبل الوقت المحدّد إلى القرطاجيين، ورفضوا نتائج العملية، وفضّلوا أن يعودوا منهزمين خائبين، أمّا القرطاجيون فطلبوا تحديد شروط أخرى على أن تكون منصفة، وفي تلك الأثناء خيّرهم الإغريق بين أن يتركوهم يحدّدون النقطة الحدودية شرط أن يقوم هؤلاء بدفن القرطاجيين أحياء في المكان الذي يريدون تثبيت حدود بلادهم فيه، وتمّت الاتفاقية وضحّى الفيلان من أجل وطنهم بأنفسهم وحياتهم ودفنوا أحياء، وقد أقام القرطاجيون في ذلك المكان هيكلا يحمل اسمهما منحهما الخلود في قرطاج نفسها، والآن أعود إلى الموضوع[1].

---

(1) يقع هيكل الفيلان على بعد حوالي 180 ميلا من قرطاج وحوالي 80 ميلا من قورين، ويقوم في منطقة رملية على حدّ قول بلين أمّا مغامرة الفيلان فهي أسطورة ذات حبكة إغريقية كما هو واضح.

يوغرطة ينتقل إلى الصحراء ويكوّن جيشا من الجيتول ويتحالف مع بوكوس:

LXXX - اقتنع يوغرطة منذ ضياع ثالة بأن لا شيء يمكن أن يقاوم متلوس، ولم يكن باستطاعته أن يتمركز في موقع معيّن، فانطلق مع عدد من رجاله عبر الصحاري الشاسعة، حتّى وصل إلى الجيتول (Gaetulii) وهم قوم بدائيون ومتوحّشون ولم يكونوا يعرفون الرومان حتّى بالاسم، فأخذ يدرّبهم ويعوّدهم على النظام والانتظام في الصفوف ومتابعة التعليمات والعمل بمقتضى الأوامر، والخلاصة كلّ واجبات العمل العسكري، وضمّ إليه من جهة أخرى عن طريق الهدايا والوعود الكبرى مستشاري الملك بوكوس المقرّبين، وبمساعدتهم وصل إلى الملك ذاته وأقنعه بإعلان الحرب على الرومان.

كان بوكوس في بداية الأعمال الحربية ضدّ يوغرطة قد أرسل وفدا إلى روما ليطلب عقد تحالف، ومع أنّ المفاوضات في هذا الشأن كانت ستعود علينا بمزايا كثيرة في هذه الحرب، إلاّ أنّها فشلت بسبب تواطؤ بعض الأشخاص الذين أعمى الجشع بصيرتهم، أولئك الذين لا يهمّهم أن يكون مصدر المال خيرا أم شرّا.

تزوّج يوغرطة من ابنة بوكوس، والحال أنّ هذا الارتباط لا يعني شيئا عند النوميد والمور على السواء، فكلّ واحد حسب موارده له العديد من النساء، البعض عشرة والبعض الآخر أكثر من ذلك، أمّا الملوك فأكثر من ذلك بكثير، وفي مثل هذه التعدّدية يضيع الحبّ، بحيث لا ترقى أيّ منهنّ إلى مقام الشريكة الحقيقية، فكلّهنّ محتقرات.

LXXXI - اجتمع الجيشان في مكان اتفق عليه الملكان، وهناك -بعد تبادل القسم- ألقى يوغرطة خطابا ألهب فيه حماس بوكوس، وممّا جاء فيه: «إنّ الرومان شعب ظلوم، وبخله لا حدود له، وهم أعداء كلّ البشرية، وأنّهم إنّما يحاربونه هو وأمم أخرى بجيوشهم لسبب واحد هو رغبتهم في التسلّط، الأمر الذي جعلهم خصوما لكلّ الدول، اليوم أنا وبالأمس القريب القرطاجيون والملك برسي[1]، وغدا كلّ من يتبيّنون أنّه الأغنى سيكون عدوّهم». وبعد خطابات مماثلة

(1) برسي، ألبا فوكنس (Persée, Alba, fucens)-آخر ملوك مقدونيا انتصر عليه الرومان في معركة بودنا (Pydna) في 168 ق.م.، جُرّد من مملكته ومات أسيرا في روما.

عديدة، قرّر الملكان الزحف نحو سيرتا وهي المدينة التي كان متلوس قد أودع فيها غنائمه وأسراه وأمتعته، وقد فكّر يوغرطة بأنّه سيجد في استرجاع المدينة تعويضًا من العناء، وأنّه بالأحرى إذا جاء القائد الروماني لنجدة حلفائه[1]، فسيعاجله في الميدان بخوض المعركة ضدّه، لأنّ الداهية النوميدي ليس أمامه سوى أن يستعجل الأحداث وأن يوصل بذلك بوكوس إلى قطيعة نهائية مع الرومان خشية أن يؤدّي الانتظار الطويل إلى ترجيح حلول أخرى على الحرب.

LXXXII - عندما علم القائد متلوس بتحالف الملكين، احتفظ برباطة جأشه ولم يرد الاندفاع على الإطلاق، ولا فتح الباب للحرب في أيّ ميدان وكان قد تعوّد على ذلك بعد عديد الهزائم التي كبّدها ليوغرطة من ذي قبل، واختار أن ينتظر الملكين غير بعيد عن سيرتا في معسكر محصّن، وفكّر في أنّ عليه أوّلا أن يعرف عن المور الشيء الكافي لأنّهم يمثّلون الآن عدوا جديدا، لكي لا يحارب إلاّ بما يلائم المعركة، والحال أنّه علم من رسالة جاءت من روما بأنّ مقاطعة نوميدما منحت لماريوس، وكان قد علم بأنّ ماريوس قد عيّن قنصلا.

كان لهذه الأخبار وقع الصاعقة على متلوس، وأحسّ بالانهيار، وناله الجزع، فلا هو يستطيع أن يحبس دموعه ولا أن يلطّف كلامه، ومع علوّ مقامه لم يستطع تحمّل حزنه، وقد عزا البعض موقفه ذاك إلى الكبرياء، والبعض الآخر عزاه إلى سخط قلب نبيل أهين إهانة كبيرة، وقد ساء الأغلبية أن ترى نفسها وهي تنسحب من نصر وشيك، ونحن جميعا نعلم أنّ ما آلمه كثيرا هو اعتلاء ماريوس القنصلية وأن حزنه سيكون أقل لو أنّ المقاطعة التي انتزعت منه سلّمت إلى أيّ قائد آخر غير المساعد الذي كان يعمل تحت إمرته.

اتصال الرومان ببوكوس لثنيه عن مؤازرة يوغرطة:

LXXXIII - توقّف متلوس عن إتمام مشاريعه بسبب غيظه، ورأى أنّه من الحماقة أن يظهر مشاعره حيال قضية أضحت لا تعنيه، وأرسل إلى بوكوس وفدا

(1) من يقصد سالوست هنا بالحلفاء، هل يقصد سكّان سيرتا الذين يكونون قد أبرموا صلحا وحلفا مع الرومان وسلّموهم المدينة بموجب ذلك؟، ويستخلص من النصّ بأنّ متلوس يكون قد استولى على المدينة في حملته صيف 108 ق.م. ولكن سالوست لا يذكر شيئا عن فصول تلك الحرب.

«يثنيه عن إعلان الحرب دون مسوّغ، ضدّ الشعب الروماني، وأنّ الفرصة مواتية لعقد معاهدة تحالف وصداقة أفضل بكثير من الحرب، فبعض الثقة التي يكنّها لقواته لا يمكن أن تجعله يخاطر من أجل شيء غامض، إضافة إلى أن الحرب عموما سهلة في البداية ولكن عواقبها وخيمة وليس للإنسان ذاته سلطة في إعلانها أو إنهائها في جميع الأحوال، إنّ أيّا كان يستطيع الشروع فيها حتّى ولو كان جبانا أمّا إنهاؤها فيتطلّب إرادة قائد مظفّر يضع في الاعتبار ما يمكن أن يجنيه هو ومملكته من فوائد، بحيث لا يبدّد ثروته الكبيرة مقابل التيه الذي يعيشه يوغرطة».

كان ردّ الملك بوكوس على هذه الإشارات ردّا معتدلا، وهذا بعض ما جاء فيه: «إنّه يرغب في السلم، ولكن أشفق على يوغرطة للوضعية التي هو فيها، فإذا وافقنا لهذا الأمير على الشروط نفسها التي وافقنا له عليها سيكون من السهل التفاهم على كلّ النقاط[1]».

ردّ القائد على جواب بوكوس باقتراحات مماثلة، قبل الملك قسما منها، ورفض البعض الآخر، وهكذا مرّ الوقت في تبادل المراسلات بين الطرفين، وبذلك تحقّقت رغبة متلوس في تأجيل الحرب.

انتخاب ماريوس قنصلا:

LXXXIV- ازداد ماريوس منذ انتخابه قنصلا وتعيينه على رأس مقاطعة نوميديا بفضل حماس العامّة الكبير، عداؤه تصاعدا تجاه الأشراف ضراوة وعنفا، وكان يتصدّى للأفراد أحيانا وطورا لجماعات بكاملها، وراح يكرّر بأنّ تولّيه القنصلية هو ثمرة الانتصار الذي حقّقه عليهم، ويضيف أقوالا أخرى بقدر تمجيدها له كانت مهينة لهم، والحال أنّه جعل الاهتمام بالاستعداد للحرب في المقام الأول، وأكمل توزيع الجند، وجهّز الفرق الداعمة من قبل الشعوب والملوك والحلفاء، واستدعى إليه أبرز الشجعان من جنود اللاتيوم، وكان يعرف أغلبهم

---

(1) المقصود بالأمير هو يوغرطة، أي أنّ الرومان إذا وافقوا ليوغرطة على نفس الشروط التي وافقوا عليها لبوكوس فإنّ يوغرطة - حسب رسالة بوكوس- سيقبل هو الآخر السلم مع الرومان.

لأنّهم خدموا تحت قيادته، وفي عدادهم بعض المشاهير من قدماء الجند المسرّحين، وهذا للسير معه.

رغم استياء مجلس الشيوخ، فإنّه لم يجد مبرّرا لرفض ماريوس،بل انتخبه عن طيب خاطر، وكان المجلس يعتقد أنّ العامّة هي التي ترفض الخدمة العسكرية، وأنّ على ماريوس أن يتخلّى إمّا لعدم التمكّن من جمع وسائل الحرب أو لافتقاره لتعاطف الجماهير، ولكن اتضح أنّ هذه الحسابات خاطئة، لقد كان الجميع يتحرّق شوقا إلى مرافقة ماريوس، واغترّ الجميع بما يمكن أن يجمعوه من مغانم، والعودة مظفّرين إلى منازلهم، وكانوا يجترّون آلاف الآمال المماثلة، ولكن خطاب ماريوس لم يتمكّن من إثارة حميتهم، لأنّه بعد أن تلقّى من مجلس الشيوخ كلّ القرارات الضرورية، أراد القيام بإجراءات القيد، فدعا إلى جمعية عامّة وبقدر ما كان يقدّم النصح للشعب كان يبرز مساوئ الأشراف، كما هي عادته،وهاهو الخطاب الذي ألقاه:

خطاب ماريوس عند تعيينه قنصلا وقائدا للحرب في نوميديا

LXXXV – **أيها المواطنون**: إنني أعرف جيّدا بأن الأغلبية من الناس يظهرون أنفسهم على أنهم شيء آخر عندما يطلبون منكم السلطة في حين يظهرون في شكل آخر مغاير تماما عندما ينالونها، وقبل ذلك تشاهدونهم مثابرين متوسلين ومتواضعين، وبعد أن ينالوها لا يعيشون إلا في كبرياء وميوعة، أما بالنسبة إلي فإن لي من المشاعر ما يخالف ذلك تماما عن عموم الجمهور، وتلك سجية أعظم درجة من القنصلية والبريطورية.

أيها المواطنون: ينبغي العمل أكثر لضمان تحقيق تسيير جيّد لا لالتماس هذه الألقاب الشرفية، إنكم أنتم الذين كلفتموني بالحرب ضدّ يوغرطة، وهو الشيء الذي أثار سخط النبلاء كثيرا، فانظروا أنتم في الموضوع مليا، أرجوكم إذا كان الرجوع في هذا الاختيار أفضل أن تفعلوا، فإرسال أي آخر إلى هذه المهمة أو أي مهمة أخرى مماثلة يكون من تكتل النبلاء، لا ريب أنه سيكون من سلالة عريقة، غني بقائمة أسلافه فقير في جدول خدماته، وإذا حاول القيام بالمهمة وكدّ في

سبيل ذلك سيتعثر وفي النهاية ينتقي من الشعب رجلا يرى فيه الاقتدار عمليا، وهكذا مثلما يحدث في كثير من الأحيان يحث ذلك الذي عينتموه للقيادة بدوره عن آخر يقوده، إنني أعرف أيضا مواطنين بمجرد انتخابهم لشغل منصب القنصلية، تراهم يضعون لقراءة أعمال أسلافنا ومفاهيم الإغريق في الفن العسكري أشخاصا يعملون بالمقلوب، لأنهم ينبغي أن يكونوا منتخبين لكي يتمكنوا من أداء تلك المهام، ويجب عليهم في البداية ممارستها عمليا، فقارنوا ذلك الآن.

أيها المواطنون: مع كبرياء هؤلاء الأشخاص ورغم أن المجد الذي يدّعونه لا يعرفونه إلاّ عن طريق القراءة أو الرواية، فأنا -الرجل الجديد الذي يتمثل في شخصي- مارست وشاهدت كل الذي أخذوه عن الكتب، لقد رأيته وعشته في الحروب، والاحتكام الآن إليكم، فأيهما أفضل، الأقوال أم الأفعال، إنهم يحتقرون نشأتي وأنا أحتقر جبنهم، وبالنسبة إليّ، إنها درجتي، وفي نظرهم ليست إلاّ عارا يوضع إلى جانبهم،وفي ما عدا ذلك، فإنني أعتقد أن الفطرة البشرية واحدة، وأنها ملك مشاع بين الجميع، وأن الشجاعة هي التي تصنع النبل، وأنه لو أتيح لنا أن نطلب إلى أسلاف ألبينوس أو بستيا، من يفضلون أن يكون ابنهم، هم أم أنا، ما ذا يكون الجواب، تصوّروا، لا ريب أنهم سيمنحون الحياة للأنجب، وإذا كان للنبلاء حق تحقيري فأنا لا اجهل مقدار المهمة التي أضطلع بها، وأتقبل الشرف الكبير الذي قلدتني إياه التفاتتكم الكريمة، وها أنذا أعدّ للحرب مقتصدا في النفقات العسكرية، موفّرا بذلك على الخزينة أعباء هي في غنى عنها، وألزم على العمل العسكري أفرادا دون الحاجة إلى الاصطدام بهم شاملا الجميع في الداخل والخارج بالرعاية، وقد نهضت بكل هذه المهام رغم ما أحاط بذلك من الحسد والدسائس والمعارضة، أيها المواطنون: إنه شيء أقوى مما نتصوّر، أضيفوا إلى ذلك أنه لو أن هذه الأعمال يمكن أن تنقص من نبلهم العريق ومآثر أسلافهم السامية، وبذل ذويهم وأقربائهم بالدم أو المصاهرة، فإن العدد الكبير من زبائنهم إنما يعمل على مساعدتهم، لوجدنا في موقفهم ما يبرر أعمالهم أما أنا فأعلق كل آمالي على نفسي ولا أدافع إلاّ عن مكانتي وجدارتي، لأن ما عدا ذلك ليس له أدنى حساب. أيها المواطنون: إنني أرى

أيضا أن كل الأنظار مصوّبة نحوي، على أن ذوي العدالة والنزاهة يدركون أن خدماتي ذات جدوى كبيرة للجمهورية، وأنهم راضون عني، أما النبلاء فهم يبحثون عن أنسب فرصة للانقضاض عليّ، أفلا يجب عليّ أن أضاعف الجهود حتى لا أتركهم يضمونكم إلى جانبهم وحتى يوم الناس هذا نشأت نشأة جعلتني أتعوّد على خوض كل الصعاب والأعمال، ومع أنني قبل أن أنال من نعمكم كنت لا أرجو من وراء خوض تلك الصعاب أي شيء، فهل أتخلى عنها الآن.

أيها المواطنون: والآن وقد استلمت المكافأة، هاهم أولاء -الذين طيلة تحايلهم، يتداركون أن يكونوا خارج نطاق القانون- يجهدون أنفسهم للظهور بمظهر الاعتدال في ممارسة السلطة، أما أنا فقد قضيت حياتي كلها متحليا بالشجاعة والفضائل، وتقاليد الاستقامة التي اكتسبتها أضحت لديّ طبيعة ثانية، وإذا كان للنبلاء حق تحقيري فإن نبلهم بالنسبة إليّ لا يكون إلا بمقدار جدارتهم،إنهم يغبطونني على المكانة التي حققتها، فمن يكون هؤلاء إلى جانب اجتهادي واستقامتي وحتى مجازفاتي، إنّني بفضل كل ذلك نلت هذه المكانة، أما أولئك فقد أفسدتهم كبرياؤهم، إنهم يحيون كما لو أنهم يستخفّون بأمجادكم ويتحايلون في الظهور مظهر العزة، إنهم يخطئون لو أرادوا الحصول على شيئين متناقضين دفعة واحدة، لذائذ الدعة ومكافآت الاستحقاق، وفوق ذلك ترونهم عندما يأخذون الكلمة أمامكم أو أمام السيناتوس يملأون خطبهم بإطراء أسلافهم معتقدين أن التذكير بتلك المآثر السامية تزيد من سموّ أمجادهم الشخصية ما في ذلك ريب، فإذا كانت حياة بعضهم لامعة حقا فإن الآخرين كان جبنهم دنيئا، تلكم هي الحقيقة، إن مجد الأسلاف بالنسبة لعقبهم مثله مثل المشعل لا يبقي في الخفاء لا فضائلهم ولا رذائلهم، أمّا أنا فليس لي أسلاف أتذرع باسمهم، أعترف بذلك.

أيها المواطنون: إن ما هو مجيد حقا هو أنني أستطيع الكلام عن مآثري الشخصية فهلاّ تراءى لكم جورهم، هؤلاء الذين يدّعون باسم الأحقية ما ليس لهم، ولا يريدون الإقرار بجدارتي الشخصية، ودون ريب فإن هذا يعود إلى أنني ليس لديّ أسلاف نبلاء، وأن نبلي جديد كل الجدّة، على أنه من الأفضل أن

أكونه بنفسي على أن أتلقاه من آخرين بصفة غير مشرّفة. أنني لا أجهل أنهم إذا أرادوا أن يردّوا عليّ فورا فإن لهم القدرة على ارتجال خطب جيّدة، على أنه مثلما انتهزوا فرصة تقليدكم إياي هذا الشرف العظيم ليطعنوا في حقي وحقكم أينما حلوا، فإنني لا أريد التزام جانب الصمت خشية أن يفهم حيائي على أنه إقرار بذلك، وفي ما يخصني فإنني مقتنع أشد الاقتناع بشخصي، وليس هناك أيًّا من الخطب يمكن أن يزعجني، وحقيقي فإنه لا يمكن أن يكون ثنائي هذا رياء، فسيرتي وأخلاقي كافية لدحض أي بهتان يقال في حقي، إلا أنه طالما أن قراراتكم هي محل طعن وأنهم وبخوكم لأنكم منحتموني أسمى المراتب وأوكلتم إليّ بأثقل المهمات، فهل هذا سيؤدي بكم إلى الندم، إنني لا أستطيع إظهار أمجاد انتصارات حققها أسلافي أو قنصليات تولوها - لأستلهم ثقتكم - غير أنه إذا لزم الأمر أستطيع إظهار الرماح والراية والمكافآت وغيرها من الأوسمة العسكرية، هذا دون الكلام عن جروحي التي تلقيتها كلها من الأمام[1]، إنها صور مجدي، إنه نبلي أعرضه عليكم، إنها ألقاب لم تصلني عن طريق الإرث مثلهم، ولكنني انتزعتها مقابل متاعب وأخطار لا حصر لها. إن كلماتي هذه ليست منمقة فلم أذكر كل أعمالي ولست في حاجة إلى التنميق فالفضائل تبدو وتظهر في ذاتها ومن خلال ذاتها، أما هؤلاء فهم الذين يتصنعونها في خطبهم، حتى يتمكنوا من تغطية دناءاتهم لا أكثر، وأنا لم أدرس الآداب الإغريقية إلا نادرا، بل انشغلت بدراسة لم يعرف سادة البيان كيف يستلهمون منها حب الفضائل، هذا الذي تعلمته هو الأجدى للجمهورية، إنه ضرب العدو والإقدام وعدم الخوف من أي شيء سوى العار، وفوق ذلك تحمّل الحر والقرّ، والنوم على اليابسة في الأرض العراء، وتحمل الجوع والتعب وهذه دروس ألقنها لجنودي الذين لا أفرض عليهم التضحيات الجسيمة لتوفير الراحة والبذخ لي، إنني لا أنسب لنفسي المجد كله في حين أترك لهم كل العناء والمشقة، تلكم واجبات القيادة في نظر قائد مهتمّ بمصلحة الوطن وكرامة المواطنين، لا أن يحيى في ميوعة

---

(1) إشارة إلى أنّه لم ينهزم على الإطلاق.

وترف بينما يخضع جيشه لكل ما يستوجبه الانضباط من صرامة إلى درجة العسف، هنا يكون طاغية لا قائدا، وإذا كنا نطبق هذه المبادئ التي أقام أسلافكم مجدهم ومجد الجمهورية عليها، فإن النبلاء -اعتزازا بأولئك الرجال العظماء، رغم أن عددهم قليل- هاهم يزدروننا نحن أقرانهم ويشترطون عليكم كل الأمجاد، كما لو أنها مستحق أو واجب، دون التفكير في استحقاقها ومن الأجدر بها. على أن هؤلاء الأشخاص من ذوي الكبرياء مخدوعون غاية الانخداع، فإذا كان أسلافهم قد خلفوا لهم ما كان في إمكانهم أن يخلفوه من ثروات وصور رائعة وذكريات مجيدة، فإنهم لم يورثوهم فضائلهم ولم يكن في استطاعتهم ذلك، إنه الشيء الوحيد الذي لا نستطيع أن نهبه أو أن نتلقاه. يقولون عليّ أنني لا أعرف شيئا اسمه تنظيم الأكل، أبدا، وأنه ليس لي خدم ولا طاهي، لأن ذلك سيكلفني كل ما أملك ، إنه الإقرار الذي أرتاح إلى الإدلاء به.

أيها المواطنون: لأنني تعلمت من أبي ومن أشخاص فضلاء آخرين أن الأناقة من نصيب النساء، وأن العمل إنما هو للرجال، وأن كل الرجال من ذوي الضمائر الحية ينبغي أن يكرسوا حياتهم لتحقيق الأمجاد لا لجمع الثروات، فالأمجاد هي السلاح، وهي الحلية الحقيقية وليس الثروة والألقاب المتوارثة، إذن ألا يكون من الأفضل الاستمرار في مسلكهم ذاك، وأن يعملوا ما يريدون عمله ولو كلفهم غاليا، لا أن يشربوا ويعربدوا ويمضوا شيخوختهم حيث أمضوا شبابهم في القصف... إنهم عبيد الأماكن المخجلة من أجسامهم، على أن يتركوا لنا العرق والغبار وما شابه ذلك مما نفضله على مآدبهم. إن ما يحدث هو العكس، فبعد أن يبلغ هؤلاء السفلة غاية الخزي من كل الانحرافات، يأتون لاختطاف المكافآت الجديرة بالفضلاء، وذلك بجور طافح، وبأقبح الرذائل: الفسق والدعة. إن هذا لن يلحق ضررا بهم بل إن الجمهورية وحدها هي التي ستتضرّر دون ذنب اقترفته. والآن وقد أجبتهم بإسهاب قد أكون مغاليا فيه إلى حد ما، في وصف قسوتهم، أودّ أن أقول لكم ما يليق بالمقام: بادئ ذي بدء، وفي ما يخص نوميديا، لا ينبغي أن يكون لديكم أدنى قلق أيها المواطنون، فالعراقيل التي يشكلها استمرار يوغرطة في ثباته إلى حد الآن لستم العلة فيها، أودّ أن أقول لكم أن العلة فيها هي الجشع

والقصور والغرور، وعليه فإن لديكم هناك جيش يعرف البلاد، لكن وحق هرقل، ينقصه الحظ فقط، وليس الشجاعة، فقد أضعفه شح قادته وتهورهم. إذن ضمّوا جهودكم إلى جهودي أنتم الذين في سن تسمح لكم بحمل السلاح، وتعالوا إلى خدمة الجمهورية، على ألا تخجلكم تعاسة رفاقكم ولا كبرياء قادتهم، سأكون شخصيا معكم في الزحف مثلما هو في المعركة، سأكون معكم أقاسمكم الأخطار أكثر من أن أقودكم، ولن تكون أية فروق بيني وبينكم وهكذا تتضح الأشياء وبعناية الآلهة ستحقق ثمرات المعركة كلها من انتصار وغنيمة ومجد، وبعد: أما زال لديكم ريب في ذلك، أليس من واجب كل مواطن مخلص أن يطير لنجدة الجمهورية، إن الجبن لا يعصم أحدا من الموت أبدا، كما أنه لا يوجد أب لا يتمنى لأبنائه الخلود، على أن يكون ذلك الخلود في الفضائل والعز، وأضيف أيها المواطنون أن الحديث هنا إنما هو لتشجيع الجبناء أما الشجعان فأعتقد أنني قلت ما فيه الكفاية.

التحاق ماريوس بأفريقيا واستلامه القيادة من متلوس:

LXXXVI- على إثر هذا الخطاب أراد ماريوس استغلال حماس العامّة، فعجّل في شحن المؤن وباقي الأمتعة وأعطى الأمر لمساعده أ. مانليوس (A. Manlius)، بالمسير مع القافلة ضمن الحراسة، وقام بتجنيد الجدد، دون اتباع التقاليد السابقة ودون الاعتبارات الطبقية، بل قبل كلّ المتطوّعين وكانوا في أغلبهم من البروليتاريا المفصولين من الخدمة، وهو الأمر الذي فسّره البعض بأنّه قبلهم لعدم توافر آخرين أفضل، والبعض الآخر فسّره بالطموح لأنّه بفضلهم ارتقى سلّم الشهرة، والواقع أنّ خير نصير لرجل يبحث عن السلطة، هم الأكثر عوزا، لأنّه لا شيء يفتقدونه، وليس عليهم أن يتدبّروا أيّ أمر، والمهمّ هو النزاهة البادية في عيونهم.

أبحر ماريوس إذن نحو أفريقيا، مع فيالق أكثر عددا ممّا هو مقيّد في المرسوم، وأرسى في أوتيكا بعد بضعة أيام من ذلك، فسلّمه المساعد ب.روتيليوس (P. Rutilius) قيادة الجيش، لأنّ متلوس كان يتحاشى مقابلة ماريوس حتّى لا يرى بأمّ عينيه ما لا يحتمل أن يراه.

ماريوس يقود عمليات النهب وتقتيل العزّل

LXXXVII - بعد أن أنهى القنصل تجميع الفيالق والفرق المساعدة، انطلق في المسير في بلد خصب وغني بالغنائم، وأطلق يد الجند للنهب، ثمّ هاجم بعد ذلك الحصون والمدن الواقعة في أماكن سهلة، وليست لها حاميات قوية، وشنّ الغارات على أماكن عديدة وخاض معارك خفيفة، حتّى اعتاد المجنّدون الجدد على هذه الطريقة وأخذوا دورهم في العمل الحربي دون خوف، ورأوا بأنّ الفارّين مصيرهم القتل أو الأسر، والشجعان هم الأقلّ عرضة للخطر، لأنّ السلاح في خدمة الدفاع عن الحرّية والوطن والأهل، مثلما أنّه أداة للحصول على المجد والثراء، والحال أنّه في وقت قصير تمّ إدماج الجدد والقدامى، في فيالق موحّدة، وتساوى الجميع في البسالة، أمّا الملكان فإنّهما حالما علما بنبأ مقدم ماريوس انسحبا كلّ من جهته، إلى مناطق يصعب النفاذ إليها، وكان أمل يوغرطة أن يقع على عدو مشتّت، أمّا الرومان فمنذ أن استرجعوا شجاعتهم، صمّموا على عدم التسيّب والوقوع في أخطائهم، وألاّ يفرّطوا في الرقابة والانضباط.

LXXXVIII - كان متلوس قد ارتحل إلى روما، واستقبل هناك على غير المتوقّع بفرح عارم، فخفّ ما كان لديه من غيرة، لأنّه لم يكن أقلّ إعزازا عند العامّة منه لدى مجلس الشيوخ[1]، أمّا ماريوس فقد شدّد الحراسة على فرقه، دارسا نقاط القوّة والضعف في كلا الجيشين، مراقبا تحرّكات الملكين، متداركا ما قد يزمعان عليه أو يخطّطان له من كمائن، جاعلا جيشه في حالة الطوارئ على الدوام، والعدو في ذعر، ثمّ هاجم الجيتول ويوغرطة وهزمهم مرارا، واستردّ الغنائم التي سلبوها من حلفاء الرومان[2] وأجبر الملك على الهزيمة بالقرب من سيرتا، إلاّ أنّ هذا النجاح قد يضيف للرومان مجدا، ولكن لا ينهي الحرب، ولذلك قرّر ماريوس مهاجمة المدن المهمّة والخطيرة لدى العدو، بحامياتها وموقعها وبذلك

---

(1) استقبل بالتكريم، ومنح لقب النوميدي.

(2) لا ندري من يقصد سالوست بعبارة حلفائنا كما وردت في نصّه (Socii Nostris) وقد يكون هؤلاء من بين النوميد الذين انضمّوا إلى صفّ الرومان؟.

يقطع الدعم عن يوغرطة، ويجبره على النزول إلى ميدان المعركة، أمّا فيما يتعلّق بيوكوس فقد كان يردّد لماريوس مرارا بأنّه يرغب في صداقة الشعب الروماني، وأن لا خشية من أيّ عمل عدواني من جانبه، فهل كان ذلك خداعا منه للإيقاع بالرومان بغتة أم أنّه لطيشه الفطري الذي يدفعه تارة نحو السلم وطورا نحو الحرب، من العسير معرفة الحقيقة.

LXXIX- اتجه القنصل نحو المواقع والقلاع المحصّنة، مثلما كان قد قرّر، ونجح في افتكاكها من العدو، بالقوّة أحيانا وبالمكافآت المغرية أحيانا أخرى، وكان في الأول قد اكتفى بالعمليات الصغيرة على أمل أن يقع يوغرطة في يده، وهو في نجدة رعاياه، ومع أنّه علم أنّ يوغرطة في مكان بعيد وأنّ مهمّات أخرى تشغله، إلاّ أنّه كان متأكّدا بأنّ أمامه حملات أصعب وأكبر.

نكبة كابسا:

كانت وسط صحاري واسعة قلعة كبيرة تسمّى كابسا[1] (Capsa) ولعلّ مؤسّسها هو الجبّار الليبي (Hercules Libys) وكان سكّانها معفين من الضرائب، وكان الحكم متساهلا معهم كثيرا، لذلك كانوا متعلّقين أشدّ التعلّق بيوغرطة، وكان للمدينة موقع حصين ولها أسوار تحميها من الأعداء، وفيها جند وسلاح، وإذا استثنينا المناطق القريبة منها فإنّ الباقي كلّه صحاري، يتكوّن من أراضي البور، ليس فيها مياه، تعيش فيها أفاعي شرسة مثل كلّ الحيوانات المتوحّشة التي تزداد شراستها بسبب نقص الغذاء، إضافة إلى أنّ الأفعى تشكّل في حدّ ذاتها خطورة كبرى، ولا شيء يزيد من شراستها مثل الظمأ.

كانت لماريوس رغبة جامحة في حصار كابسا بمقدار أهمّيتها في الحرب فضلا عن صعوبة الإجهاز عليها، وإذا كان متلوس قد نال الشرف الكبير عند فتحه ثالة، فلماذا لا يحقّق هو الآخر مجدا على غرار ذلك، لاسيّما وأنّ ثالة لا تختلف طبيعتها وخطوط دفاعها كثيرا عن كابسا، إلاّ في وجود عديد الينابيع غير بعيد عن

---

(1) هي قفصة الحالية في الجنوب التونسي، وكانت أهمّ مدن المملكة النوميدية.

أسوار ثالة، في حين أنّ كابسا لايوجد بها إلاّ عين ماء واحدة، تقع داخل المدينة، أمّا خارجها فيتزوّد الناس من ميّاه الأمطار، فهذه الندرة في المياه هناك، مثلما هو في كلّ أنحاء أفريقيا البعيدة عن البحر، لأنّ توحّشها بمقدار صعوبتها، ويعمد النوميد لتعويض ندرة المياه إلى التغذّي بالحليب ولحوم الطرائد وشحوم الأيّل، وهذا دون استعمال الملح أو أيّ منشّط آخرللشهية، وهذه الموادّ الغذائية تمكّنهم من مقاومة الجوع والعطش، لأنّها ليست بالنسبة إليهم للتلذّذ أو الإسراف.

XC– بعد استعراض جوانب الأحداث كلّها، أعود ثانية وفي تصوّري أنّ عناية الآلهة كافية للتغلّب على المصاعب التي لا تستطيع حكمة الإنسان وحدها تذليلها، فقد كان القنصل مهدّدا بفقدان القموح، لأنّ النوميد يهتمّون بتربية القطعان أكثر من الزراعة، خاصّة وأنّ الملك كان قد نقل كلّ الغلال إلى مواقع محصّنة، وكان الفصل نهاية الصيف، والأرياف جافّة وعارية تماما من كلّ نبات، ومع ذلك كان القنصل قد وفّر كلّ ما يلزمه بالقدر الذي تسمح به الظروف، مع ما يتطلّبه ذلك من حذر، فقد أصدر أوامره إلى الفرق المساعدة بأن تقدّم كلّ المواشي التي غنمتها في الأيام السابقة، وأرسل مساعده مانليوس بمعية فرق المشاة الخفيفة إلى لارس (Laris)[1]، وهي الموقع الذي كان قد أودع فيه المؤن الاحتياطية، وأعلن أنّه سيقوم بنفسه في بضعة أيّام بنهب البلاد وسار متقدّما نحو تانايس[2] (Tanaïs).

XCI– والحال أنّه أثناء المسير، كان القنصل يوزّع على جنده كلّ يوم حسب وحدات المئة [الفيالق والسرايا] كمّيات متساوية من المواشي، ومن جلودها تصنع القرب، وعندما لاحظ بُعض النقص في توزيع الطعام أوجد دون علم الجميع الأواني التي سيكون في حاجة إليها، ولم تمض ستّة أيام حتّى كان عدد كبير من القرب قد صنع، وكان قد أدرك النهر، فسمح للجند بتناول وجباتهم بعد أن أنشأ

(1) كانت من مدن المملكة النوميدية الهامّة، لا تزال أطلالها في المكان المسمّى: هنشير الاربص على بعد 18 كلم جنوبي سيكّا (الكاف).

(2) يسمّى اليوم: واد الدرب هو جدول دائم الجريان، يمرّ على بعد حوالي 100 كلم من قفصة.

معسكرا محصّنا بعض الشيء، على أن يكون الجميع مستعدًا للانطلاق مع مغرب الشمس، وأن يتركوا أمتعتهم جانبا حتّى يتفرّغوا لحمل الماء، لهم ولحيوانات الركوب، ثمّ بعد ذلك وفي الوقت المحدّد غادر المعسكر، وسار طيلة الليل ثمّ توقّف، وفي الليلة الموالية فعل نفس الشيء، وفي الليلة الثالثة وقبل طلوع الشمس كان قد وصل منطقة جبلية، تقع على بعد ميلين على الأكثر من كابسا، وهناك كمن بفرقه كلّها قدر استطاعته، وبقي مترقّبا، ومع طلوع النهار كان النوميد يعتقدون ألاّ شيء يخافونه من جانب العدو، فخرجوا من المدينة بأعداد كبيرة في حين وزّع القنصل كلّ فرسانه ومشاته بسرعة، وأمر باللحاق بكابسا على جناح السرعة، واحتلال الأبواب، وكان هو ذاته يملأه الحماس، قد أسرع في أثرهم دون أن يسمح للجند بالنهب.

عندما عاين السكّان الخطر استولى عليهم الذهول من المباغتة، وما أوقعته من اضطراب، خاصّة وأنّ قسما كبيرا من المدافعين يوجد خارج الأسوار تحت رحمة العدو، فاضطرّوا للاستسلام، ورغم ذلك أحرقت المدينة وأبيد كلّ النوميد الذين هم في سنّ حمل السلاح، أمّا الباقي فقد بيعوا كلّهم كعبيد، ووزّعت الغنائم على الجند، ولم يكن الدافع إلى هذه العملية المنافية لقوانين الحرب هو الجشع أو الطغيان، بل لأنّ الموقع كان في صالح يوغرطة، وكان اقتحامه صعبا على الرومان، والسكّان هم الذين كانوا متقلّبين وخونة وعاجزين إلى ذلك الحين أن يكونوا شيئا آخر لا بالترغيب ولا بالترهيب[1].

XCII- بعد هذا العمل الباهر، الذي تمّ دون أن يكلّف الرومان رجلا واحدا، ازداد ماريوس رفعة وأضحى قائدا لامعا، فأعماله الجريئة زادت من رصيد شجاعته وكان يعامل جنده بعناية جعلتهم ينتشون ويطنبون في إطرائه، أمّا

---

(1) يبرّر سالوست ما لا يبرّر، ومع أنّه اعتبر مذبحة كابسا منافية لقوانين الحرب، إلاّ أنّه عاد وحمّل السكّان مسؤولية ما حدث لهم من نكبة، وإذا كان ماريوس قد أعماه جنون الطموح والسعي للحصول على الأمجاد العسكرية ولو بالمذابح، فكيف يبرّر كاتب صاحب قلم، الظلم والجور والهمجية.

النوميد فقد ألقي في قلوبهم الرعب، والخلاصة أنّ الكلّ حلفاء وأعداء اعتقدوا أنّ فيه روحا إلهية، أو على الأقلّ اعتقدوا أنّه ملهم من قبل الآلهة[1].

بعد هذا الانتصار اتجه القنصل نحو مواقع أخرى، واستولى على بعضها عنوة، مجدّا في الكرّ والفرّ، وعمّت المجازر في كلّ الأنحاء، وساد الحداد وعمّ النبأ كلّ أفريقيا، من بعض منكوبي كابسا الذين تمكّنوا من الفرار، أمّا القنصل فبعد أن احتلّ عددا كبيرا من المواقع، كان أغلبها دون أن تسيل قطرة واحدة من الدم، تصدّى إلى قضية أخرى دون قضية كابسا ولكنّها غير سهلة، فغير بعيد عن نهر مولوشا (Muluchath) الذي يفصل مملكة بوكوس عن مملكة يوغرطة يقع سهل على حافته جبل صخري ذو علو شاهق يتّسع لإقامة حصن صغير، لا يمكن النفاذ إليه إلاّ عبر ممرّ ضيّق جدّا، أمّا باقي القمّة فمنحوتة طبيعيا كما لو أنّ إرادة الإنسان هي التي شكّلتها، وكان هذا الموقع يحتوي على كنوز الملك، ولذلك صمّم ماريوس على احتلاله، بكلّ ما أوتي من قوّة، وفي مثل هذه المسائل يلعب الحظّ دوره أكثر من الحسابات، فالحصن الصغير بأعلى الجبل، كان به ما يكفي من الرجال والسلاح، وكميات كبيرة من القموح ونبع ماء جار، أمّا الأرضية المجاورة للحصن فلا تسمح بالتخندق أو التحصّن أو استعمال آلات حربية أخرى، وكانت الطرق المؤدّية إليه ضيّقة جدّا ومحاطة بجرف، يجعل الاقتراب منه محفوفا بمخاطر كبرى، وإذا ما حدث تقدّم ما بإقامة قواعد بسيطة، فبإمكان المحاصرين تحطيمها بكلّ يسر، إمّا بالنار أو بقذف الحجارة، ولم تسمح مصاعب الميدان للجند لا بالتموقع أمام الأشغال ولا بالمناورة من داخل الأكواخ دون خطر وكلّ من أبدى شجاعة قتل أو جرح، أمّا الآخرون فكانت خشيتهم تزداد يوما بعد يود.

CXIII – أمضى ماريوس أياما عديدة في الحيرة والضنك، وكان الغضب باديا عليه وظلّ يطرح على نفسه هذا السؤال: هل يترك المعركة، فقد رأى ألاّ جدوى من الحصار، أم ينتظر الحظّ الذي كان في صالحه مرارا، ولكن لم يتوصّل إلى أيّ حلّ.

---

(1) لا ندري كيف سمح سالوست لنفسه بالإطناب في اعتبار ذبح الأبرياء وأخذهم على حين غرّة بطولة ومجدا.

مغامرة الجندي الليغوري

كان أحد الجنود البسطاء من سلك الخيالة المساعدة، وقد سخّر لجلب الماء من خارج من المعسكر، قد لمح في أعلى الحصن من الجهة الأُخرى للجبل، حلازن في شقوق الحجارة، فأخذ يبحث عنها لجمعها، ودون أن يشعر وهو في غمرة الفرح، كان قد اقترب من قمّة الجبل، ومن هناك لاحظ أنّ المكان كلّه خال، فقاده فضوله الفطري كأيّ شخص، إلى الإقدام على عملية صعبة، وفي ذهنه فكرة أخرى [غير تتبّع الحلازن] وهي التسلّق للتسلّل نحو الحصن، وصادف أن اعترضته شجرة بلّوط كبيرة، باسقة بين الصخور، وحيث أنّ جذعها مائل قليلا إلى الأسفل وقسمها العلوي باسق في اتجاهه نحو الأعلى، وهذا طبيعي في أيّ شجر آخر ينبت في مثل هذه الأماكن، كان الجندي الليغوري[1] يستعين أحيانا بأغصانها وأحيانا بشقوق الصخور، حتّى تمكّن من العبور دون عائق إلى سطح القلعة، ولم يكن النوميد قد انتبهوا لأنّ المعركة التي يمكن أن تشنّ عليهم من الجهة الأُخرى قد شغلتهم، وبعد اكتشافه لكلّ النقاط الهامّة على أمل أن تخدم تجربته هذه الرومان، عاد فنزل سالكا نفس الطريق، وفي هذه المرّة ليس بالصدفة بل تعرّف على الأرض وتحقّق من إمكانية العمل عبر المسلك كلّه مختبرا كلّ شيء، ثمّ ذهب مباشرة إلى ماريوس وروى له مغامرته بالتفصيل ملتزما العمل في محاولة من الجهة ذاتها التي كان قد تسلّق منها، وعرض أن يقوم بالمساعدة كدليل، وأن يكون الأول في المخاطرة بنفسه.

أرسل ماريوس مع الجندي الليغوري بعض من كانوا معه من مساعديه للتأكّد من صحّة ما رواه، وكلّ حسب خبرته رجع وقدّم فكرته، وكان القنصل قد استرجع بعضا من الشجاعة، فانتدب من بين جنود النفير [البوّاقون (Tubicen)] خمسة من ذوي الرشاقة والخفّة، وعيّن أربعة من قادة المئة لحمايتهم، وأصدر الأمر بوجوب الامتثال للجندي الليغوري، وحدّد الغداة لتنفيذ العملية.

---

(1) الشعب الليغوري من منطقة ساحلية في إيطاليا، أهمّ مدنها: جنوة.

XCIV- في الساعة المحدّدة، كان الجميع مستعدًا في انضباط تامّ، وانطلق الجندي الليغوري بهم في الطريق، واكتفى الذين توجّب عليهم تسلّق الجبل بسلاح ولباس خفيفين، حاسري الرؤوس حفاة الأقدام، حتّى يساعد ذلك على حسن الرؤية والتسلّق الجيّد والمريح، وعلى ظهورهم السيوف والدروع الجلدية على عادة النوميد وهذا لتخفيف حمولتهم وتلافي الأصوات التي تحدثها الأسلحة الحديدية عند احتكاكها ببعضها، وفي نفس الوقت أعطى الليغوري إشارة الانطلاق، وأمر بتثبيت الحبال في الصخر وفي جذوع الأشجار اليابسة والناتئة لتسهيل تسلّق الجنود، وساعد الجميع على صعود لم يكن سهلا، بجعلهم يعبرون أمامه واحدا واحدا مجرّدين من السلاح، ثمّ لحق بهم بنفسه، ومعه معدّاتهم وكان أول من يخاطر بنفسه، في الممرّات الخطيرة صعودا ونزولا مرّة إثر مرّة، على نفس الطريق ثمّ يتنحّى ليترك المكان لرفاقه الذين ازدادوا جرأة بفضل المثل الذي أعطاه إياهم، وأخيرا وبعد إرهاق طويل ومضنٍ، وصلوا إلى الحصن من جهة كانت خالية من أيّ حراسة، لأنّ الجميع في ذلك اليوم مثل سائر الأيام الأخرى، كانوا متواجدين في الجهة الأخرى مشكلين جبهة لمقاومة هجوم عسكري روماني متوقّع.

المعركة حول قلعة مولوشا:

اتضح للجنود نجاح خطّة الليغوري، وتبيّن لهم أنّ في إمكانهم أخذ زمام المعركة من هناك، وعندما لاحظ ماريوس حالة الإجهاد التي عليها النوميد، وجّه نداء إلى جنده وهم داخل أخصاصهم للخروج بأنفسهم والزحف لاقتحام أسفل السور وأمر أن تشتغل فرق المجانيق والرّماة بالسهام والمقالع، لإرهاب العدو من بعيد، أمّا النوميد فلم يكتفوا بقلب وإحراق أخصاص الرومان مرّات عديدة،ثمّ التحصّن وراء الأسوار بل كانوا نيل نهار يزاولون الحراسة، ومن أعلى الأسوار كانوا يشتمون الرومان ويلومون ماريوس على جنونه، مهدّدين جنوده بأنّ يوغرطة سيستعبدهم، طالما أنّ الانتصار حوّلهم إلى ذوي كبرياء وغطرسة، واستمرّت المعركة بضراوة بين الجميع، الرومان وأعدائهم، هؤلاء من أجل مجد وكبرياء الإمبراطورية والآخرون من أجل حياتهم، والأبواق من خلفهم لا تتوقّف عن

النفير، ممّا جعل الأطفال الذين جذبهم الفضول يفرّون فلحق بهم من كان قرب الأسوار ثمّ فرّ الجميع مسلّحين وغير مسلّحين وفي خضمّ هذه الفوضى هجم الرومان بيأس شديد فانهزم النوميد تاركين وراءهم الجرحى دون إسعاف أو مساعدة، فتدافع الرومان وداسوا جثث الموتى، وتنازعوا في ما بينهم متنافسين على من ينال مجد السبق في تسلّق الأسوار، دون أن يشغلهم أيّ شيء عن النهب،وهذا ما يحدث لماريوس في الغالب، إذ عوّضه الحظّ ما سبّبته المجازفة له من أخطاء، أضْحت في الأخير سببا لأمجاد جديدة.

التحاق سولّة بالجيش الروماني في أفريقيا:

XCV- وأثناء ذلك كان الكستور سولّة[1] قد وصل إلى المعسكر صحبة عدد من الخيالة الذين جنّدوا من إقليم اللاتيوم وكان ماريوس قد استخلفه في روما على فرق الحلفاء، ثمّ التحق به للقيام بدوره في الحرب، ولأنّ الموضوع يفرض التنويه بهذا الرجل العظيم، يتبيّن لي في معرض الكلام عن مهمّته في أفريقيا ضرورة الإدلاء بوصف عن شخصيته وسجاياه، والحال أنّ ذلك ليس بغرض كتابة تاريخ سولّة، فسيسينّا[2] (Sisenna) هو أفضل من ترجموا له، وحسب رأيي لم يكن يتمتّع باستقلالية كافية.

ينحدر ل. سولّة من عائلة نبيلة من الأشراف، من فرع مغمور بعض الشيء بسبب من أجداده المباشرين[3] وكانت له دراية بالآداب الإغريقية واللاتينية

---

(1) هو لوكيوس كورنيليوس سولّة 138 - 78 ق.م. (Lucius Cornelius SYLLA) من أنصار جمهورية رومانية أرستقراطية شارك هنا في الحرب ضدّ نوميديا تحت قيادة ماريوس، ولكن سيصبح في ما بعد على رأس الطبقة الأرستقراطية ضدّه، تولّى القنصلية سنة 88 ق.م.، انتصر على ميثريدات وأصبح سيّد روما وإيطاليا الأوحد فأباد خصومه.

(2) هو ل. كورنيليوس سيسينّا [120-87 ق.م.] (L. Cornelius Sisenna) كان سياسيا أكثر منه كاتبا، تولّى منصب كستور في صقلية [97 م.] ثمّ منصب بريطور في بلاد اليونان، بدأ الكتابة بمؤلّف في التاريخ عن حرب نومنتيا، وعندما تقدّم به العمر نشر كتابه الحرب الأهلية التي اندلعت بسبب الصراع بين ماريوس وسولّة، وترجم بعض الأعمال من اليونانية، انظر: *- Cicéron, Brutus, 64, 228.*

(3) ينتمي إلى فرع كورنيلي (Cornelii) الذي أفلس وفقد اعتباره، فلم يتمكّن هذا الفرع الذي حمل لقب سولّة (Sylla) من تحقيق ترقية أعلى من درجة بريتور.

تضاهي دراية أجود المتخصّصين،كان ذا طموح لا حدّ له، يعشق الملذّات، لكن الأمجاد أكثر، وإن كان قد كرّس أوقات فراغه للمجون فإنّ الملذّات لم تصرفه أبدا عن قضاياه وكان نزيها في حياته الزوجية، كما كان ذا بلاغة وبيان ودهاء، ليّن الجانب في العشرة، ويمتاز بعمق في التفكير لا يمكن لأحد كشف أغواره، وكان سخيا خاصّة في ماله، وبقدر ما كان الأكثر رفاهية بين الناس قبل انتصاره في الحرب الأهلية فإنّ ثراءه لا يعلو على اقتداره وجدارته، وكثيرٌ هم الذين يتساءلون عن مكانته هل نالها بالشجاعة أم بثروته لا غير، أمّا فيما يتعلّق بأفعاله اللاحقة، فإنّه بمقدار خجلي منها أجد نفسي مشمئزّا من ذكرها.

XCVI- عندما حلّ سولّة بأرض أفريقيا كما ذكرنا، التحق بمعسكر ماريوس مع فرسانه، وهو الذي لم تكن له بالحرب دراية ولا تجربة إلى ذلك الحين، ومع ذلك فإنّه لم يُمْض وقتا كبيرا حتّى أصبح الرجل الأكثر مهارة بين الجميع، إضافة إلى أنّه كان دمثا لطيفا تجاه الجنود إلى حدّ كبير، فقد كان يلبّي الطلبات بل يسبقها في كثير من الأحيان، ويأنف من تقديم خدمة له وإذا قبلها يكُنْ ذلك على مضض، على أن يقدّم نظيرتها في أسرع وقت لكأنّه يسدّد بذلك دينا عليه، ولا يطلب لنفسه أيّ شيء من أيّ كان، وعلى عكس ذلك يجتهد ما وسِعه ليكون له مدينون، كما أنّه يعرف كيف يكون جادّا وكريما مع عامّة الناس، يقوم بقسطه الأكبر من الأعمال ليل نهار دون أن يستبدّ به أيّ طموح أحمق مثلما يحدث لآخرين - من الشخصيات اللامعة وحتّى القناصل- في أحيان كثيرة فينتقص من مكانتهم، أمّا هو فيسعى فقط بكلّ ما أوتي من قوّة ألاّ يكون أدنى من الآخرين لا في المجلس وفي العمل السياسي، وفي ما عدا ذلك يبدو في مقام أعلى من الجميع تقريبا، هذه المناقب وهذا السلوك جعله في ظرف وجيز ذا حظوة خاصّة لدى ماريوس والجنود.

اتحاد الجيشين النوميدي والموريتاني

XCVII- ومهما يكن فإنّ يوغرطة بعد أن أضاع كابسا ومواقع محصّنة أخرى كانت ذات أهمّية استراتيجية له فضلا عن قسم من كنوزه، أرسل إلى

بوكوس (Bocchus) يترجّاه أن ينضمّ إلى جانبه وأنّ من الأجدى له أن يفعل ذلك فقد حان وقت الحرب، ولمّا علم بوكوس بقيام الحرب راوده التردّد، وأخذ يفكّر في مزايا الحرب والسلم، دون أن يتمكّن من حسم الموضوع، أمّا يوغرطة فجدّد أساليبه القديمة، فاستمال بالمال المقرّبون من الملك الموريتاني وقدّم له وعدا بأن سيتنازل له عن ثلث نوميديا إذا تمّ طرد الرومان من أفريقيا أو إذا أبرم سلم يحفظ له وطنه موحّدا فالتحق بوكوس بيوغرطة وقد أغرته هذه الوعود ومعه جمع هائل من الجند وبذلك اتحد الجيشان النوميدي والموريتاني[1].

زحف الملكان بجيشيهما نحو ماريوس الذي كان في طريقه نحو معسكره الشتوي، فانقضّا عليه في وقت لم يبق فيه من النهار إلاّ الجزء الأخير على أمل أنّ الليل يوشك على السدول، فالليل يحميهم إن انهزموا ولا يضايقهم في شيء إن انتصروا، وهذا لمعرفتهم بالبلاد وعلى العكس من ذلك فإنّ الرومان في الحالتين سيجعلهم الظلام في وضع صعب للغاية.

كان على ماريوس عندما تبلّغ خبر زحف الأعداء من كلّ جانب أن يصفّف جيشه استعدادا للمعركة أو على الأقلّ يجمع المعدّات، ولكن لم ير من العدو ما يدلّ على الاشتباك فلم يكن الفرسان الجيتول ولا المور في خطّ المعركة، ولم تكن لهم قاعدة تاكتيكية لأنّ فصائلهم تكوّنت صدفة، فأخذوا الرومان بغتة منقضّين عليهم، محدثين ذعرا ينذر بالخطر، ورغم الاضطراب المفاجئ الذي أصاب الرومان إلاّ أنّهم لم يفقدوا شجاعتهم، فامتشق بعضهم السلاح لحماية رفاقهم الذين انهمكوا في إعداد عدّتهم، بينما امتطى البعض الآخر جيادهم وتقدّموا أمام العدو في حين أخذت المعركة شكل قطع الطريق أكثر منها معركة حسب قواعد الحرب المعروفة، فقد كان الجيش دون صفوف ودون أعلام، واختلط الخيالة بالمشاة وتقهقر البعض وقتل البعض الآخر.

---

(1) لا يرى سالوست في الوحدة الأفريقية [النوميدية الموريتانية] إلاّ مصالح ضيقة وأموال ومكتسبات آنية، ولا يريد إطلاقا أن يجعل لوشائج القربى والمصير الواحد دورا، لأنّه يعلم كما يعلم كلّ مؤرّخي روما بأنّ النصّ التاريخي هو الذي يثبّت صورة أيّ بلد في أذهان الأجيال وهو لا يريد أن يثبّت في تلك الأذهان سوى سذاجة النوميد والموريتانيين وضيق أفقهم في مقابل الانتلجنتسيا الرومانية.

بينما كانت الأغلبية في مواجهة العدو المتمركز أمامها تقاوم بضراوة تراءى للرومان أنّهم مطوّقون من الخلف وهنا أضحت الفعالية ليست للسلاح الذي لا يمكن أن يحمي الأفراد لأنّ الأعداء كانوا متفوّقين في العدد ومنتشرين في كلّ جهة، والخلاصة أنّ قدامى الجند الرومان الذين حنّكتهم الحروب والسنون ومعهم الجنود الجدد كوّنوا حلقة في كلّ ناحية فقد جمعهم الميدان والصدفة وهذه كانت فرصة أو مناورة غير مقصودة سمحت لهم أن يحتموا بيعضهم وأن يكونوا في خطّ واحد على جميع الجهات في آن واحد، وذلك ما مكّنهم من الصمود في وجه العدو.

ارتباك الرومان:

XCVIII- في تلك الظروف، لم يفقد ماريوس رباطة الجأش ولا الشجاعة، وكان يقوم على رأس كوكبة من النخبة وهم من أصدقائه الخلّص، بحملات على مختلف الجهات لنجدة المدبرين أحيانا ولمهاجمة العدو في الجهة التي تكون كثرته العددية متجمّعة فيها أحيانا أخرى، ولكن تضعضع جيشه حال دون بلوغ أوامره إلى جنده فقد كان يريد مساعدتهم بنفسه، ولمّا كان النهار قد ولّى، ومع أنّ البرابر[1] لم يكونوا ينوون أبدا توقيف المعركة، فقد كانوا تبعا للتعليمات الصادرة إليهم من ملكيهم متيقّنين بأنّ الليل سيكون لهم، ومع أنّ الرومان بذلوا كلّ طاقتهم إلاّ أنّ ماريوس أخذ بالأمر الواقع، وليضمن انسحاب فرقه في أمان احتلّ ربوتين متقاربتين، كانت إحداهم صغيرة اتخذها لإقامة معسكره لأنّ فيها عين ماء غزيرة، أمّا الربوة الأخرى فكانت ذات موقع حصين، وبقدر ما كانت مرتفعة كانت تنتهي بمنحدرات وعرة في قسم كبير منها، وتتطلّب حفر خندق في إحدى جهاتها لمنع العدو من احتمال اقتحامه لها.

أصدر ماريوس أوامره إلى سولّة بأن يضمن الحراسة ليلا بجانب عين الماء بفرسانه، ولاحظ الارتباك الذي يعمّ جيش العدو فأراد استغلال ذلك بنفسه، وأخذ يجمع جنوده المشتّتين شيئا فشيئا، ثمّ قادهم جميعا بخطى سريعة نحو الربوة الأخرى وكانت وعورة الميدان قد أجبرت الملكين على توقيف المعركة، إلاّ أنّهما لم

(1) هنا استعمل سالوست لأول مرّة في نصّه اسم البرابر (Barbari) للإشارة إلى النوميد والمور معا، وهي كلمة ينعت بها الأجانب خاصّة الأقلّ حضارة.

يسمحا لجيشيهما بالانسحاب بل أبقياهما حول الربوتين لمحاصرتهما، وهناك تمركز البرابر حيث أوقدوا النيران وقضوا جزءا كبيرا من الليل في رقص وصياح تعبيرا عن فرحهم حسب تقاليدهم، وقد تراءى لقادتهم- وكان يملأهم الفخار-أنّهم الظافرون المنتصرون بدليل أنّهم لم يفرّوا[1]، وقد سرّ الرومان الذين وقاهم ظلام الليل في تلك التلال وكانت تلك العروض خير تسلية وتعزية لهم.

XCIX- كان حذر العدو قد ملأ ماريوس اطمئنانا، فأمر بالتزام الهدوء إلى أبعد حدّ ومنع دقّ أبواق تبديل الحراسة مثلما جرت العادة، ومع بزوغ أولى علامات النهار، في اللحظة التي غشى فيها النوم أفراد جيش العدو الذين أنهكهم التعب، وجّه ماريوس بسرعة الأمر إلى الحرّاس وإلى أصحاب الأبواق في فرق الخيالة والسرايا والكتائب جميعا لإعلان النفير في وقت واحد وأمر الجند أيضا برفع أصوات النداء إلى الحرب والوثوب خارج الأبواب، واستفاق الجيتول[2] والمور وقد أصابهم الذعر بسبب الصيحات المرعبة التي يجهلون مصدرها، فما استطاعوا الفرار ولا امتشاق أسلحتهم ولا عمل أيّ شيء ولا التمكّن من شيء، فقد هالتهم تلك الأصوات وعدم النجدة وهجوم الرومان الكاسح، وجعلهم كلّ ذلك يقعون في الضياع والتيه، والخلاصة أنّ الجميع دحروا وانهزموا، واستولى الرومان على أغلب أسلحتهم وراياتهم، وقتل منهم في هذه المعركة عدد كبير أكثر ممّا قتل في المرّات السابقة مجتمعة، لأنّ النوم والذعر الشديد والمفاجئ الذي أخذهم على حين غرّة كان قد عطّلهم وأعاقهم عن الفرار بسرعة[3].

C- وإثر ذلك، تابع ماريوس طريقه نحو معسكراته الشتوية لسهولة حصوله على المؤن هناك، وقرّر أن يتّخذ سبيله على الساحل عابرا مدنه، والحال أنّ

---

(1) عبارة تهكّم استعملها سالوست أي أنّ قمّة المجد عند هؤلاء البرابر هي أنّهم لم يفرّوا وفي ذلك غمز وإشارة من طرف خفي بأنّهم منهزمون على الدوام، فضلا عن وصف المعسكر الأفريقي بهذا الوصف الذي نسمّيه اليوم بالفولكلوري.

(2) يتّضح من النصّ أنّ جيش يوغرطة كان من الجيتول، ولا ندري أكان ذلك لتخلّي النوميد عنه أو انشقاقهم عنه وولائهم لقائد آخر؟.

(3) لم يفصّل سالوست في هذه المسألة، ولم يذكر اسم يوغرطة في هذه الفقرة، فهل كان يوغرطة غائبا في مهمّة حربية أخرى؟، وكيف نقبل أن يكون يوغرطة حاضرا يقود العمليات الحربية ثمّ يتساهل في=

انتصاره لم يجعله متهاونا ولا متغطرسا، فقد كان لا يتقدّم إلاّ صحبة الجيش ذي التشكيلة الرباعية، كأنّه في مواجهة عدو، فقد كان سولّة على رأس الفرسان في أقصى اليمين، وعلى اليسار كان مانليوس على رأس رماة السهام والمقلاع، عدا الفرق الليغورية من الخيالة، وفي الأمام والخلف كان تريبونات العامّة على رأس فرق المشاة الخفيفة، إضافة إلى الفارّين الذين كان لا يعوّل عليهم كثيرا سوى أنّهم يعرفون البلاد معرفة جيّدة فيراقبون النوميد.

ولـمّا لم يكن للقنصل من ينوبه، فقد أشرف بنفسه على حراسة الجميع وكان حضوره في كلّ ناحية، يوزّع عبارات الثناء وحتّى الردع هنا وهناك حسب الظروف وفي جميع الحالات كان سلاحه لا يفارقه وعيناه بالمرصاد حريص على مراقبة مسيره بقدر حرصه على حصانة معسكره واضعا على أبوابه حراسة من خيالة الفيالق، وأمام المعسكر حراسة من فرق الفرسان المساعدين، وحيث تقوم أشغال الخنادق وضع مخافر حراسة أخرى وكان هو نفسه يقوم بدورات تفتيشية وبقدر ما كان ذلك خشية ألاّ تنفّذ أوامره كان أيضا لنيل رضا وقبول الجنود العاملين، فقد كان يريد إشعارهم بأنّه يقاسمهم العمل، والواقع أنّ ماريوس في هذه المرحلة من حربه ضدّ يوغرطة كما في غيرها كان حريصا على إبقاء الانضباط في الجيش بواسطة مشاعر الكرامة أكثر من تسليط العقاب، على أنّ الكثير عزا ذلك إلى الطموح، بينما فسّرها البعض بدعوى تعوّد ماريوس على ذلك الأسلوب منذ الطفولة إلى سنّ الرجولة، فقد كان يشعر بالرضا عن نفسه ممّا يسمّيه الآخرون مشاقّ وصعاب، ومهما يكن من أمر فإنّ الجمهورية لم تخدم بكرامة وبطريقة جيّدة إلاّ تحت القيادات الأكثر حزما وصرامة.

= مسألة الحراسة أو يهمل الجيش ويترك الجميع يستسلم للنوم ليأتي ماريوس بهذه الشجاعة الاستعراضية كما يرسمها سالوست، ويحقّق هذا الانتصار السهل الذي لا يعود إلى شجاعة الطرف الروماني بقدر ما يعود إلى تهاون الطرف الأفريقي، ويواصل سالوست في الفقرة الموالية بأنّ ماريوس واصل طريقه، فكيف ينتصر هذا الانتصار ثمّ يواصل طريقه. إنّ العودة إلى داخل المقاطعة الرومانية بأفريقيا وإلى أبعد نقطة وهي المدن الساحلية دليل على انهزام ماريوس وتحصّنه بالمقاطعة الرومانية، ومع أنّ الجيش الروماني كان أحسن جيوش عصره، لكن انتصار الرومان في أفريقيا لم يكن بسبب تفوّقهم الحربي بقدر ما كان بسبب إتقانهم حبك المؤامرات في بلد يعرفون تناقضاته.

CI- في آخر اليوم الرابع وغير بعيد عن سيرتا، هرع المستكشفون من كلّ جهة يعلنون وجود العدو، ولكن اختلفوا في تحديد مكان تواجده بدقّة، فلم يعرف القنصل أيّ خطّ معركة ينظّم جيشه وفقا له، ولذلك لم يغيّر شيئا من نظام سيره الذي يسمح له بمواجهة أيّ هجوم من أيّ جهة كانت، أمّا يوغرطة الذي كان قد وزّع فرقه على أربعة فيالق وهو على يقين بأنّه يوجد ضمن جنده العديد ممّن يستطيع إلحاق الهزيمة بالعدو ولكنّه أمل خائب.

كان سولّة أوّل من تلقّى صدمة العدو فقام يبثّ روح الشجاعة بين فرسانه ونظّمهم في سرايا متراصّة قدر الإمكان، وانتصب على رأسها لمهاجمة المور، أمّا باقي الجيش فقد لزم مواقعه مكتفيا بضمان الاحتماء لنفسه من الحراب المقذوفة من بعيد والقضاء على كلّ من سوّلت له نفسه الاقتراب، وأثناء معركة الفرسان هذه قام بوكوس بمهاجمة حراسة مؤخّرة الرومان على رأس فرق المشاة التي كان ابنه وولوكس قد جاء بها وكان قد تأخّر في الطريق فلم يتمكّن من الاشتراك في الحرب منذ البداية.

كان ماريوس في تلك الأثناء في الطليعة التي هاجمها يوغرطة بجموعه الضخمة ولمّا علم النوميدي (يوغرطة) بوصول بوكوس عاد على أعقابه دون أن يُرى، ومعه ثلّة من الفرسان والتحق بمشاة حليفه، وهنا صاح بأعلى صوته وباللغة اللاتينية -كان قد تعلّم الكلام بها خلال حرب نومنتيا- بأنّ المعركة خاسرة بالنسبة للرومان وأنّه سيقتل ماريوس بيده، ولوّح بسيفه الذي كان يقطر بدماء الرومان الذين قتلهم في المعركة، فأصيب الجنود الرومان بالرعب والذهول أمام شراسة الموقف، بينما ازداد البرابر حماسا وشجاعة، وتهوّسوا بشجاعتهم وضغطوا بكلّ قوّة على الرومان الذين خارت قواهم وكانوا على وشك الفرار لولا أن أدركهم سولّة منقضّا على المور فتقهقر بوكوس على عقبيه، أمّا يوغرطة فصمّم على شدّ أزر فرقه للاحتفاظ بنصر يوشك أن يتحقّق، ولكن كان الخيالة الرومان قد طوّقوه وشاهد سقوط جنده يمينا وشمالا، فوثب منفردا ونجح في شقّ طريقه رغم حراب الرومان والحال أنّ ماريوس الذي أوقع الهزيمة بفرسان أعدائه كان قد أسرع لنجدة فرقه، فعلم منها خبر الهزيمة النكراء وأنّ كلّ شيء انتهى بهزيمة النوميد.

كان السهل الواسع[1] يمثّل مشهدا فظيعا، فلا ترى إلاّ الكرّ والفرّ، قتلى وأسرى ورجال وخيول ممدودة على الأرض والجراح تدمي الجميع، فلا أحد يستطيع النجاة ولا تحمّل مواصلة الحرب، والجرحى لا يكادون يستجمعون قواهم للقيام حتّى يقعوا بسرعة، والخلاصة أنّه وحيثما ألقيت بصرك ترى الأرض مزروعة بالسهام والدروع والجثث المنطرحة وسط برك من الدم[2].

CII- بعد هذه الأحداث التي ضمنت له نصرا أكيدا هذه المرّة، هاجم القنصل سيرتا فقد كانت الهدف لزحفه، وهناك وبعد خمسة أيّام من هزيمة البرابر الثانية حضر وفد من لدن بوكوس يترجّاه باسم الملك أن يرسل إليه اثنين من الخلّص، ومن خلالهم يتمّ التفاوض عمّا فيه صالحه وصالح الشعب الروماني، فانتدب ماريوس لهذه المهمّة وبسرعة سولّة ومانليوس، وحيث أنّ الملك هو الذي دعاهما فقد قرّرا أن يكونا البادئين بالحديث لاستدراجه من خلال إبداء حسن النيّة،لمعرفة ما إذا كان يميل إلى السلم أم يرفضه، وكان في نيّتهما التأكيد على السلم أكثر، وترك مانليوس المجال لسولّة للحديث لأنّه كان الأكبر سنّا فضلا عن فصاحته، فأدلى بخطاب مختصر جاء فيه ما معناه:

«أيّها الملك بوكوس، إنّها لفرحة عارمة بالنسبة إلينا أن نرى الآلهة تلهم أخيرا رجلا جديرا مثلك الرغبة في إيثار السلم على الحرب وأنّ أميرا ساميا مثلك يكفّ عن تلويث نفسه بالاتصال بأسوإ المجرمين يوغرطة، فذلك يكفينا عناء معاقبة هذا عن خطأه، بقدر إنزال أقسى العقوبة على الآخر لغدره وإجرامه[3]، وأضيف أنّ الشعب الروماني منذ البداية المتواضعة لدولته كان دائما يؤثر صداقة الشعوب لا

---

(1) أي ميدان المعركة، الذي لم يتمكّن المؤرّخون من تحديد موقعه، ويرجّح اغزال أن يكون سالوست في نصّه يقصد السهل الواسع الممتدّ غربي واد عثمانية ولعلّه في ناحية شلغوم العيد، ولعلّ ماريوس وهو عائد من الغرب يكون قد مرّ على وادي الشلف ثمّ تحاشى منطقة الأطلس البليدي الجبلية لتجنّب الكمائن، ومرّ على برواقية ثمّ سور الغزلان، وبعد عبور البيبان خرج إلى سهل مجّانة ومن هناك يكون قد سلك طريقه عبرما نسمّيه اليوم السهول العليا الشرقية وتكون المعركة احتمالا قد دارت في ناحية شلغوم.

(2) قدّم لنا سالوست هنا صورة مثيرة، غاية في البشاعة مع أنّه يمجّد ما اقترفه الرومان وينسبه إلى البطولة.

(3) المقصود بالذي أخطأ هو بوكوس والذي أجرم هو يوغرطة.

استعبادها، وأنّه يرى أنّ من الأصلح أن يجعل سلطته مقبولة بمحض الإرادة لا أن يفرضها بالقوّة، وفي ما يخصّك أنت، لا يمكن أن تستعيض عن صداقتنا بصداقة أفيد، إنّنا بعيدون وهذا ما يخفّف حدّة الصدام إلى أدنى حدّ، وحتّى لو كنّا قريبين فإنّ ذلك سيسمح لنا بأن نقدّم لك نفس الخدمات، إنّ لدينا من الرعايا العدد الكبير، إلاّ أنّهم أصدقاء فلا نحن ولا أيّا كان يستغني عن الآخر. أمّا أنت، فيبدو أنّه ليس لك منذ البداية إحساس بما نكنّه لك، ودون أدنى ريب تكون قد تلقّيت من الشعب الروماني حتّى يومنا هذا العديد والعديد من المبرّات التي كفتك عناء المصائب، على أنّه ربّما وفّرت الثروة بدورها معظم حاجات الإنسان فطاب لك أن تجرّب على التوالي بأسنا وكرمنا، وهانحن الآن نمنحك الخيار فلا تتأخّر في إتمام ما شرعت فيه فالفرص لا تنقصك لتجاوز أخطائك من خلال خدماتك الراهنة، والخلاصة تأكّد بأنّ الشعب الروماني يقابل النعم بنعم أوفر حتّى يكون القويّ دائما أمّا في ما يخصّ مكانته العسكرية فقد سبق لك أن عرفت ذلك».

كان ردّ بوكوس مليئا بعبارات السلم والمودّة، مضيفا إليها بعض الكلمات لتبرير مواقفه السابقة، جاء فيها: "أنّه إذا كان قد حمل السلاح فذلك لم يكن لعداوة يكنّها للرومان، وإنّما كان ذلك للدفاع عن مملكته لأنّ القسم الذي انتزع من -يوغرطة من نوميديا- بالقوّة إنّما يعود إليه بحقّ الفتح[1]، لذلك لم يتحمّل أن يرى ماريوس يكتسحه، وأنّه من جهة أخرى كان قد أرسل وفدا ذات مرّة إلى روما التماسا للصداقة ولكن رفض استقباله، على أنّ الأهمّ يبقى في ألاّ نعود إلى الماضي وأنّه يرى إن سمح له ماريوس بذلك أن يرسل وفدا من جديد إلى مجلس الشيوخ". ولكن عندما تحصّل الملك البربري على الموافقة عاد فغيّر رأيه أمام إلحاح أصدقائه عليه بأنّ يوغرطة قد علم بمهمّة سولّة ومانليوس وأنّهم يخشون أن يؤدّي ذلك إلى ما لا تحمد عقباه.

(1) لا ندري ما ذا يقصد بوكوس هنا، لأنّ القسم الذي يتكلّم عنه منحه له يوغرطة في مقابل الاشتراك معه في الحرب لطرد الرومان من كلّ نوميديا.

بوكوس يقرّر الاتصال بالرومان لإبرام السلم:

CIII- والحال أنّ ماريوس بعد أن أدخل جيشه إلى معسكراته الشتوية، اصطحب معه فرق المشاة الخفيفة وقسما من فرسانه واتّجه بهم في الصحراء لمحاصرة قلعة الملك، حيث كان يوغرطة قد أودع كلّ الفارّين من الجيش في حامية هناك، في حين حصل للملك بوكوس تقلّب جديد في موقفه - قد يكون ذلك ناتجا عن أفكار استخلصها من التأمّل في الهزيمتين اللتين مني بهما، أو من التحذيرات التي جاءته من بعض أصدقائه الذين لم تطلهم يد يوغرطة - فقرّر أن يختار خمسة من بين أصدقائه الخلّص من الذين شهد لهم بالنباهة والوفاء، وكلّفهم بالذهاب إلى ماريوس وفي حال موافقته على مقترحاته يواصلون مهمّتهم بالتنقّل إلى روما لعرض نفس المقترحات على مجلس الشيوخ الروماني وأعطاهم مطلق الصلاحيات في التفاوض لإبرام السلم فانطلق هؤلاء يحثّون الخطى إلاّ أنّهم فوجئوا في طريقهم بكمين[1] نصبه قطّاع طرق من الجيتول، ونجوا بأعجوبة بعد أن جرّدوا من كلّ شيء معهم، واتصلوا بسولّة وهم تحت هول الفزع والرعب، وعوض أن يستقبلهم سولّة بجفاء باعتبارهم أعداء وذلك جزاؤهم إلاّ أنّه استضافهم بمزيد من الرعاية والكرم، وهو الشيء الذي أقنع أولئك البرابر بأنّ البخل الذي وصم به الرومان ما هو إلاّ بهتان، وأنّ سولّة صديق حقيقي لهم لما بذل لهم من الهدايا والهبات، وكان الكثير من الناس في ذلك الزمان لا يدركون عواقب ما يراد من وراء استمالة الآخرين وإغرائهم، ويعتقدون أنّ الأسخياء لا يقصدون من وراء كرمهم إلاّ الحسنى؟، وكلّ هبة إنّما هي لحساب المودّة والإخلاص، وعليه كشف وفد بوكوس للكستور الروماني سولّة عن المهمّة التي كلّفوا بها، وترجّوه أن يساعدهم بنصائحه وأن يمنحهم الأمان، وعدّوا مزايا ملكهم من قوّة ووفاء وشموخ، وباختصار كلّ المنافع التي يمكن للرومان أن يجنوها من كسب بوكوس

---

(1) في واقع الحال لا يمكن أن نعتبر ما نقله سالوست بهذه الصيغة أمرا حقيقيا، ولعلّ الأمر يتعلّق بحراسة جيتولية للطرق والمنافذ لمراقبة تحرّكات الرومان، وأنّ أولئك المور وقعوا في قبضة تلك الحراسة، ثمّ تمكّنوا من الفرار لا غير، ولعلّهم نجحوا في إخفاء المهمّة التي كلّفهم بها بوكوس، أو أنّ المظهر الرثّ الذي وصلوا فيه إلى سولّة ما هو إلاّ حيلة وتنكّر لإبعاد الشكوك عن مهمّتهم الحقيقية.

إلى جانبهم، فردّ عليهم بأنّه سيعمل لكي ينالوا كلّ ما يطلبون، وأملى عليهم الطريقة التي ينبغي أن يكلّموا بها ماريوس والتي يعرضون بها مهمّتهم على مجلس الشيوخ، وأقاموا عنده قرابة الأربعين يوما.

وفد بوكوس يذهب إلى روما:

CIV- عاد ماريوس إلى سيرتا بعد أن أنهى حملته [المذكورة] وعلم بخبر وفد بوكوس فاستقدمهم من أوتيكا ومعهم سولّة،كما استدعى أيضا البريتور بليينوس (Bellienus) في ذات الوقت حضر كلّ أعضاء المنظومة السيناتورية الموجودين بأفريقيا، واطّلع وإياهم على مقترحات بوكوس، ووافق القنصل على مواصلة وفد بوكوس الطريق إلى روما، وطلب تعليق الحرب أثناء المفاوضات بموجب اتفاق بين الطرفين، مع أنّ البعض أبدى تحفّظا، ولكن سولّة كان يتفهّم أحوال البشر التي لا تثبت على حال وفي تغيّر دائم، وقبلت كلّ مقترحات المور فانطلقوا في ثلاثة نحو روما يرافقهم الكستور غنايوس أكتافيوس روسو (Cn. Octavius Ruso) الذي كان قد جاء إلى أفريقيا ومعه مرتّبات الجند،وعاد اثنان من وفد بوكوس إليه لإبلاغه خبر نجاح مساعيه ففرح كثيرا بذلك لا سيّما اللفتة الكريمة التي شمله بها سولّة.

وصل الوفد الموري إلى روما وفي مجلس الشيوخ توسّلوا للمجلس أن يغفر لملكهم الخطأ الذي وقع فيه بوقوفه إلى جانب يوغرطة، ثمّ طلبوا عقد تحالف وصداقة مع الرومان وكان الردّ بهذه العبارات: «إنّ المجلس والشعب الروماني لا ينسى الخدمات التي أسديت إليه مثلما أنّه لا ينسى الإجرام الذي ارتكب في حقّه، على أنّه وحيث أنّ بوكوس نادم حيال أخطائه فإنّه سيشمل بالعفو وسينال صداقة الشعب الروماني وتحالفه معه إذا أثبت أنّه جدير بهما[1]».

---

(1) في نظر بعض الباحثين أنّ سالوست لم ينقل لنا ردّ مجلس الشيوخ الروماني كما هو بل اختصره في جمل بسيطة وساذجة، مع أنّ نهاية الردّ فيه إشارة من طرف خفيّ بأنّ على بوكوس أن يعمل لكي يكون جديرا بصداقة الرومان وكأنّ تلك الجدارة لن ينالها إلاّ بتسليم يوغرطة.

CV- وصل هذا الردّ إلى بوكوس وبناء عليه بعث بوكوس إلى ماريوس رسالة يطلب فيها منه أن يرسل له سولّة للتباحث مع في القضايا المشتركة، فاستجاب وانطلق سولّة ومعه كوكبة من الفرسان والمشاة ورماة المقلاع الباليار وكذلك رماة السهام، وكتيبة من البلينيين[1](Paeligna) المزوّدين بسلاح المناوشة الخفيف الذي يحميهم من حراب العدو ورماحه ولا يثقل عليهم في السير، وفي اليوم الخامس من السير لاح لهم فجأة في سهل واسع وولكس نجل بوكوس ومعه حوالي ألف فارس ومع أنّ هذا العدد كان صغيرا إلاّ أنّه بدا لسولّة ورفاقه كبيرا،لأنّ جند وولكس كان يسير مشتّتا على غير نظام، فاستعدّ الجميع للمعركة وهم في كامل أهبتهم وتفحّصوا أسلحتهم، ومع أنّ الخوف كان مخيّما عليهم إلاّ أنّهم لم يفقدوا الأمل في الانتصار على خصم طالما انتصروا عليه وخلال ذلك عاد الفرسان الذين أرسلوا ليتبيّنوا الأمر وأكّدوا أنّ الهدوء يسود الكلّ وهي حقيقة لا مراء فيها.

CVI- عند وصول وُولُكس، حيّا الكستور [سولّة] وأخبره بأنّ والده أرسله لاستقباله ومرافقته، فسار الجميع ذلك اليوم واليوم الذي يليه دون أيّ طارئ وفي المساء عندما كان الجميع مستعدّا للنزول والتوقّف، فإذا بالموري [وولكس] يسرع نحو سولّة وهو ممتقع الوجه وأخبره بأنّه علم من عيونه أنّ يوغرطة يوجد في مكان غير بعيد وألحّ عليه في أن ينتهز الفرصة للنجاة تحت جنح الليل، فردّ عليه سولّة مزهوّاً بأنّه لا يخشى نوميديًا أوقعه الرومان في الهزيمة مرارا، وأنّه على ثقة تامّة من شجاعة جيشه، وحتّى لو تكون خسارته مؤكّدة فإنّه سيبقى صامدا ولا يخون هؤلاء الذين يقودهم لينجيهم بفرار لا يشرّف فصحّته ليست على ما يرام والمرض يوشك أن يفتك به[2]،.ومع ذلك استحسن نصح الأمير الموري فلم يعسكر ليلا وأمر جنده أن يتناولوا وجبتهم على عجل وأن يحرقوا المعسكر ثمّ ينطلقون في

---

(1) البلينيون هم شعب صغير من إيطاليا وعاصمة إقليمهم كورفينيوم (Corfinium) كانوا ضمن الجيش الروماني بصفة حلفاء (Socii) وكانوا يوفّرون فرقا لها قائد وعلم خاصّ.

(2) كان سولّة معتلاً وكما ذكر بلوتارك فإنّه كان يعاني من مرض سرطان الأمعاء حسب وصفه لهذا المرض في الفصل السادس والأربعين أنظر: - Plutaque, Sylla, XLVI.

هدوء مع أوّل الليل، ورغم الإرهاق العامّ الذي أحدثه المسير ليلا فإنّ سولّة مع شروق الشمس خطّط للمكان الذي سيعسكر فيه عندما أعلن الفرسان المور بأنّ يوغرطة يتمركز على بعد حوالي ألفي قدم، حينئذ اشتدّ فزع الرومان، واعتقدوا أنّ وولكس غدر بهم وأنّهم وقعوا في كمين، وأعرب بعضهم عن رغبته في الانتقام بالقوّة وأن لا يتركوا جرم وولكس دون عقاب.

CVII – كان سولّة يشاركهم هذه المشاعر ولكنّه منع استعمال أيّ عنف ضدّ الموري، وحثّ جنده على التحلّي بروح الشجاعة منبّها إياهم قائلا:

«كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة أو على الأقلّ احترست لتكون في مأمن وأنّه إذا كان عارا وشنارا أن يحدث الفرار وأنتم شاكّو السلاح، فإنّ الخطر يكون كبيرا إذا استقبلتم العدو بصدوركم وأنتم دون سلاح...» ثمّ أشهد يوبيتر العظيم على جرم بوكوس، وأمر وُولكس الذي أظهر سلوكا معاديا أن يخرج من معسكره فترجّاهم [وولوكس] وقد اغرورقت عيناه بالدموع متوسّلا ألاّ يرتابوا فيه محتجّا: بأن لا أثر للخيانة في كلّ هذا وكلّ ما حدث يعود إلى براعة يوغرطة ونباهته وأنّ عيونه أخبروه- دون ريب – عن زحف الرومان وفي ما عدا ذلك لا يبدو أنّ ليوغرطة فرقا عديدة يتجرّأ بها على القيام بعمل عسكري في حضور وعلى مرأى نجل ملك يعلّق عليه الآمال، وفي رأيه فإنّ الأجدى إنّما هو التقدّم بجرأة إلى وسط معسكره وسيكون جنوده المور في المقدّمة أمّا هو فسيكون إلى جانب سولّة وقد اعتمد هذا الموقف في الحال طالما أنّ الظروف باقية على حالتها، ووقف الجميع منتبها نحو الطريق مستغلّين الارتياب أو التردّد الذي يثيره وصولهم المفاجئ لدى يوغرطة، ومرّوا دون عائق وبعد أيّام قليلة وصلوا مقصدهم.

CVIII– كان في بلاط بوكوس نوميدي اسمه أُسبار (Aspar) تربطه بالملك علاقة حميمة، وكان يوغرطة قد اتصل به منذ أن علم بمقدم سولّة ليعرف منه مرامي حليفه، وكان في بلاط بوكوس نوميدي آخر من الأُسرة الماسينيسية هو دابار نجل ماسوغرادا (Dabar Massugradae Filius) ولكن أصله من جهة جدّته كان متدنّيا – فقد وُلد أبوها من سرّيّة – وكانت فضائله العديدة سبب تعلّق الملك به واحترامه إياه.

لإثبات ولائه تجاه روما في أكثر من موقف، أرسل بوكوس إلى سولّة يعلمه أنّه مستعدّ في الحال لتنفيذ إرادة الشعب الروماني، وما عليه [سولّة] سوى أن يختار بنفسه اليوم والساعة لعقد لقاء بينهما، دون أن يبدي ضجرا من ممثّل يوغرطة، وكان مرماه ألاّ يظهر ما يوحي بأيّ تغيّر إزاء هذا الأخير، لكي يتمّ التفاوض في مصالحهما المشتركة بكلّ حرّيّة، ذلك أنّه ليس لديه وسيلة أخرى يحتمي بها من مكائد يوغرطة غير هذه الأساليب، وأعتقد ألاّ شيء يستوثق منه من هذه الحجج التي يتعلّل بها بوكوس، إلاّ إذا كان في ذلك خيانة بونية الحبكة، بقيت معلّقة على أمل السلم بين الرومان والنوميد في أن واحد، ولذلك بقي بوكوس طويلا يتأرجح بين تسليم يوغرطة للرومان أو سولّة ليوغرطة فالعاطفة تحدّثه أن يكون ضدّ الرومان والخوف يقنعه أن يكون معهم.

CIX - كان ردّ سولّة أن يكون اللقاء مع أسبار قصيرا على أن تعقبه مقابلة سرّية مع الملك [بوكوس] دون علم أحد، وإن كان هناك حضور فليكونوا قليلين، وساعتها سيملي الردّ الذي يريد لا الحاصل، ومثلما اشترط كان اللقاء فأدلى بأنّه موفد من قبل القنصل ليطلب منه [من بوكوس] توضيح ما إذا كان يريد السلم أم الحرب، وكانت تعليمات الملك أن يؤجّل الموضوع وأن يعود بعد عشرة أيام وأنّه إلى حدّ الساعة لم يقرّر شيئا، وعلى إثر ذلك انسحب إلى معسكره، لكن عندما مرّ من الليل أكثره استقدم سولّة سرّا، ولم يكن معهما إلاّ المترجمين ودابار الذي حضر كوسيط ومحلّ ثقة الطرفين، ثمّ بادر الملك بالكلام قائلا:

CX- «إنّني لا أفكّر إلاّ في نفسي، أنا الملك الأكبر في هذه البلاد، وكلّ الملوك الذين أعرف يقرّون بذلك، فكيف بشخص بسيط، ولتعلم ياسولّة أنّني قبل أن أعرفك كنتُ قد ساعدتُ الكثيرين، وكثير منهم ترجّى منّي ذلك وآخرون مددت لهم يد العون بعفوية، وما كنتُ أبدا في حاجة إلى مساعدة من أحد،وبعيدا عن الابتلاء بالصّغار مثل آخرين كثيرين، فأنا - على العكس منهم- في هناء تامّ، وصداقتك غالية لا يمتدّ إليها الشكّ وهي في نظري أثمن ما أملك، ويمكنك أن تضع ولائي على محكّ التجربة: الأسلحة والرجال والمال وباختصار كلّ ما يروقك فهو لك وتحت تصرّفك ما حييت، ولا تظنّنّ أنّني سأبرح جانبك

فأنا مدين لك بالعرفان الكامل على الدوام، وكلّ ما تريده ستناله شرط أن أطّلع عليه، لأنّه في نظري من الأهون على ملك أن يهزم عسكريا من أن يهزم في مقاومة تمليها الشهامة[1]. وفي ما يتعلّق بالجمهورية الرومانية التي قادتك مصالحها إلى هنا فها هو ما يمكن أن أقول لك:

إنّني لم أحارب الشعب الروماني ولم أكن أريد أن أحاربه أبدا، وإنّما دافعت بقوّة السلاح عن حدودي التي هوجمت بقوّة السلاح، أفلا يروقكم أن أفعل ذلك، حاربوا كما شئتم يوغرطة فلن أعبر نهر المولوشا الفاصل بيني وبين ميكيبسا ولن أسمح ليوغرطة باجتيازه وإن كان لديك بعض ما تطلبه منّي ممّا هو جدير بي وبشعبك فليس لك إلاّ أن تناله.

سولّة يزيّن لبوكوس فكرة الغدر بيوغرطة وتسليمه:

CXI - وفي معرض الردّ على هذا الخطاب، أوجز سولّة في ما يتعلّق به شخصيا، ثمّ أفاض في ما يخصّ السلم وما يجنيه الطرفان منه، ولم يخف عن الملك بأنّ مجلس الشيوخ والشعب الروماني بمقدار النصر الذي تحقّق بقوّة السلاح لا يعتبرون أبدا أنّ ذلك عنوانا كافيا للإقرار بالوعود التي أعلنها، وإنّ ما يراد منه هو أن يعمل شيئا في صالح الرومان لا أن يوقف ذلك على مصالحه الذاتية، وأيسر عمل هو تسليم يوغرطة -وهو تحت يده- للرومان وسيكون بذلك قد وفّى بالتزام كبير، يجعله ينال صداقة الرومان تلقائيا وكذلك الجزء الذي يطالب به من نوميديا فضلا عن التحالف مع الرومان.

أصرّ الملك [بوكوس] في البدء على الرفض متذرّعا بوشائج القربى والمصاهرة والمعاهدة التي عقدها مع يوغرطة، وهذا عدا الخوف من أنّ نكث العهد سينفّر منه الرعيّة التي يعلم إعزازها ليوغرطة بمقدار مقتها للرومان والخلاصة أنّه بدا ليّن الجانب ووعد بأن يعمل كلّ ما يريد سولّة، ووقع الاتفاق على الوسائل التي يمكن

---

(1) إنّ هذا الخطاب الذي وضعه سالوست على لسان الملك بوكوس ضمّنه كعادته ما يريد، بحيث يشعر القارئ بأنّ الملك ليس مستاء كثيرا بقدر ما هو راض عن الظروف التي جعلته يتعرّف بالرومان، وهو كمن يسير إلى حتفه باسم الوفاء والعرفان ....

استخدامها لإقناع يوغرطة بقبول إبرام السلم، فالجيش أنهكته الحرب، ولم يفترقا حتّى كانت الخيانة قد دُبّرت.

CXII- في الغداة استحضر الملك [بوكوس] لديه ممثّل يوغرطة أسبار وأعلمه بأنّ سولّة أخبره بواسطة دابار بأنّه من الممكن وضع نهاية للحرب وفقا لشروط ستناقش ورجاه أن يقف على نوايا ملكه [يوغرطة] فانطلق أسبار فرحا نحو معسكر يوغرطة وأخذ كلّ التعليمات ثمّ جدّ في السير عائدا في اليوم الثامن إلى بوكوس وأعلمه بأنّ ملكه راض بكلّ الشروط ولكنّه لا يثق في ماريوس لأنّه في كلّ مرّة يعقد فيها السلم مع القادة الرومان كان هو الوحيد الذي يعارض، وإن كان بوكوس يودّ المحافظة على مصالح كليهما وضمان سلم حقيقي فليس له سوى أن يعقد ندوة يحضرها كلّ المعنيين، وهنا يسلّم له سولّة رهينة وبذلك يجبر مجلس الشيوخ والشعب الروماني على إبرام معاهدة لأنّهم لن يتركوا في قبضة عدوّهم شخصا ذائع الصيت ضحيّة ليس لجبنه ولكن لإخلاصه الجمهورية.

تنفيذ المؤامرة الغادرة:

CXIII- بعد تردّد طويل، خلص الموري [بوكوس] إلى الوعد بعقد اللقاء ولا نعرف إن كان تردّده خدعةً أم حقيقة، ويبقى أنّ إرادة الملوك في الغالب متقلّبة أكثر منها حاسمة، وهي متناقضة في أحيان كثيرة، ومهما يكن فإنّه بمجرّد تحديد زمان ومكان اللقاء كان بوكوس يستدعي سولّة تارة وممثّل يوغرطة تارة أخرى وكان يعد الإثنين بنفس الوعود ويستقبلهما بمودّة، فكان يملأ هذا وذاك بالغبطة والأمل، وفي الليلة ما قبل اليوم المتفق عليه استدعى الموري [بوكوس] أهل الثقة الذين يستأمنهم ثمّ غيّر رأيه وسرّحهم في الحال، ودار في ذهنه نقاش كبير وبدا التغيّر على وجهه وعينيه، لقد خانته مشاعره فأظهرت ذلك الانقلاب المفاجئ الذي ظلّ خفيا رغم ما كان يبدو عليه من هدوء،وأخيرا نادى سولّة واتّفق معه على نصب كمين للنوميدي [يوغرطة]، وفي اليوم المحدّد عندما علم بوكوس باقتراب يوغرطة تقدّم للقائه مرفوقا ببعض أصدقائه والكستور [سولّة] كما لو أنّه يفعل ذلك تشريفا له، حتّى بلغ أكمة تبدو بجلاء للمتربّصين، أمّا النوميدي [يوغرطة] فكان مرفوقا بعدد

هامّ من المقرّبين إليه، كما أنّه جاء دون سلاح كما كان قد وعد، وما إن أعطيت الإشارة حتّى هوجم من كلّ جهة وأبيد من كان برفقته، وقبض عليه [يوغرطة] وسلّم إلى سولّة مصفّدا بالأغلال فاقتاده إلى ماريوس[1].

CXIV- في تلك الأثناء تكبّد القائدان كاييو ومانليوس (Caepeo et Cn. Manlius) هزيمة على يد الغاليين اهتزّت لها كلّ إيطاليا، ومنذ ذلك العهد إلى يومنا هذا [عصر سالوست] أيقن الرومان أنّه إذا أحنى كلّ العالم رأسه بارتياح أمام شجاعتهم فإنّ الصراع مع الغاليين سيبقى ليس بهدف المجد وإنّما من أجل الحياة، والحال أنّه عندما علمت روما بأنّ الحرب في نوميديا انتهت وأنّ يوغرطة جيء به مصفّدا بالأغلال إلى المدينة، احتفلت في أبّهة عظيمة بانتصار ماريوس الذي أعيد انتخابه-مع أنّه كان غائبا- قنصلا على رأس مقاطعة غاليا (Gallia) في غرّة يناير[2]، ومنذئذ أصبح أمل المدينة والمؤمّن على مواردها.

---

(1) لم يسجّل لنا سالوست شيئا عن مصير يوغرطة ومصير مملكته، مع أنّ الشخص الرئيسي في نصّه هو يوغرطة، وهذه من المآخذ التي وجّهها المتخصّصون إليه، ونعرف من مصادر أخرى بأنّ يوغرطة الذي قاد المقاومة من أجل المحافظة على سيادة المملكة النوميدية طيلة سبع سنوات أخذ أسيرا إلى روما سنة 105 ق.م. أين توفّي جوعا وبردا في سجن توليانوم (Tullianum) وكان في حوالي 54 من عمره، أمّا نوميديا فقد سلّم القسم الغربي منها إلى الملك الموري بوكوس وسيسمّى موريتانيا الشرقية والقسم الآخر بقي لغودة، وريث العرش النوميدي وصنيعة الرومان.

(2) أي في الواحد يناير سنة 104 ق م.

بيبليوغرافيا البحث

أولا / مصادر أساسية قديمة:

(1) **CAESAR (JULIUS)**, *De Bello Africano, Commentaires, Bellum Civile, "Belles Lettres" Paris, 1949.*

(2) **Orose (P.)** *Advers Paganos, PARIS 1947.*

(3) **SALLUSTIUS (C.C.)** *De Bello Jugurthino, Coniuratione Catilinae "Belles Lettres" Paris 1974.*

(4) **THUCYDIDE**, *Histoire de la guerre du Péloponnèse Editions Robert Laffont, Collection Bouquins, introduction par Jacqueline de Romilly, Paris 1964.*

(5) **Tite - Live**, *Histoire Romaine, "Belles Lettres" PARIS, 1954.*

ثانيا / الدوريات:

أ- عربية:

(6) بويزم (عبد القادر)، كتاب حرب يوغرطة للمؤرخ الروماني سالوستيوس، دفاتر التاريخ المغربية جامعة وهران العدد الأول، ديسمبر 1987.

(7) حارش (محمد الهادي)، سالوستيوس وحرب يوغرطة، مجلة مؤتة، المجلد السادس، العدد الأول، الأردن 1991.

(8) عتمان (أحمد)، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، سلسلة عالم المعرفة، عدد 141 الكويت 1989.

ب ـ أجنبية:

(9) **Courtois (C.)** *La Thala de Salluste, RSAC, LXIX, 1955 - 1956.*

(10) **BOSCO (J.)** *Au Sujet d'une nouvelle borne du domaine de SALLUSTE à B'Kira, R.S.A.C, VOLUME LXIII. 1935 - 1936.*

(11) **FLATTERS (P.)**. *L'Afrique Septentrionale Ancienne, IN R, Af, N21. Anne 1877.*

(12) **FOURNIER (A.)** *La Parole et l'acte chez Salluste, IN R. Af., N50, Anne 1906.*

(13) **RINN (L.)** *Les Premiers Royaumes Berbères et la guerre de Jugurtha, IN R. Af. N 29, Anne 1885.*

(14.) **TROUSSEL (M.)** *La BERBERIE Antique, IN R.S.A.C. Volume LXCI. 1948.*

ثالثا / كتب

أ ـ عربيـة:

(15) إيمار (أندريه)، تاريخ الحضارات العام-روما وإمبراطوريتها- تعريب يوسف وأسعد داغر، بيروت 1964.

(16) جوليان (شارل أندريه)، تاريخ أفريقيا الشمالية، ج1، تعريب محمد مزالي وبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس 1969.

(17) حاطوم (نور الدين)، المدخل إلى التاريخ، مطبعة الإنشاء، دمشق 1965.

(18) فنطر (امحمّد)، يوغرطة، الدار التونسية للنشر، تونس 1970.

(19) ول (ديورانت)، قصةالحضارة، المجلّدالعاشر، تعريب محمد بدران، القاهرة 1972.

(20) وهيب (إبراهيم سمعان)، الثقافة والتربية في العصور القديمة، دارالمعارف بمصر 1961.

ب ـ أجنبية:

(21) **Aron (R.)** *Introduction à la Philosophie de l'Histoire, 12ème Edition, Paris 1948.*

(22) **Bayle (P.)** *Dictionnaire Historique et Critique, Volume XIV. Genève 1969.*

(23.) **Berthier (A.)** *Le "BELLUM JUGURTHINUM" de Salluste et le problème de CIRTA, CONSTANTINE 1951.*

(24) **Carcopino (J.)** *Sylla ou La Monarchie Manquée, Edition l'Artisan du Livre, Paris 1947.*

(25) **DE LA Malle (Dureau)**, *L'Histoire des guerres des Romains, des Vandales et des Byzantins, accompagnée d'examen sur les moyens employés anciennement pour la conquête et la soumission de la portion de l'Afrique septentrionale nommée aujourd'hui l'Alégrie, Manuel Alégrien. Librairie de Firmin didot frères, imprimeurs de l'institut, rue Jacob, 56 Paris 1852.*

(26.) **De Romilly (J.)** *Histoire et raison chez Thucydide, Paris 1956.*

(27.) **De Roumilly (J.)** *La Construction de la vérité chez Thucydide, Paris 1990.*

(28.) **De Brosses (Le Président)** *Vie de Salluste, IN Srie des Auteurs Latins, Publiée sous la direction de Mr. Nisard, Ed. Firmin didot Frères Paris 1857.*

(29) **Ernout (A.)** *Salluste, Catilina, Jugurtha, Fragments des Histoires, Edition Belles Lettres, Paris 1974.*

(30) **Gsell (S.)** *Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, Paris 1928.*

(31.) **Grenier (A.)** *Le Gnie Romain, Edition La Renaissance du Livre, Paris 1925.*

(32) **Harmand (J.)** *Armée et Soldat à ROME, Paris 1949.*

(33) **Hauvette (H.)** *Littérature Italienne, Paris 1932.*

(34) **Luigi (P.)** *Histoire de l'Humanité, L' ANTIQUITE, UNESCO, Paris 1965.*

(35) **Macé (A.)** *Essai sur Suétone, Paris 1900.*

(36) **Mazard (J.)** *Corpus Nummum Numidae Mauretaniaeque, éd. Arts et Métiers graphiques, Paris 1955.*

(37) **Perrouchant (P.)** *Les Modèles Grecs de Salluste, Paris 1949.*

(38) **Rambaud (M.)** *L'Art de la Déformation Historique dans les Commentaires de César, 2ème Edition, Paris 1966.*

(39) **Richard (F.)** *Salluste, Conjuration de Catilina, Guerre de Jugurtha, Paris 1967.*

(40) **Steel (H.)** *L'Histoire et L'Historien, Nouveaux Horizons, Paris 1967.*

رابعا / دوائر المعارف:

(41) Encyclopaedia Universalis, Paris 1974.

(42) Larousse Encyclopdique, Paris 1979.

فهرس الأعلام

-أ-

- ب-

فهرس الأماكن والبلدان والشعوب

-أ-

- ب-

- ر -

- س -

- ص -

- ع -

- ف -

-ق-

- ك-

- ل-

- م-

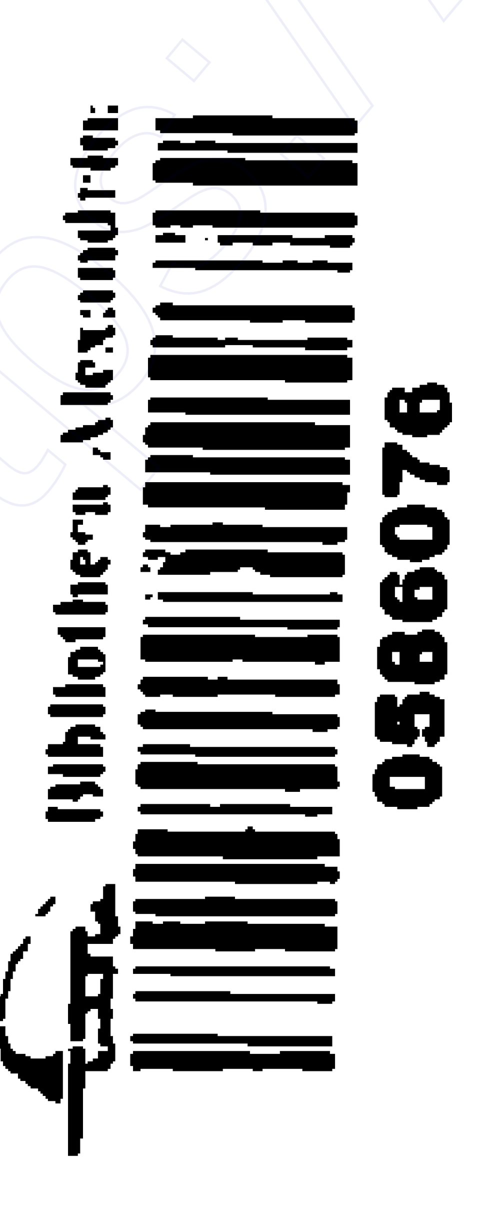
- ن-

فهرس الصور والخرائط

فهرس المحتوى

ملحق حرب يوغرطة

تمّ بعون الله



ردمك 3 - 800 - 60 - 9961